عماد الدين زنكي

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
المقدمة
١- ملاحظات
٢- تحليل المصادر
الفصل الأول : نسب عماد الدين زنكي ونشاته السياسية
الفصل الثاني : علاقات عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية
الفصل الثالث : عماد الدين زنكي وامارات المدن
الفصل الرابع : عماد الدين زنكي والإمارات المحلية في ديار بكر
الفصل الخامس : عماد الدين زنكي والاكراد
الفصل السادس : عماد الدين زنكي وحكام دمشق
الفصل السابع : عماد الدين زنكي والصليبيون
الفصل الثامن : حياة عماد الدين زنكي وشخصيته
الفصل التاسع : النظم العسكرية
الفصل العاشر : النظم الادارية
خارطة رقم (١) اقليم الجزيرة
خارطة رقم (٢) سوريا الشمالية
موارد البحث
١- المصادر القديمة
٢- المراجع الحديثة
٣- المراجع الاجنبية

المقدمة

١ – ملاحظات

كثيرة هي الاسباب التي تشد الانسان إلى جانب ما من جوانب التاريخ، تعلق بصره به، وتملؤه بالتقدير والاعجاب .. حادثة من الاحداث. انجاز حضاري مبدع. بطل يبرز فجأة من مآسي الانهزام والخور والسلب. حركة تبعث الميّتين إلى الحياة. وغيرها من الجوانب التي تجذب اقلام الباحثين من كل صوب، وفي كل مكان. ومن وراء اقلامهم رغبات شتى، بعضها يطفو كالزبد على سطح التعصب والانفعال، وبعضها الاخر يستقر، بثقله وجموده في القعر، وينأى بالتاريخ عن طبيعته الثرة الدفاقة أو وجوده الحي المتحرك ابداً، بكل مافي كينونة الانسان من طاقات، وما في الطبيعة حوله من عطاءات. ورغبات ثالثة، تكمن خلف الاقلام، تبتغي الجد وحده، وتتوسل اليه بالاسلوب الذي لا يمكن اجتياز ساحة التاريخ إلا به. الاسلوب الذي يجمع بين العقل والروح، وبين الاعجاب والتمعن العميق.

وتاريخنا الإسلامي مجرى دفاق، واغوار عميقة، وحركة ابدية تموج بين ضفتين ينفسح المدى بينهما – أحيانا – لكي يغطي مساحات واسعة من العالم، ويضيق – أحيانا أخرى – حتى ليكاد يقطع انفاس المبحرين فيه إلى مصائرهم. وفي فترات الاختناق والضيق هذه، في ساعات الخوف والعجز والهزيمة، في أيام المحن والأحزان والنكبات. كان يطلع – دائما – بطل من ثنايا الغيب، تبعثه حكمة الله من مداها البعيد، فيضرب، وجماهير أمته، يمينا وشمالا، بعزم وتصميم. وسرعان ما يجد المبحرون المختنقون المدى وقد انفسح أمامهم، والطريق المضطرب المضني وقد استقام تحت خطواتهم، فان هم ساروا على الطريق، واسهموا في توسيع المدى، ودفع الاختناق، منحهم الله الارض، وادال الايام لهم. وان هم عجزوا عن المتابعة، وكبتوا طاقاتهم وقدراتهم، سلبهم الله الارض، وادال الايام منهم.

وسيظل تاريخ المسلمين هكذا. يتأرجح بين المصيرين : اما حركة والتزام وجهد وابداع، فالارض والدولة. واما سكون وفسق ومروق وترف وتقليد، فتشرد وخضوع. وليس ثمة – في سنة الله – حل وسط، اما هذا. أو ذاك !!

***

هذا هو الدرس الفريد الذي يعلمنا اياه البحث الجاد، المخلص، عبر ايام الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمان. وما احوجنا اليه، ونحن نجتاز موجة عاتية جديدة من هذه الحروب التي يقف فيها الاسلام والمسلمون، وحيدين، امام القوى الهائلة التي تسعى إلى سحقهم وابادتهم، وتستهدف اخراجهم من الارض وتضييعهم في المتاهات، باسم المقدسات هذه المرة، كما كان الحال باسم المقدسات في المرة الاولى.

في تلك الايام، انطلقت جموع الصليبيّن التي حشدتها الكنيسة من كل مكان، تستهدف القدس. وفي الطريق إلى القدس راحت حصون المسلمين وقلاعهم ومواقعهم تتساقط واحدة بعد الأخرى. وفي الطريق إلى القدس اقيمت المجازر، ودخن على الناس في المغارات، واجريت الدماء انهارا. وفي الطريق إلى القدس مزق القرآن – كما روى لنا المؤرخون القدامى – مرارا، وسخر من الرسول العظيم تكرارا. ليس هذا فحسب، بل ان اولئك المؤرخين اطلعوا على مآس يندى لها الجبين في تاريخ الصراع بين المعتقدات. ثقب القرآن الكريم – على سبيل المثال – وربط في مؤخرة حصان راح يقبح عليه بينما انطلقت ضحكات الفرسان الصليبيين المحيطين به، وارتفع صوت أحدهم مناديا المسلمين : ليأت (محمدكم) لتخليص هذا الكتاب !!

في الطريق إلى القدس تجرع المسلون صنوفا من العذاب وذاقوا الهوان والاذلال الوانا.. كان الصراع قد طحنهم من قبل، وها هي قوة جديدة موحدة تبرز امامهم في الميدان.. امة بلا وحدة. وبلا قائد. حتم عليها أن تذل وان تخضع، وان تفقد الارض والدولة. ذلك هو منطق التاريخ، وتلك هي سنة الله.. وكان الطريق إلى القدس يتسع . يوما بعد يوم، تحت وقع سنابك الخيول المغيرة، وينفسح مداه أمام فرسان الصليب وقادته. وهناك، في القدس، حدثت المذبحة.. قتل عشرات الآلاف من المسلمين رجالا ونساء واطفالا. وراحت الخيول الغازية تجر قوائمها جرا، بمن عليه من فرسان، في برك الدماء، في تلك الايام كان المسلمون يتحرقون لظهور المنقذ الذي يوحّدهم تحت لواء، ويجمع طاقاتهم ليصبوها في بحر هدفهم الذي صبروا على انتظاره طويلا. المنقذ الذي ينطلق بهم، بقوة وثقة وتخطيط، صوب ساحات الجهاد التي خلت سنين طويلة من المجاهدين.. واقفرت من الابطال. لكن الارض الاسلامية ليست ارضا بورا، والتاريخ الإسلامي ليس مزرعة في الصحراء لا تنبت إلا الحسك والشوك والعلقم. ابداً. وهل يمكن ؟! وارضنا الاسلامية هي تلك الارض المعطاء، وتاريخنا هو تلك المزرعة التي استنبتها الزمن – دوما – حدائق ذات بهجة. وفاكهة. وأبّا ؟ ومن ثم ما كان للمسلمين ان يطيلوا الانتظار. ان الارض التي تستمد من عقيدة التوحيد والحركة، لا يمكن ان تعلن استسلامها وان تنام عندما تدهم

حدودها قوات الاعداء، وتجتاز تخومها خيول المغيرين. ما كان لهم ان يطيلوا الانتظار وهم يحيون في عصر لم تكن قد خبت فيه بعد قيم التوحيد والحركة التي اخرج بها الاسلام جاهليي العرب وامواتهم من الظلمات إلى النور.

وهكذا راحت هذه الارض تطلع على العالم الإسلامي بابطال، يستلم الواحد منهم الراية ويسلمها بدوره للبطل الذي سيليه. ابطال من كل مكان في ذلك العالم الفسيح، من كل جنس ومن كل لون : عربا واتراكا واكرادا، من العراق ومصر والشام، ومن بلاد فارس وما وراء النهر وتخوم الهند والصين. ليس هذا فحسب، بل كان يقف وراء كل واحد من هؤلاء الوف من المجاهدين شمروا عن سواعد الجد، وانطلقوا خلف قادتهم يدكون معاقل الغزاة ويستعيدون منهم الحصون والمواقع التي انتزعوها واحدا بعد اخر، ويضيقون الخناق عليهم يوما بعد يوم، حتى اضطروا – آخر الامر – إلى القاء السلاح والعودة من حيث جاءوا.

***

من أجل هذا كانت فترة الصراع الطويل هذه، تشدني دائما. فهي المنجم الذي لا قرار له والجامعة التي لا نهاية لخريجيها. والمدرسة التي لا حد لتعاليمها ومعطياتها. وكان اسم (عماد الدين زنكي) يلمع في ذهني منذ عهد بعيد. لقد قالوا لنا يوما – ونحن بعد صبيان – انه ظهر في عصر بدا المسلمون فيه عاجزين تماما ازاء الحشود التي غزتهم ودمرت عليهم أمنهم وسلامهم.. ظهر من الظلمات، كما يلتمع نجم ثاقب في اطواء غيوم كثيفة سوداء. وقالوا – ونحن بعد صبيان – انه انطلق بالمسلمين – لأول مرة – بجد واخلاص، وتحول بهم من مواقف الدفاع إلى الهجوم، ومن ثم اخذ يوجه بهم إلى خصومهم الضربات.

والاطفال تشدهم دوما مفاجات كهذه، انتقال سريع كهذا، وتعجبهم ابدا البطولات التي تظهر – على حين غرة – في عالم الخوف والجبن والانهزام. كذلك انطبع اسم عماد الدين زنكي على اعصابنا، ونقشت صورته في عقولنا وقلوبنا. وعندما قالوا لنا انه هو الذي مهد الطريق لنور الدين محمود، وصلاح الدين من بعده، زدنا انبهارا واعجابا !!

وفي دراستي للماجستير اتيح لي ان اكتب عن عماد الدين زنكي هذا. وان اتتبع حياته ومعطياته، من ألفها – كما يقولون – إلى يائها – ولقد وجدت بين الالف والياء الكثير الكثير مما يبعث على الاعجاب، ووجدت – كذلك – بعض ما يشوب هذا الكثير. ونقبت عن هذه الشوائب فوجدت لبعضها مبررات واعذارا، ولم اجد لبعضها الاخر مبررات ولا اعذارا. ولكن اليس كل ابن آدم خطاء. وان خير الخطائين التوابون، كما علمنا الرسول (عليه السلام) ؟ ثم، اليس

يكفي عماد الدين شرفا ومجدا إلا تستعبده هذه الاخطاء، كما استعبدت الكثيرين من قادة الارض وزعمائها وملوكها، وان يتجاوزها صوب مشارف النصر التي اخذت تلوح للمسلمين من قريب، وفي مدى ابصارهم ؟! اليس يكفيه ان يصرف جل جهوده لحراثة الارض الصلبة، وتهيئتها لمولد اولئك الذين تسلموا الراية من بعده، وساروا بالمسلمين خطوات حاسمة في هذا السبيل : نور الدين وصلاح الدين ؟! اوليس من الحق ان نتذكر – هنا – ما قاله يوما شيخ من الصالحين لوالد المؤرخ الشهير ابن الاثير، من انه رأى زنكي – بعد اغتياله – في المنام، في احسن حال، وانه سأله : ما فعل الله بك ؟ فاجاب : غفر لي !! فقال الرجل : بماذا ؟ فرد زنكي: بفتح الرها !!. وسنعلم – فيما بعد – كم هي عظيمة تلك الخطوة التي انجزها زنكي باسقاطه الرها : اولى امارات الصليبيين الاربع قياما واولاها سقوطا !!.

وفيما بعد، عندما نقبت في نفس المنجم، عن موضوع لرسالتي التالية (الدكتوراه)، وانتهى بي المطاف إلى (الإمارات الارتقية في ديار بكر)، تلك التي ظهرت في اقاصي شمالي الجزيرة الفراتية، على حدود الاناضول، وحكمت ما يزيد عن ثلاثة قرون. فيما بعد، وانا اعمل في هذا الموضوع الجديد، تبين لي ان عماد الدين زنكي لم يكن البطل الأول في هذا السبيل وان الارض الاسلامية، والامة الاسلامية، لا يمكنها – بحال – ان ينتظرا اكثرمن ثلاثين سنة كي ياتي عماد الدين زنكي. فطلعا على العالم، منذ السنين الاولى للصراع، بابطال قادوا المسلمين إلى مشارف النصر العظيم. تسلم الواحد منهم الراية من الاخر، طيلة ثلاثة عقود. ثم جاء عماد الدين زنكي فتسلمها، وأضاف إلى منجزات اولئك الابطال الكثير الكثير. وحّد الارض. وازاح العقبات. واسقط الرها.. وفتح الطريق امام نور الدين وصلاح الدين والناصر قلاوون، للسير فيه حتى النهاية، حيث عادت الارض والدولة إلى الامة التي صبرت طويلا على صراع قاس رهيب، تحتم سنة الله الصبر عليه !!.

إن (سقمان بن ارتق) وأخاه (ايلغازي) وابن عمه (بلك بن بهرام)، اولئك الذين تولوا عبء المقاومة في العقود الثلاثة الاولى من الغزو الصليبي، لم يقصروا في ميدان الجهاد. وماتوا، أو قتلوا، وهم قريري العين لانهم لم يخونوا العهد .. مات سقمان وهو في طريقه لنجدة موقع اسلامي محاصر. دهمه المرض وهو يحث الخطى للنجدة، فطلب منه اصحابه ان يعودوا ريثما يشفى من المرض الذي ألم به، فاجابهم : " لا والله! لا يراني الله تثاقلت عن قتال الكفار خوفا من الموت !! ". ومات اخوة ايلغازي لمرض الم به هو الاخر، بعد جولات من الصراع المضني ضد المواقع الصليبية في شمالي الشام. اما بلك بن بهرام، فما اروعه بطلا، وهو ينتزع

السهم الذي انغزر في ظهره، ارسلته يد واحد من اتباع امراء المسلمين الذين لم يفكروا – يوما – بوحدة المسلمين واهدافهم العليا، انتزعه بيده، وبصق عليه احتقارا وقال : " هذا قتل المسلمين كلهم " !! ومات. وفيما بعد. لاقى عماد الدين زنكي نفس المصير. وفي ذات المكان !!

***

ولا ريب ان مكانة زنكي الكبيرة في التاريخ الإسلامي ناجمة عن سعيه لجمع معظم بلاد الجزيرة والشام في ظل قيادة واحدة تستطيع الوقوف بوجه الخطر الصليبي وتعمل للقضاء عليه. وقد اتبع زنكي لتحقيق غرضه هذا خطوات سياسية وعسكرية منظمة جعلته مسؤولا عن مرحلة جديدة في (الجهاد) ضد الصليبيين، تميزت (بالتنظيم) الذي يعتمد رؤية (ستراتيجية) شاملة، بعد ان كان الامراء المحليون، في الفترة السابقة، يقاتلون اعداءهم ارتجالا ودونما تخطيط شامل مدروس إلا في القليل النادر.

وهذا البحث دراسة للخطوات التي اتبعها زنكي لتحقيق هدفه، وعرض لشخصيته ومنجزاته على جبهتي الحرب والسلم، وتحليل الظروف السلبية والإيجابية التي أحاطت به خلال سعيه لإنشاء اكبر إمارة إسلامية شهدتها منطقة الجزيرة والشام وشمالي العراق. تلك التي استمرت تحكم من بعده اكثر من قرن من الزمان وامتدت لكي تضم دمشق ومصر واليمن والحجاز في دولة قوية واحدة.

وقد عدت إلى (الأطروحة) التي تضمنت البحث في صيغته الأولى، فحرصت على نشرها قريبا من الشكل الذي تمت به الموافقة عليها. وكل ما أجريته من تغيير، فضلا عن إعادة الصياغة اللغوية هو إلغاء حشد كبير من مصادر البحث ومراجعه، من اجل تركيز الهوامش في اقل عدد ومساحة ممكنتين، كيلا اثقل على القراء، هذا فوق إضافة فصل جديد في نهاية الكتاب تناولت فيه منجزات زنكي الادارية، في محاولة لأحداث نوع من التوازن بين الجانب السياسي – العسكري، والجانب الحضاري من البحث، في عصر غدت فيه البحوث الحضارية – في مجال التاريخ – ذات شأن كبير، لا سيما وان العلاقة الوثيقة بين النظم الادارية والسياسية امر يعرفه الجميع، اذ لا يمكن اعطاء صورة واضحة عن سياسة دولة أو امارة ما، وتنظيمها العسكري، إلا بالقاء الاضواء على نظمها الادارية.

***

ولا يسعني – اخيرا – إلا ان اتوجه بالشكر والتقدير لاستاذي الفاضل الدكتور صالح احمد العلي – استاذ التاريخ الإسلامي في كلية آداب جامعة بغداد – الذي اشرف على اعداد هذه الرسالة، لما بذله من جهد كبير، وما ابداه من اطلاع واسع، وتوجيه قيم، وصبر على العمل، اثناء بحثي في الموضوع، مما كان له الاثر الأول في اخراجه بهذا الشكل.

كما اتقدم بالشكر والتقدير للاستاذين الفاضلين : الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور جعفر خصباك، للجهود التي بذلاها في اعدادي لهذه المرحلة، وللدكتور عبد المنعم رشاد، لقراءته مسودات الرسالة وابداء بعض الملاحظات عليها. ولن أنسى هنا المرحوم الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن، الذي شارك في لجنة مناقشة الرسالة، واترع جو النقاش بظلال الالفة والمحبة، بما هو معروف عن الاخوة المصريين من نكته بارعة وبديهة حاضرة !!.

أما الأخوة الذين تقدموا بالمساعدة في قراءة مسودات الرسالة وتصحيح ما فيها من اخطاء، فلهم مني جزيل الشكر والعرفان. والحمد – اولا واخيرا – لله. الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم.

٢- تحليل المصدر

انشأ عماد الدين زنكي دولته في ظروف شهدت ظهور عدد كبير من الإمارات المحلية في الجزيرة والشام، الامر الذي كان له تأثيره المباشر على نمو الحركة الفكرية وبخاصة كتابة التاريخ، حيث ان الاعتزاز بالانتماء إلى امارة ما كنتيجة من نتائج المنافسة الجادة بين تلك الإمارات، في شتى حقول الحياة والفكر، دفع عددا من المؤرخين إلى كتابة التواريخ المحلية للامارات التي عاشوا فيها، أو لقوا الرعاية والتشجيع من حكامها ومسؤوليها. وهكذا ظهر إلى حيز الوجود حشد مهم من هذه التواريخ عن الموصل وأربل وميا فارقين وآمد وحلب وشيزر ودمشق وحمص وحماة وغيرها، تميز باهميته الخاصة لكون معظمه كان يتكلم عن اوضاع معاصرة لفترة زنكي، أو قريبة منها، ولما نجد فيه من سرد لدقائق الحياة السياسية – والحضارية احيانا – في تلك المناطق.

وقد كتبت في هذا المجال دراسات علمية دقيقة اهمها :

المقالات الثلاث التي نشرت في كتاب :

The Historians of the Middle East, ed. by : ;B. Lewis, Oxford, 1962 :

1. The Historiography of the Seljuquide Period, by Clude Cahen, p.59.
2. Some Notes on Arabic Historiography during the Zengid and Ayyubid Periods, (521-648), by : M. Hilmy M. Ahmad, p.79.
3. The Origin and Development of the Local Histories of Surya, by : Samy Dahan, p.108.

والفصل التحليلي القيم الذي كتبه كاهن في كتابه :La Syrie du Nord,.

La Sources Arabs, PP. 33-73.

ومقال جب بعنوان : La Syrie Arabs , pp 33-73 .

ورسالة محمد حلمي محمد احمد، التي قدمها للدكتوراه بعنوان :

Studies on the works of Abu Shama, 1951

والمقدمة التي كتبها في تحقيقه لكتاب (الروضتين في اخبار الدولتين) لأبي شامة (١٩٥٦م). وكذلك مقدمة الدكتور جمال الدين الشيال لكتاب (مفرج الكروب في اخبار بني ايوب) لابن واصل (١٩٥٣م) وكتاب (مؤرخو الحروب الصليبية) للسيد الباز العريني، ومقدمتا الدكتور سامي الدهان لكتابي (زبدة الحلب من تاريخ حلب) لابن العديم (١٩٥٤م) و(الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة) (قسم دمشق) لابن شداد (١٩٥٦م)، فضلا عن دراسة عبد القادر احمد طليمات لكتاب (الباهر) لابن الاثير (١٩٦٣م).

ولن اعيد هنا ما توصلت اليه تلك الابحاث، ولكني ساقوم بتحليل اهم المصادر التي اعتمدتها في كتابة هذه الرسالة، لمعرفة طبيعة المادة التي قدمها كل منها، وما بينها من علاقات الأخذ والعطاء في هذا المجال.

ما من شك في ان ابن الاثير (٥٥٥-٦٣٠هـ) يقف على رأس المؤرخين الذين تكلموا عن زنكي. ذلك انه عاش في ظلال حكم الإمارة التي أنشأها الأخير، ونعم بما أتاحه له حكامها من مجالات وما حظي به لديهم من تقدير، فكان وفيا لهم، وخص أحدهم وهو الملك القاهر (٦٠٧-٦١٥هـ) بكتاب عن تاريخ امارة الاتابكة في الموصل سماه (الباهر). وهو يشمل الفترة الواقعة بين سنتي (٤٧٧-٦٠٧هـ)، أي منذ لمع اسم (آق سنقر) والد زنكي وحتى بدء ولاية (القاهر) الذي اهدي اليه الكتاب.

و(الباهر) هو احد المصادر الرئيسية لهذا البحث، ففيه معلومات مفصلة عن نسب زنكي وسيرته وشخصيته، نقلها ابن الاثير عن والده، كما يقدم روايات عديدة عن موضوع الجيش وديوانه، وفرق الجند واساليب القتال، وعلاقة زنكي بجنده، فضلا عن بعض النصوص المتعلقة بتنظيم الإقطاع والادارة، ويعتبر ما يقدمه (الباهر) في هذه المواضيع الاساس الذي اعتمد عليه عدد كبير من المؤرخين الذين نقلوا عنه، لا سيما أبو شامة وابن واصل. كما يعتبر المصدر الرئيسي عن علاقات زنكي السياسية. واعماله العسكرية، وبخاصة في الجهات الشمالية: الموصل واربل وجزيرة ابن عمر والمناطق الكردية، اما الجهات الأخرى، كبغداد والجزيرة وبلاد الشام، فبالرغم من تقديمه مادة واسعة عنها، إلا انه لا يعد مصدرا اساسيا، لقيام مؤلفه بالنقل عن مصادر أخرى تكمل ما قدمه في الباهر، واهم تلك المصادر ما كتبه ابن أبي طي الحلبي، والعظيمي، وابن الازرق الفارقي، والعماد الاصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، وابن القلانسي، فضلا عن كتاب (الاعتبار) للامير ابن منقذ الشيزري الذي عاصر زنكي ورافقه بعض الوقت، وقدم روايات مهمة عنه. إلا ان معظم ما اورده ابن الاثير في الباهر عن زنكي

نقله بصورة مباشرة عن والده، حيث يقول "ونقلت اكثره عن والدي ... فانه كان راوية حسنات – اتابكة الموصل – وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم."

يتبع ابن الاثير في الباهر التسلسل الزمني للاحداث، ويكتب رواياته باسلوب بسيط واضح، وقلما يلجأ إلى السجع والتعقيد اللفظي. وفي الفصل الذي خصصه لسيرة زنكي يخرج عن التسلسل الزمني، وذلك بتقسيمه هذا الفصل إلى وحدات موضوعية يتناول في كل منها جانبا من جوانب سيرته كشجاعته وهيبته وصدقاته وقوة عزمه وحسن رايه.. وهكذا.. ولا يستطيع الباحث ان يمر في ما كتبه ابن الاثير عن زنكي في كتابه هذا، دون ان يلحظ تحيزه إليه ضد خصومه في بعض الاحيان، حيث يبالغ بتمجيده، ويحاول اغفال الاخطاء التي مارسها والتي اشارت اليها مصادر أخرى. ولا ريب ان هذا التحيز يرجع إلى اعتزام مؤلفه تقديم كتابه هذا هدية للملك القاهر، احد احفاد زنكي، الامر الذي دفعه إلى اظهار (مؤسس الامارة) بمظهر (العظيم) البعيد عن اقتراف الاخطاء. (وقد أشرت إلى بعض مظاهر هذا التحيز في اماكنها من البحث).

أما كتاب (الكامل في التاريخ) فان ابن الاثير يبدو فيه بوضوح اقل تحيزا، واكثر موضوعية، حيث يسهب في عرض اخطاء زنكي التي اغفلها في مؤلفه الاخر. ويشمل الكامل ما تضمنه الباهر من روايات عن زنكي، كثيرا ما نجد شبها بينها في الاسلوب، إلا انها اقل تفصيلا هنا مما هي عليه في (الباهر).

وتحتل التواريخ المحلية الأخرى مكانة خاصة – كذلك – بين مصادر هذا البحث، ذلك ان امارة زنكي وعلاقاته شملتا مساحة جغرافية واسعة انتشر فيها الكثير من المدن والمواقع التي ألف عن بعضها كتب وصفت احوالها بعمق وتفصيل، وقدمت عن اعمال زنكي ونشاطه مادة لا نجد كثيرا منها في كتب التاريخ العامة.

فقد أورد الفارقي (ت ٥٧٢هـ) في كتابه (تاريخ امد وميا فارقين) معلومات مهمة، عن امراء ديار بكر من الارتقة وغيرهم، لم يذكرها ابن الاثير. كما قدم عز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ) – في الجزء الخاص بالجزيرة من كتابه : الاعلاق الخطيرة – معلومات مفصلة عن علاقات زنكي بمنطقة الجزيرة تعتبر متممة لما قدمه الفارقي. وتبدو أهمية ابن شداد – بصورة خاصة – فيما اورده من معلومات عن جغرافية كل مدينة من مدن الجزيرة وتاريخها السياسي، مما يلقى ضوءا على الفترة التي فتح فيها زنكي بعض هذه المدن. وقد اشار ابن شداد احيانا إلى بعض المؤرخين الذين نقل عنهم في هذا المجال وهم الفارقي بالدرجة الاولى، ثم ابن القلانسي

وابن الأثير وابن العديم، ولكنه لم يشر – في معظم الأحيان – إلى المصادر التي استقى منها معلوماته.

اما ابن العديم (ت ٦٦٠هـ) فقد قدم في تاريخه (زبدة الحلب من تاريخ حلب)، روايات بالغة الأهمية عن نشاط زنكي وعلاقاته في شمالي الشام، وبخاصة منطقة حلب، وعن أبيه (آق سنقر) الذي حكم حلب في الفترة (٤٧٩–٤٨٧هـ) وجهوده لنشر الامن في المنطقة، كما أورد روايات مفصلة عن النشاط الذي بذله زنكي من اجل السيطرة على دمشق، وعن علاقاته بحكامها، فضلا عما قدمه عن بعض جوانب شخصية زنكي وظروف مقتله. أما أهم المؤرخين الذين نقل عنهم ابن العديم فهم : ابن القلانسي وابن الجوزي وابن الاثير وبهاء الدين بن شداد، ثم العظيمي (ت ٥٥٦هـ) الذي اكثر ابن العديم من الاخذ عن (تاريخه) الذي لم يصلنا كاملا، بل وصلتنا معلومات مقتضبة منه في التاريخ (المختصر) الذي ألفه لزنكي.

ويعد كتاب ابن القلانسي (ت ٥٥٥هـ) (ذيل تاريخ دمشق) من كتب التاريخ العامة، إذ يتناول تفاصيل فترة طويلة (٣٦٠ –٥٥٥هـ) ويغطي احداث معظم العالم الإسلامي خلالها، لكن هذا لم يخرجه عن صفته (المحلية) لما يقدمه من تفاصيل دقيقة عن الاحداث التي شهدتها منطقة دمشق بشكل خاص، والجزيرة والشام بشكل عام، وترجع أهمية ابن القلانسي إلى انه من معاصري زنكي، ومن رجال دمشق المسؤولين، لذا نجده يقدم روايات دقيقة عما جرى بين زنكي وحكام دمشق من حروب ومفاوضات ومعاهدات، في الجهات الوسطى من بلاد الشام، إلا ان اسلوب المؤلف المسجع يجعل قراءة كتابه مملة وصعبة، لكثرة ما فيه من تكرار لا أهمية له.

أما ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) الذي عاش في بغداد، فانه يقدم في (المنتظم) روايات مفصلة مهمة، عن علاقات زنكي بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، وما بذله من جهود عسكرية وسياسية وادارية في هذا المجال، مما لم يتطرق اليها بهذا التفصيل سائر المؤرخين المعاصرين، إلا ان روايات ابن الجوزي، عن الاحداث التي وقعت في جهات نائية عن بغداد، تتسم بالضعف وعدم الدقة بسبب بعده عنها.

ويقدم العماد الاصفهاني (ت٥٩٧هـ) في كتابه (تاريخ دولة ال سلجوق) عددا من الروايات المهمة عن علاقات زنكي بالسلاجقة، وبخاصة تلك المتعلقة باتابكيته، وما ترتب عليها، وبالظروف التي احاطت حادث اغتياله، إلا ان الذي يقلل أهمية تلك الروايات ما فيها من مبالغة، وسجع في الاسلوب، ولم يصلنا كتاب الاصفهاني هذا إلا بالصورة التي اختصره بها مؤرخ اخر هو البنداري (ت٦٤٣هـ).

ويعد كتاب (الاعتبار) لاسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ) من المصادر المهمة عن الموضوع. لان مؤلفه عاصر زنكي ورافقه عدة سنين، واطلع خلال ذلك – على بعض تفاصيل نشاطاته السياسية، وعلى جوانب من حياته الخاصة. ومن ثم تكتسب رواياته عنه أهمية خاصة لانها صدرت عن (شاهد عيان) معتمد، ولان فيها اشارات – لانجدها في المصادر الأخرى – عن بعض الجوانب كالفروسية والصيد، وعدد من المعارك والمهمات التي قام بها ابن منقذ نفسه، والتي كانت لها علاقة مباشرة بامارة زنكي.

أما ابن واصل الحموي (ت٦٩٧هـ) فانه ينقل في كتابه (مفرج الكروب في اخبار بني ايوب) عن عدد من المؤرخين الذين سبقوه أو عاصروه كالفارقي وبهاء الدين بن شداد والعماد الاصفهاني وسبط بن الجوزي وابن العديم وأبي شامة. ويكثر من الاقتباس بشكل خاص عن كتابي ابن الاثير : الكامل والباهر. إلا انه يقدم احيانا روايات مفصلة، لم ترد في المصادر الأخرى، لا سيما عما وقع من احداث في منطقة حماة، مسقط رأسه، وفي الاقسام الوسطى من بلاد الشام.

واما أبو شامة (ت٦٦٥هـ) مؤلف كتاب (الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية)، فانه ينقل معظم رواياته عن زنكي من كتاب (الباهر)، نقلا حرفيا احيانا، وبتلخيص احيانا أخرى بعد اعادة صياغتها باسلوبه الخاص. كما انه ينقل عن مؤرخين اخرين كابن القلانسي وبهاء الدين شداد وابن منقذ والعماد الاصفهاني وابن العديم، ويقتبس بعض رواياته عن ابن أبي طي الحلبي (ت٦٣٠هـ) الذي لم تصلنا مؤلفاته، وما فيها من روايات مفصلة لم ترد في المصادر الأخرى، لا سيما تلك التي تتعلق باستيلاء زنكي على بعلبك ومعاملته لامرائها بعد استسلامهم، وما اعقب ذلك من احداث، كما تبدو أهمية أبي شامة فيما يقدمه من اشعار كثيرة لادباء معاصرين لزنكي، لم ترد في (الباهر) أو في المصادر الأخرى.

ولا بد من كلمة عن كتاب (شر فنامه) للبدليسي الذي الفه في حدود سنة (١٠٠٠هـ) وتناول فيه تاريخ الاكراد السياسي. فقد ادى تاخره الزمني. ونقله الاخبار دون تمحيص، إلى ايراد كثير من المعلومات غير الدقيقة، كتلك التي اوردها عن علاقة زنكي بامارة بدليس الكردية.

وهكذا يتضح ان التواريخ المحلية قدّمت الروايات الاساسية لموضوع هذا البحث، بما تميزت به من تركيز على مناطق بالذات، وبالتالي تقديم معلومات متكاملة، ودقيقة. عن معظم الجهات التي بلغها نشاط زنكي، الامر الذي ساعد على سد الثغرات التي كان يمكن أن تبقى دون معالجة لو لم تتيسر تواريخ كهذه.

ويمكن ان نضيف إلى هذه المصادر الرئيسية التي قدمت المادة (الاولية) لهذا البحث، كلا من (مرآة الزمان) لسبط بن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) الذي اكثر النقل عن ابن القلانسي، و(وفيات الاعيان) لابن خلكان (ت٦٨١هـ) صاحب سيرة الناصر صلاح الدين، الذي قدم معلومات عن اصل الايوبيين وعلاقتهم بزنكي، و(الفخري) لابن طباطبا (ت ٧٠٩هـ) الذي اورد بعض التفاصيل عن عدد من الشخصيات التي اتصلت بامير الموصل.

ولقد نقل عدد غير قليل من المؤلفات المتأخرة عن المصادر آنفة الذكر دون ان تأتي بشيء جديد، وهي لا تختلف عن سالفتها إلا في اسلوب عرض المادة، فبعضها يتبع نظام الحوليات، وبعضها الآخر يتبع نظام التراجم، أو التقسيم الموضوعي. معظم هذه المصادر تأخذ عن كتابي ابن الاثير : (الباهر) و(الكامل)، إلا ان بعضها يضيف معلومات من مصادر أخرى. واهم هذه المؤلفات هي : (مختصر تاريخ الدول) لابن العبري (٦٨٥هـ) و(المختصر في اخبار البشر) لأبي الفدا (ت ٧٣٢ هـ)، و(العبر في خبر من غبر) و(دول الاسلام) للذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، و(تتمة المختصر في اخبار البشر) لابن الوردي (ت ٧٥٠هـ)، و(البداية والنهاية) لابن كثير (ت٧٧٤هـ) و(العبر) لابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، و(السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزي (ت٨٧٤هـ) و(شذرات الذهب) لابن العماد (ت ١٠٨٩هـ).

وللمصادر الجغرافية أهميتها في تحديد الأماكن، وفي القاء الضوء على التاريخ السياسي للطوائف والقبائل ذات العلاقة، واهم هذه المصادر مروج الذهب للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ)، واحسن التقاسيم للمقدسي (ت٣٧٥هـ). ومعجم البلدان لياقوت (ت ٦٢٦هـ)، ونزهة القلوب للمستوفي القزويني (ت ٦٨٢هـ). وتقويم البلدان لأبي الفدا (٧٣٢هـ)، ومسالك الابصار للعمري (ت ٧٤٩)، وصبح الاعشى للقلقشندي (ت ٨٢١هـ).

أما المصادر الادبية والحضارية : كالخريدة للعماد الاصفهاني ورسائل ضياء الدين ابن الاثير، ومسالك الابصار للعمري، وصبح الأعشى للقلقشندي، وخطط المقريزي، وزبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهري، ونهاية الإرب للنويري، ومعيد النعم للسبكي، وغيرها، فان اهميتها تنصب على تقديم بعض الروايات المهمة عن الجيش والإقطاع والنظم الادارية، إلا انها – بحصر بحث هذه المواضيع ضمن العهدين الايوبي والمملوكي، في مصر والشام – قللت الاستفادة منها إلى حد ما في القاء الاضواء على نظم الفترة التي نتكلم عنها.

لم تتطرق البحوث الحديثة التي تناولت هذه الفترة إلى علاقات زنكي بالقوى والإمارات الاسلامية، أو إلى نسبه وحياته وشخصيته، بنوع من التفصيل، وصبت اهتمامها على تفصيل

علاقاته بالصليبيين فحسب. اما عن الجيش والإقطاع والنظم الادارية، فان هذه البحوث تناولتها في فترات سابقة أو لاحقة لعهد زنكي، وفي أماكن أخرى بعيدة ان امارته، مما يجعل من الصعوبة إلى حد ما الاستفادة منها في دراسة هذه المواضيع في العهد المذكور، بالرغم مما لبعضها من أهمية بالغة وبخاصة الفصل الذي كتبته المؤرخة الإنكليزية Lampton في كتاب Landlor and peasand in persia.

بعنوان : The Iqta Systm and the Seljuqu, pp. 61-67.

والذي عرضت فيه عوامل نشوء الإقطاع، بالشكل الذي عرف فيه في العصر السلجوقي، والنتائج التي ترتبت على ذلك. إلا أنها أكدت في بحثها هذا على مناطق بلاد فارس وما وراء النهر. وكذلك كتاب بولياك (الإقطاع في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان) والذي تناول فيه، بتفصيل دقيق، تطور الإقطاع في العصرين الايوبي والمملوكي وما تلاهما من عهود، الامر الذي لم يتح الاستفادة منه في إلقاء الضوء على الإقطاع في عصر عماد الدين زنكي.

وهناك – أيضاً – المقالات المفصلة التي نشرها كلود كاهن في عدد من المجلات الاوربية مثل (Arabica) و(Annales) و(J. A).

وقد استعنت بدائرة المعارف الاسلامية، بطبعتيها القديمة والحديثة، لتفسير بعض المصطلحات، ولإعطاء صورة مركزة عن التاريخ السياسي لبعض الإمارات التي كانت لزنكي علاقات بها كبني ارتق، وبعض الطوائف الكردية في الشمال.

الموصل : عماد الدين خليل

الفصل الأول
نسب عماد الدين زنكي ونشأته السياسية

نسبه ودور أبيه :

ينتمي عماد الدين زنكي بن اق سنقر بن عبد الله آل ترغان إلى قبائل (الساب يو) التركمانية[١] التي أغفلت المصادر تحديد موطنها، وطبيعة علاقتها بالسلاجقة، والدور الذي لعبته إلى جانبهم. وقد حظي والده أبو سعيد آق سنقر، الملقب بقسيم الدولة، والمعروف بالحاجب[٢]، باهتمام المؤرخين بسبب الدور الذي لعبه على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية للدولة السلجوقية. فقد كان مملوكا للسلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب ارسلان[٣] ، ومن المقربين لديه، وقد تربى معه ورافقه في عهدي الطفولة والصبا. وعندما تولى ملكشاه السلطنة عام (٤٨٥هـ) كان آق سنقر من أعيان أمرائه وأخص أصدقائه، وقد أعتمد عليه في كثير من الامور، فارتفعت منزلته ولقب بقسيم الدولة يوم كانت الالقاب لا تعطى إلا لمستحقيها[٤]. ولا توجد ثمة اشارة إلى المقصود من هذا اللقب، إلا أن تسمية ابن خلكان لاق سنقر بالحاجب، فضلاً عن اشارة بعض المصادر إلى كثرة اعتماد ملك شاه عليه في مهام الامور، ترجّح ان هذا اللقب كان يعني قيام آق سنقر بمنصب الحجابة، ومقاسمته لملك شاه شؤون الحكم والإدارة، بحيث اثار منافسة الوزير (نظام الملك)، فاخذ يحذره، ثم ما لبث ان أشار على السلطان بتولية حلب إبعادا له[٥].

اشترك آق سنقر إلى جانب السلاجقة في معارك عديدة، فقد سيره ملك شاه عام(٤٧٧هـ) مع عميد الدولة بن فخر الدولة في محاولة للاستيلاء على الموصل وطرد العقيليين منها، وقد

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب (مخطوطة) ، ج ٤ ، ورقة ٢٦٧ ظ – ٢٧٢ ظ . ويضع المؤلف نفسه (في زبدة الحلب ٢-٣-١٠-١٠٤) اسم (النعمان) بدلا من (آل ترغان) ، واغلب الظن ان هذا التحريف جاء بسبب خطأ من الناسخ ، فاسم النعمان عربي الاصل لا علاقة له بالتركية.

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحات ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ١-٢١٧-٢١٨.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ٢-١٠٣.

(٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ٤ ، ونقل عنه أبو شامة : الروضتين ١-٥٩ ، وابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ١-١١.

(٥) المصادر السابقة ، نفس الصفحات.

تمكنا من إنجاز هذه المهمة[٦]. وبعد مرور سنتين اشترك مع السلطان ملك شاه في انتزاع حلب من نواب العقيليين فولاه إياها تقديرا لجهوده[٧] ، ولعله فعل ذلك استجابة لالحاح وزيره نظام الملك الذي كان يسعى لإبعاد خصمه عن مركز الدولة السلجوقية. وقد تسلم آق سنقر منصبه في حلب وأعمالها كمنبج واللاذقية وكفر طاب[٨] ، واستطاع ان يوسع نطاق ولايته بالاستيلاء على حمص عام (٤٨٣هـ)[٩] ، وحصن افامية عام (٤٨٤هـ)[١٠] ، كما فرض طاعته على صاحب شيزر عام (٤٨١هـ)[١١]. وفي عام (٤٨٥هـ) اشترك مع ملك شاه في مهاجمة العقيليين والانتصار عليهم قرب الموصل[١٢]. وقد ظلت علاقة آق سنقر بالسلطان ملك شاه قائمة على الطاعة والتفاهم المشترك[١٣] ولم يسع يوما إلى الخروج على اوامره[١٤] ، ورفض السلطان – بدوره – الاستجابة لشكاوى معارضي آق سنقر أو اقرار مساعيهم للتخلص منه[١٥]. ولما توفي ملك شاه عام (٤٨٥هـ). وتولى الحكم بعده ابنه بركيا روق ثار عليه عمه تاج الدولة تتش سلطان الشام، وطالب بالسلطنة لنفسه، وقد وجد آق سنقر نفسه مضطرا إلى الانضمام إليه لعدم إمكان مقاومته، ولان الاخبار باستقرار بركيا روق في السلطنة جاءت متأخرة. وقد استطاعت قوات تتش والامراء المتحالفين معه الاستيلاء على معظم مدن الجزيرة كالرحبة ونصيبين وميا فارقين، ثم اجتاحت الموصل بعد ان انتصرت على العقيليين في معركة لعب آق سنقر دورا رئيسيا فيها، واتجهت بعد ذلك إلى اذر بيجان لمواجهة السلطان بركيا روق. وما ان التقى الجيشان حتى ادرك آق سنقر ان عليه الوفاء بعهده لملكشاه، واستطاع ان يقنع بعض الامراء

---

(٦) المصادر السابقة : نفس الصفحات.

(٧) ابن الاثير : الكامل ١٠–٥٥ ، الباهر ، ص ٦–٨.

(٨) الباهر ، ص ٨ ، ونقل عنه أبو شامة : الروضتين ١–٦١ وابن واصل : مفرج الكروب ١–١٩.

(٩) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٠ ، زبدة الحلب ٢–١٠٦.

(١٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢١ ، زبدة الحلب ٢–١٠٦.

(١١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٩–١٢٠ ، الكامل ١٠–٦٢.

(١٢) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢١ ، مفرج الكروب ١–٢٢.

(١٣) الباهر ، ص ٢٨ ، الروضتين ١–٦١.

(١٤) مفرج الكروب ١–٢٠–٢١ ، البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٥–٦٦ ، الحسيني : الدولة السلجوقية ، ص ٧٢ ، ابن الوردي : تاريخ ٢–٥.

(١٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥–١٣٣.

بذلك، فانسحبوا جميعا من معسكر تتش وانضموا إلى قوات بركيا روق[١٦]. الأمر الذي فتّ في عضد تتش، فآثر الانسحاب إلى الشام.

ما لبث بركيا روق ان أمر آق سنقر بالتوجه إلى حلب لإيقاف مطامع عمه، وامده بقوة من جنده لتحقيق هذا الغرض. فلما علم تتش بذلك سار على رأس جيشه لمواجهة قائده القديم. وفي التاسع من جمادى الاولى عام (٤٧٧هـ) التقى الطرفان عند تل السلطان بالقرب من حلب، فحاقت الهزيمة بقوات آق سنقر وتمكن تتش من اسره وقتله، ومن ثم اتجه إلى حلب واستولى عليها. وقد استطاع احد مماليك آق سنقر العاملين في جيش تتش ان يغتال سيده السلجوقي خلال المعركة التي جرت في العام التالي بينه وبين بركيا روق قرب الري، فحاقت الهزيمة بقوات تتش واستتب الامر لبركيا روق[١٧].

أنجز آق سنقر – خلال ولايته على حلب – اعمالا شتى كان اهمها تمكنه من تحقيق الامن شمالي الشام، في تلك الفترة التي ازداد فيها قطاع الطرق، وانتشرت فيها اعمال السلب والنهب مما الحق اضرارا بالغة بالزراعة والتجارة هناك، وقد قام آق سنقر بنفسه " بمطاردة الحرامية وقطاع الطرق، ومخيفي السبيل، فاوقع بهم واستأصل شأفتهم قتلا وأسراً "[١٨]، وكتب إلى سائر عماله يأمرهم بتتبع المفسدين وتوفير الحماية التامة للمسافرين، فطوردوا في كل مكان[١٩]، وقد بلغ من تشدد آق سنقر في معاقبتهم ان صلب عددا منهم على ابواب حلب ليثير الرعب في قلوب الاخرين[٢٠] ، كما اعلن بانه سيغرم اهالي اية قرية تتعرض القوافل أو التجار المارون بها للنهب، بمقدار ما سلب من الاموال قلت ام كثرت الامر الذي دفع اهالي كل قرية إلى بذل جهودهم في حراسة القوافل التي تمّر بهم، والسهر على امنها حتى تستأنف مسيرها[٢١].

عادت هذه السياسة الحازمة التي اتبعها آق سنقر بنتائج هامة على المنطقة إذ ساد الاطمئنان، وأمنت الطرق، وانتشر العمران[٢٢] ، فانتعشت التجارة " وازداد ارتفاع البلد بالواردين

---

(١٦) الكامل ١٠–٨٢–٨٣.

(١٧) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٩–١٣٠ ، ابن الجوزي : المنتظم ٩–٧٦–٧٧ ، ٨٥ ، الكامل ١٠–٨٢–٨٣، ٨٦ ، ٩١ ، الباهر ، ص ١٢–١٥.

(١٨) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٠ ، وينقل عنه ابن الاثير في الكامل ١٠–٦٦.

(١٩) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٠.

(٢٠) مفرج الكروب ١–١٩.

(٢١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٠.

(٢٢) نفسه ، الكامل ١٠–٨٦ الباهر ، ص ١٥.

بالبضائع من جميع الجهات والاقطار "[٢٣] ، ورخصت الاسعار[٢٤] ، وقد بلغ من سيطرة آق سنقر على الامن في قرى حلب وضياعها ان ارسل من ينادي فيها ان لا يغلق احد بابه، وان يتركوا آلاتهم الزراعية في أماكنها ليلا ونهارا[٢٥]. ومن ثم جاءت شهرته بناء على ما انجزه في هذا المجال[٢٦].

اتبع آق سنقر مع سكان ولايته سياسة عادلة، فاحسن السيرة فيهم ونشر العدل بينهم، وكان شديد التقوى، عميق الايمان، انفق الكثير من الاموال على اعمار مسجد حلب[٢٧] ، واقام الحدود الشرعية في بلاده[٢٨] ، وكان – كما وصفه ابن واصل – " ذا وفاء عظيم، وحسن عهد ومروءة غزيرة. وانما كان قتله وفاءا لسطانه ورب نعمته : ملك شاه، وحفظا لولده – بركيا روق – من بعده "[٢٩].

نشأته السياسية :

يبدو ان من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهور عماد الدين زنكي منذ عهد طفولته، ذلك الدور الهام الذي لعبه ابوه آق سنقر في شؤون الدولة السلجوقية السياسية والعسكرية والادارية في الاعوام (٤٦٥–٤٨٧هـ)، والمكانة الذي حصل عليها نتيجة خدماته للسلاطين السلاجقة، وعمله على تدعيم كيانهم، حتى انه ضحى بحياته – كما رأينا – في سبيل الولاء للسلطان السلجوقي بركيا روق. ولم ينس هذا تضحية آق سنقر في سبيل عرشه فجازاه – بعد مقتله – بتوجيه العناية والاهتمام نحو ابنه الوحيد عماد الدين زنكي الذي كان آنذاك في العاشرة من عمره، وكان يقيم في حلب تحت رعاية مماليك أبيه، واصحابه الذين كانوا يكنون الحب العميق لآق سنقر[٣٠].

---

(٢٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٩ ، زبدة الحلب ٢–١٠٤.
(٢٤) الباهر ، ص ١٥ .
(٢٥) زبدة الحلب ٢–١٠٤.
(٢٦) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٩–١٢٠ ، الباهر ص ١٥.
(٢٧) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٠ ، الكامل ١٠–٦٦ ، زبدة الحلب ٢–١٠٥.
(٢٨) مفرج الكروب ١–١٩.
(٢٩) المصدر السابق ١–٢٧ ، الكامل ١٠–٨٦ .
(٣٠) الباهر ، ص ١٥ .

وعندما استولى القائد السلجوقي كربوقا على الموصل عام (٤٨٩هـ) باسم السلطان بركيا روق، اولى زنكي اهتماما خاصا وقال " انه ابن اخي، وانا اولى الناس بتربيته "، فاحضره المماليك عنده، ورای ان يمنحهم الاقطاعات وان ينظمهم تحت امرة زنكي للاعتناء به، ولكي يفيد منهم – كربوقا – في حروبه، لما كان يمتاز به هؤلاء من شجاعة ومقدرة على القتال[٣١]. وسرعان ما صارت لزنكي مكانة كبيرة في حاشية حاكم الموصل، وظل ملازما له حتى وفاته عام (٤٩٥هـ)[٣٢].

بقيت العلاقة طيبة بين زنكي وشمس الدولة جكرمش الذي اعقب كربوقا على ولاية الموصل (٤٩٥–٥٠٠هـ) والذي كان احد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه وعلى معرفة بالخدمات التي ادارها والد زنكي للسلاجقة، ومن ثم توثّقت العلاقة بينه وبين زنكي حيث " قربه واحبه واتخذه ولدا " وظل الاخير ملازما له حتى وفاته عام (٥٠٠هـ)[٣٣].

وعندما تلاه جاولي سقاو (٥٠٠–٥٠٢هـ) على ولاية الموصل كان زنكي قد بلغ مرحلة الشباب " وبدت عليه علائم الشهامة "، وساد الصفاء علاقاته بالوالي الجديد. إلا ان عصيان الاخير للسطان محمد عام (٥٠٢) وهروبه إلى الشام، دفع زنكي إلى الانفصال عنه وجماعة من كبار الامراء، في نفس الوقت الذي عين فيه السلطان واليا جديدا على الموصل هو الامير مودود بن التونتكين (٥٠٢–٥٠٧هـ) فانضم زنكي ورفاقه اليه، مما كان له ابلغ الاثر في نفس السلطان والوالي الجديد على السواء، الامر الذي رشحه لأن يكون من كبار امراء هذا لوالي، وان يحصل على المزيد من الاقطاعات[٣٤].

اشترك زنكي مع مودود في جميع المعارك التي خاضها ضد الصليبيين في الجزيرة والشام. وقاتل معه على اسوار الرها، وتل باشر، ومعرة النعمان عام (٥٠٥هـ)، كما اشترك إلى

---

(٣١) الكامل ١٠–١٤٦ ، الباهر ، ص ١٦ . ويضيف ابن الاثير ، في المصدرين السابقين ، رواية تسودها روح المبالغة ، يذكر فيها ان كربوقا افاد من زنكي خلال حروبه ، وانه عندما توجه للاستيلاء على امد ، واجتمع حشد ضخم من التركمان لمقاومته ، اخذ زنكي والقاه بين مماليك والده وقال لهم : (قاتلوا عن ابن صاحبكم) فارتفعت معنويات اولئك المماليك بوجود صبي آق سنقر بينهم في ساحة القتال ، وقاتلوا بحماس ، وتمكنوا اخيرا من هزيمة الاعداء. وقد اعرضنا عن الاخذ بهذه الرواية سيما وان المصادر الاخرى لا تؤيدها.

(٣٢) الكامل ١٠–١٤٦ ، الباهر ، ص ١٦.

(٣٣) الباهر ، ص ١٦.

(٣٤) واهمها مدينة تلعفر القريبة من الموصل : الفارقي : مخطوطة ، ورقة ١٠٠–ب.

جانبه في معارك طبرية عام (٥٠٧هـ). وقد اظهر خلال ذلك كله شجاعة ومقدرة على القتال اكسبته شهرة واسعة لدى المسلمين وظل ملازما لمودود حتى مقتله عام (٥٠٧هـ) على أيدي الباطنية في جامع دمشق[٣٥].

عاد زنكي إلى الموصل ليلتحق بخدمة الوالي الجديد (جيوش بك)، ثم ما لبث ان انضم إلى الأمير آق سنقر البرسقي الذي وجهه السلطان السلجوقي لقتال الصليبيين، في نفس العام. فقاتل في الرها وسميساط وسروج، واظهر من الشجاعة والمقدرة خلال ذلك ما زاد من شهرته لدى المسلمين[٣٦] ، ودفع السلطان محمد إلى ان يطلب من واليه على الموصل تقديم زنكي والرجوع إلى مشورته تقديرا لا خلاصه وقدراته[٣٧].

وعندما توفي السلطان محمد عام (٥١١هـ)، سعى (جيوش بك) إلى استغلال وجود ابنه مسعود – إذ كان اتابكا له – ودفعه إلى التوجه إلى بغداد لكي ينصب نفسه سلطانا على سلاجقة العراق، مستهدفا من وراء ذلك التحكم الفعلي في شؤون الدولة السلجوقية باسم السلطان الجديد. وقد أيد زنكي هذه المحاولة، وسار الوالي ومسعود متوجهين إلى بغداد على رأس حشد من قوات الموصل. إلا ان المحاولة اخفقت بعد سلسلة من الحروب والمناوشات شهدتها منطقة بغداد، واستتب الامر للسطان محمود الذي اعقب آباه في الحكم[٣٨]. وبعد ثلاثة اعوام حاول جيوش بك أن يثور ثانية ضد السلطان محمود، غير ان زنكي رفض تأييده. وأشار على المتمردين " بطاعة السلطان وترك مخالفته " وحذرهم عاقبة العصيان. لكنهم لم يلتفتوا إلى قوله، واقدموا على تنفيذ محاولتهم التي انتهت هي الأخرى بالفشل. بعد هزيمة جيوش بك ومسعود على يد السلطان محمود الذي بلغه موقف زنكي منه فقدره حق قدره واوصى البرسقي والي الموصل الجديد بالعناية به وتقديمه على سائر الامراء[٣٩].

---

(٣٥) الكامل ١٠-١٨٣-١٨٤ ، ١٨٦-١٨٧ ، الباهر ، ص ١٧-١٩ .

(٣٦) صار زنكي يلقب في هذه الفترة (بزنكي الشامي) تمييزا له عن احد الامراء المقاتلين في الشام وهو (زنكي بن برسق) صاحب همذان : الباهر ، ص ١٩.

(٣٧) الباهر ، ص ٢٤.

(٣٨) الكامل ١٠-٢٠٣-٢٠٥.

(٣٩) الباهر ٢٢-٢٤ ، ونقل عنه ابو شامة : الروضتين ١-٧٣.

وعندما عين البرسقي عام (٥١٦هـ) شحنة على العراق، رافقه زنكي واشترك إلى جانبه في المعركة التي دارت ضد دبيس امير الحلة وانتهت بهزيمة البرسقي[٤٠]. الذي رأى ان يزيد من اعتماده على زنكي في صراعه ضد دبيس، فولاه واسط – ذات الموقع الهام – وكلفه مهمة الدفاع عنها ضد هجمات امير الحلة. وقد استطاع زنكي ان يسحق في طريقه إلى واسط القوات التي حشدها دبيس للدفاع عن النعمانية، وان يستولي على هذا الموقع[٤١].

اظهر زنكي في منصبه الجديد حزما وكفاءة، وابان عن مقدرة ادارية فذة[٤٢] ، الامر الذي دفع البرسقي، حاكم العراق، إلى إضافة البصرة إلى ولايته، لكي يصد هجمات الاعراب الدائمة عليها، وينشر الامن في ربوعها[٤٣]. فانتقل زنكي اليها لكي يحقق فيها ما انجزه في واسط من نشر للامن وقضاء على الفوضى، وقد تمكن – في وقت قصير – من ان يوقف هجمات الاعراب وغاراتهم المتتابعة عند حدها، وان يجليهم إلى اعماق الصحراء، كما قضى على الفتن التي عمت البصرة، واظهر مقدرة عسكرية وادارية كالتي اظهرها في واسط من قبل، مما زاد من مكانته في نظر رجالات الدولة السلجوقية، ومن اهبته للاعداء، حتى ان دبيس ابن صدقة – اقوى امراء الجنوب – تجنب الاصطدام معه، لأنه ادرك انه ليس في طاقته مجابهته والتغلب عليه، وفضل توحيد جهوده ضد الخليفة العباسي في بغداد بدلا من مقارعة هذا الامير القدير[٤٤].

الا ان البرسقي وزنكي لم يتركا الخليفة يجابه بمفرده حشود دبيس، فجمعوا قواتهم والتقوا به في مطلع عام (٥١٧هـ) قريبا من الحلة، واستطاعوا – بفضل الخطة البارعة التي اتبعها زنكي – ان يلحقوا به هزيمة نكراء، وان يقتلوا ويأسروا الكثير من جنده، واضطر هو ومن سلم من قواته إلى الفرار، بينما عاد المسترشد وحلفاؤه إلى بغداد ليستقبلهم الاهالي هناك استقبالا حافلا، بعد ان خلصوهم من خطر محقق كان يحيق ببغداد ويعرضها للنهب والتخريب[٤٥]. ولم

---

(٤٠) المنتظم ٩–٢٣٢–٢٣٣ ، الكامل ١٠–٢٢٨–٢٢٩ ، الباهر ، ص ٢٤.

(٤١) الكامل ١٠–٢٢٨ – ٢٢٩ ، الباهر ، ص ٢٥.

(٤٢) الروضتين ١–٧٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢–١٩٠.

(٤٣) المصدران السابقان ، نفس الصفحات.

(٤٤) المصدران السابقان ، المنتظم ٩–٢٤٢–٢٤٣ ، الكامل ١٠–٢٣١–٢٣٢ ، الباهر ، ص ٢٥–٢٦.

(٤٥) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٨–٢٠٩ ، المنتظم ٩–٢٤٢–٢٤٣ ، الكامل ١٠–٢٣١–٢٣٢ ، الروضتين ١–٧٣–٧٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢–١٩٠.

يكن تدخل زنكي في هذه المعركة بسبب التزامات مسبقة تجاه الخليفة، وانما لكونه موظفا من موظفي الدولة السلجوقية، يرتبط بشحنتهم في العراق ويلتزم باوامرهم، وكان السلاجقة آنذاك يقفون إلى جانب الخليفة ضد عبث امراء الحلة.

كان زنكي – لدى مغادرته البصرة – قد فوض شؤونها لمقدم حاميتها الامير (سخت كمان). فاستغل دبيس بعد زنكي عنها وهاجمها على حين غرة وتمكن من قتل مقدم حاميتها ونهب اهاليها، لكن زنكي ما لبث ان عاد إلى البصرة ليقر الاوضاع فيها من جديد، فانسحب دبيس من المنطقة واتجه إلى الشام للعمل مع الصليبيين[٤٦].

أقيل البرسقي من شحنكية العراق في نفس العام (٥١٧هـ) واعيد إلى الموصل لقيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين، وعين يرتقش الزكوي شحنة بعده[٤٧]. فارسل البرسقي إلى زنكي يستدعيه من البصرة ليتجه معه إلى الموصل، غير ان الاخير فضل ان يربط مصيره بالسلطان السلجوقي، فلم يلبّ امر البرسقي وقرر الذهاب إلى اصفهان للالتحاق بحاشية السلطان محمود، يصحبه عدد من كبار امرائه، ثم ما لبث الأخير ان انتبه إلى ما يلاقيه زنكي من اهمال، فلام امراءه على عدم الاهتمام به والاعتناء بامره، وقرر تزويجه بارملة احد امرائه الكبار، وتم ذلك في احتفال شهده السلطان وعدد كبير من القادة والمسؤولين[٤٨] ، الامر الذي هيأ لزنكي فرصة الظهور في محيط كبار الامراء، وتعريف رجالات الدولة السلجوقية بمكانته.

غدت البصرة، بعد مغادرة زنكي لها، مسرحا للفوضى، وهدفا للنهب والتخريب وهجمات الاعراب، وبلغ السلطان ذلك فامر زنكي بالعودة اليها، بعد ان اقطعه اياها (٥١٨هـ). وطلب منه اتخاذ كافة الاجراءت اللازمة لتوطيد الامن في المنطقة، كما كلفه مهمة الاشراف على واسط والسعي للدفاع عنها اذا ما فكر الخليفة بارسال جيش للاستيلاء عليها، إذ كانت هدفا لمحاولاته التوسعية[٤٩].

غادر زنكي اصفهان إلى البصرة وباشر مهام منصبه، فاحسن معاملة اهلها واستطاع ان يخلصهم من هجمات الاعراب، وذلك عن طريق تنظيم دوريات عسكرية دائمة للقيام بهجامت مضادة على الاعراب ونصب الكمائن لهم. كما اهتم – في الوقت ذاته – بامور واسط، واخذ يمد

---

(٤٦) الكامل ١٠–٢٣٢ ، ٢٣٧ ، البداية والنهاية ١٢–١٩١.

(٤٧) المنتظم ٩–٢٤٩.

(٤٨) الكامل ١٠–٢٣٧ ، الباهر ، ص ٢٧–٢٨.

(٤٩) الباهر ، ص ٢٨.

السلطان باخبار العراق بحيث لم يخف عن الاخير شيئا من اموره، الامر الذي زاد من تقديره لجهود زنكي ومن ارتفاع منزلته عنده، ورشحه لمنصب شحنكية العراق[٥٠].

وفي عام (٥١٩هـ) تدهورت العلاقات بين الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي رأى نفسه مضطرا للتوجه إلى بغداد للحد من مطامح الخليفة ورفض سيطرته المباشرة على العراق. وكان الخليفة قد أرسل بعض جيوشه بقيادة عفيف الخادم للاستيلاء على واسط، إلا ان زنكي تمكن من صده والانتصار عليه في المعركة التي دارت بين الطرفين عند مشارف واسط، وفي العشرين من ذي الحجة وصل السلطان إلى بغداد وارسل إلى الخليفة يطلب منه اقرار الصلح فرفض الاخير طلبه، الامر الذي ادى إلى نشوب القتال بين الطرفين. وقد رأى السلطان ان يعتمد على زنكي في صراعه هذا، فارسل اليه يأمره بالحضور إلى بغداد على رأس قواته، وان يجلب معه ما يستطيع من زوارق حربية وسفن، فنفذ زنكي الامر، وجمع عددا كبيرا منها، اثر جولة قام بها في مناطق العراق الجنوبي لهذا الغرض، وبعد ان ملأها بالمقاتلة، اتخذ طريقه إلى بغداد. وما ان بلغ الخليفة نبأ تقدم زنكي بقواته الحاشدة برا ونهرا، حتى ادرك ان ليس في طاقته الصمود طويلا ازاء شروط السلطان، وان بغداد مقبلة على حصار شديد في البر والنهر، فارسل اليه يعلن موافقته على الصلح. ومن ثم دخل السلطان بغداد حيث تمت المصالحة وساد الوئام[٥١]. وهكذا لعب زنكي دورا حاسما في وضع حد للصراع بين السلطان والخليفة والذي كان من المحتمل ان يؤدي إلى نتائج لا تحمد عقابها.

اجتمع السلطان محمود – قبيل مغادرته بغداد – بكبار قادته وامرائه للتشاور معهم حول اختيار الشحنة الجديد للعراق، في ظروف صعبة كانت تحتم ترشيح رجل يامن معه السلطان جانب الخليفة، ويستطيع – في الوقت نفسه – القيام بمهام واجبه على خير وجه. وبعد تقليب وجهات النظر استقر الاختيار على زنكي، ذلك الذي لعب الدور الحاسم في اقرار الامن والسلام في العراق طيلة السنوات الاخيرة، وقد رحب جميع الامراء بهذا الترشيح. وفي العاشر من ربيع الاخر عام (٥٢٠) صدر منشور بتولي زنكي شحنكية العراق – إضافة إلى ما بيده من الإقطاع

---

(٥٠) نفسه ، الكامل ١٠-٣٤٤.

(٥١) المنتظم ٩-٢٥٢-٢٥٩ ، ١٠-٢-٥ ، الكامل ١٠-٢٤٢-٢٤٣ ، الباهر ، ص ٢٨-٣١.

والبلاد – وغادر السلطان محمود بغداد وقد اطمئن إلى نفوذه في العراق، بعد ان أناب عنه فيه الرجل الذي يستطيع ان يقوم بمهام منصبه خير قيام، ويجنبه عناء المشاكل والازمات[٥٢].

قضى زنكي في منصبه الجديد اربعة اشهر لا نعلم عن اعماله أو علاقته بالسلطنة والخلافة خلالها شيئا يذكر، لقصر مدتها، ثم ما لبث ان نقل بعدها إلى ولاية الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام[٥٣].

ذلك ان عز الدين مسعود بن البرسقي، والي الموصل (٥٢٠-٥٢١هـ) توفي عام (٥٢١هـ) فتولى البلاد من بعده اخوه الصغير، إلا أن وصيه (جاولي) استأثر بالحكم من دونه واسرع بمراسلة السلطان محمود طالبا منه اقرار ابن البرسقي على الموصل تقديرا للخدمات التي كان ابوه واخوه قد اداها للسلاجقة من قبل، كما ارسل وفدا من القاضي بهاء الدين الشهرزوري والحاجب صلاح الدين الياغسياني ليتفاوض مع السلطان ومندوبيه بهذا الشأن. ولم يكن جاولي يعلم بنوايا رجال وفده وموقفهم منه ؛ إذا كان كل من الشهرزوري والياغسياني يخافان تحكم جاولي في شؤون الولاية باسم الحاكم الجديد، ولا يرضيان بطاعته والتصرف حسب هواه. لذا فانهما ما ان غادرا الموصل إلى بغداد حتى اجتمعا هناك بنصير الدين جقر صهر الياغسياني واكثر اصحاب زنكي منزلة ومكانة، وعرضا عليه حقيقة المهمة التي كلّفا بها وتخوفهما من تحكم جاولي واستئثاره بالحكم من دونهما، فاقتنع نصير الدين بوجهة نظرهما واتفقوا جميعا على ترشيح زنكي لولاية الموصل والسعي لاقصاء كل من حاكم الموصل الجديد ووصيه جاولي. ومن ثم اتجهوا إلى دار الوزير (انو شروان بن خالد) واعلموه حقيقة الاوضاع في منطقة الجزيرة والشام وكيف انها غدت مسرحا لمطامع الصليبيين بعد ان قويت شوكتهم فيها، وكيف ان البرسقي (الذي ولي الموصل في الفترة بين ٥١٥-٥٢٠هـ) كان يقف بحزم امام محاولاتهم الدائمة، إلا ان مقتله اتاح المجال امامهم ثانية للتوغل في المناطق الاسلامية، سيما وان الذي اعقبه في حكم الموصل صبي صغير، وبينوا له انه لا بد لمنطقة الموصل والجزيرة من امير متمكن شجاع، يستطيع ان يقف بوجه الخطر الصليبي، ثم ختموا كلامهم قائلين انا جئنا لنعرض

---

(٥٢) الباهر ، ص ٣١ ، الكامل ١٠-٣٤٤ ، المنتظم ١٠-٥ ، الروضتين ١-٧٤.

(٥٣) ويبدو ان المصادر-باهتمامها في شرح الظروف التي ادت الى تولي زنكي الموصل- قد اهملت بحث دوره كشحنة على العراق.

عليك طبيعة الظروف الراهنة كيلا يتخذ أي اجراء قد يعود ضرره على المسلمين جميعا " فنبوء بغضب الله ولوم السلطان "[٥٤].

ذهب الوزير السلجوقي إلى السلطان محمود ليشرح له مهمة وفد الموصل واقتراحاته، فانتهز الياغسياني والشهرزوري الفرصة واجتمعا بزنكي واستطاعا ان يقررا معه ما كانا يطمحان اليه من مكانة في ادارة شؤون الموصل، إذ وعدهما زنكي بتولية احدهما قضاء البلاد، وتولية الآخر الحجابة وامرة الجيش. وحلف لهما على ذلك[٥٥]. والواقع ان زنكي اتيحت له – بهذا – فرصة نادرة لتحقيق طموحه واشباع نزعته إلى الاستقلال والاعراب عن قدرته على الابداع والانشاء، ولم يكن منصب الشحنكية – على خطورته – اكثر من كون صاحبه تابعا اداريا للسلطان السلجوقي يخضع لاوامره المباشرة.

على اثر المقابلة التي تمت بين الوزير السلجوقي و السلطان. قام الاخير باستدعاء وفد الموصل وطلب من اعضائه ترشيح من يرونه كفؤا لتولي الموصل. فعرضوا عليه عددا من الاسماء مؤكدين بشكل خاص على مكانة زنكي وكفاءته من دون الآخرين، فمال السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وتمكنه من انجاز المهام التي انيطت به من قبل، وأمره بالحضور. وبعد مناقشات قصيرة اقتنع السلطان بجدارة زنكي في القيام باعباء المنصب الجديد ومن ثم اصدر منشورا بتوليته الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام[٥٦]. وسلمه ولديه الب ارسلان والخفاجي ليكون اتابكا لهما (أي أبا مربيا) وفقا للتقاليد السلجوقية السائدة آنذاك، ومنذ ذلك الوقت سمي زنكي اتابكا واصبح كل من ولدي السلطان محمود تحت اشرافه المباشر[٥٧].

وفي الثالث من رمضان عام (٥٢١هـ) وصل بغداد الامير مجاهد الدين بهروز، قادما من بلاد فارس، ليتولى شحنكية العراق. فغادر زنكي ورجاله عاصمة العراق نحو الموصل لتسلم منصبه الجديد[٥٨].

---

(٥٤) الفارقي : مخطوطة ، ورقة ١٠٨ ١–١٠٨ ب ، الكامل ١٠–٢٤٥–٢٤٦ ، الباهر ، ص ٣٤–٣٥.

(٥٥) الفارقي : ورقة ١٠٨ ١–١٠٨ب.

(٥٦) الفارقي : ورقة ١٠٨ ١–١٠٨ب ، الكامل ١٠–٢٤٥–٢٤٦ ، ٢٤٨ ، الباهر ، ص ٣٤–٣٥. ويقدم ابن خلكان (وفيات الاعيان ٢–٧٩) معلومات مضطربة في هذا المجال ، اذ انه لا يفرق بين هذه الحادثة، وبين محاولة دبيس بن صدقة (امير الحلة) تولى الموصل بعد عزل زنكي ، والتي سترد تفاصيلها في مطلع الفصل الثاني.

(٥٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢–٧٩–٨٠ ، البنداري : آل سلجوق ، ص ١٨٧ وانظر الفصل التاسع.

(٥٨) المنتظم ١٠–٥ ، الكامل ١٠–٢٤٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢–١٩٦.

الفصل الثاني
علاقات عماد الدين زنكي
بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

ما ان توفى السلطان السلجوقي ملكشاه. آخر السلاطين الاقوياء، عام (٤٨٥هـ) حتى اخذ العباسيون يطمحون إلى استعادة سلطتهم الفعلية في الحكم، ودخل الطرفان في صراع استغرق معظم سني العقود الثلاثة الاولى من القرن السادس الهجري، وكان على زنكي – الذي بدأ يشق طريقه آنذاك – ان يحدد موقفه ازاء هذ الصراع. وقد رأينا في صفحات الفصل السابق كيف سعى إلى التزام جانب السلاجقة نظرا لارتباطه الاداري والعسكري بهم. أما الآن وقد منحوه ولاية الموصل، فقد كان عليه أن يعمّق صلاته بهم ويكرس طاقاته لتنفيذ سياستهم. لكنه لم يشأ ان يصطدم مع الخلافة. وسعى إلى ان تكون علاقاته بها قائمة على التفاهم والود حرصا منه على عدم استهلاك جهوده في صراع جانبي قد يودي بمطامحه. إلا ان ظروف الصراع المعقدة المتشابكة بين العباسيين و السلاجقة اضطرته إلى الادلاء بدلوه في مجرى الحوداث سيما بعد ان اصبح قوة لها وزنها في ميدان الاحداث.

فلقد تعرض، أثر توليه الموصل. لمحاولة استهدفت عزله عن منصبه واحلال دبيس بن صدقة، امير الحلة، محله، وكان هذا قد التحق – بعد فراره من العراق – بسنجر سلطان سلاجقة خراسان وما وراء النهر، واصبح من امرائه المقربين، وصادف ان قام السلطان محمود بزيارة لعمه سنجر لتصفية الخلافات القديمة بينهما ووضع قاعدة للصلح، وحين مغادرته عاصمة عمه. سلم اليه هذا دبيسا بن صدقة. وطلب ان يعزل زنكي عن الموصل ويستعيض عنه بدبيس. وان يطلب من الخليفة تحسين علاقته بالأخير بعد المشاكل التي أثارها ضد الخلافة فاستجاب السلطان محمود لمطالب عمه وغادر خراسان إلى همذان يصحبه دبيس بن صدقة[٥٩].

وفي مطلع عام (٥٢٣) وصل السلطان محمود إلى بغداد والتمس من الخليفة المسترشد تناسي خلافاته القديمة مع دبيس والسماح له بدخول بغداد، كما ارسل إلى زنكي – في نفس

---

(٥٩) ابن الجوزي : المنتظم ١٠–٨–٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢–١٩٨–١٩٩.

الوقت – يطلب منه التخلي عن منصبه وتسليمه لدبيس[٦٠]. فغادر زنكي الموصل مسرعا إلى بغداد. وفاجأ السلطان محمود بحضوره المباغت، وتمكن – بعد محادثات طويلة – من اقناعه بضرورة ابقائه على ولاية الموصل درءا للخطر الصيلبي. كما اكد طاعته واخلاصه له فخلع عليه السلطان واقره على ولايته[٦١]. وكتب له منشورا جديدا بحكم الموصل والجزيرة والشام، تأكيدا لمنشور عام (٥٢١هـ)[٦٢].

وقفت الظروف العامة التي احاطت بهذه القضية إلى جانب زنكي ومكنته من اقناع السلطان واحباط محاولة دبيس التي استهدفت الاطاحة بآماله جميعا، وكان على رأس تلك الظروف المساعدة ما بذله الخليفة من جهود لتثبيت زنكي على الموصل بدافع من كراهيته العميقة لدبيس، حتى انه ارسل إلى السلطان محمود يقول له " ان دبيسا اعان الفرنجة ضد المسلمين فكيف توليه ؟ "[٦٣]. وكان دبيس قد انضم إلى الصليبيين بعد هزيمة عام (٥١٧)، واسهم معهم في حصار حلب طمعا بالاستيلاء عليها وحكمها نيابة عنهم[٦٤]. ولم يكن اهالي بغداد اقل كراهية لدبيس وحقدا عليه من الخليفة نفسه. حتى انهم تظاهروا ضده لدى دخوله العاصمة. وراحوا ينددون به ويهتفون بالتأييد والدعاء للخليفة والسلطان[٦٥]. بسبب محاولات دبيس المتكررة لنهب بغداد وتخريبها[٦٦]. فضلاً عن مساعدته للصليبيين. ولم يكن في صالح السلطان محمود نفسه عزل زنكي عن الموصل. وهو الذي وقف إلى جانبه في الظروف الحرجة. ولعله لم يقم بمحاولة العزل – اساسا – إلا تحت ضغط عمه سنجر صاحب السلطة العليا على السلاجقة. هذا فضلاً عن ان تعيين دبيسا في الموصل قد يتيح لسنجر ان يتخذ منه صنيعة ضد مصالح السلطان محمود في العراق.

أطمأن زنكي إلى ولايته طيلة الأعوام الاخيرة من حكم السلطان محمود وعندما توفي هذا في منتصف عام (٥٢٥). ارسل زنكي إلى الخليفة المسترشد يطلب منه ان يقيم الخطبة ببغداد

---

(٦٠) ابن الجوزي : المنتظم ١٠–١١ ، الكامل ١٠–٢٤٩.

(٦١) المنتظم ١٠–١١ ، الكامل ١٠–٢٤٩.

(٦٢) ابن واصل : مفرج الكروب ١–٤٠ ، زبدة الحلب ٢–٢٤٣.

(٦٣) زبدة الحلب ٢–٢٤٤ ، ابن كثير : البداية ١٢–١٩٩.

(٦٤) المنتظم ١٠–١١ ، ابن كثير : البداية ١٢–١٩٩.

(٦٥) زبدة الحلب ٢–٢٢١–٢٢٥.

(٦٦) المنتظم ١٠–١١.

للملك السلجوقي ألب ارسلان – وهو احد الملكين اللذين انيطت بزنكي مهمة الاشراف على تربيتهما – إلا ان الخليفة اعتذر عن ذلك محتجا بان ألب ارسلان لم يزل صبيا بعد، وان السلطان محمود كان قد عهد بالحكم من بعده لولده داود، وان حكام الاطراف والولايات قد بدأوا فعلا بالخطبة للسطان الجديد، واعلمه انه سوف لا يقدم على اتخاذ أي اجراء بهذا الصدد قبل ان تصله رسالة توضيحية من السلطان الكبير سنجر بن ملكشاه، فهو عم القوم وله القول الفصل(٦٧).

وهكذا افلتت من يد زنكي فرصة الاستفادة من وفاة السلطان محمود تلك التي اتاحت له مجالات جديدة، ودفعته إلى الخروج عن سياسة الولاء للسطان السلجوقي. وذلك بمحاولة تنصيب احد ابني السلطان الراحل محمود – المقيمين في الموصل تحت اشرافه – سلطانا على سلاجقة العراق ومطالبة الخليفة بالاعتراف الرسمي به. وبذا يغدو زنكي المتحكم الفعلي في شؤون العراق باسم السلطان الجديد.

في العام التالي استطاع السلطان محمود بن محمد – حاكم اذربيجان – استمالة زنكي لمساعدته في المطالبة بعرش سلاجقة العراق، لقاء منحه مدينة اربل الحصينة شرقي الموصل. وتم الاتفاق بينهما على ان يتجها إلى بغداد لمطالبة الخليفة المسترشد بالخطبة لمسعود، والاعتراف به سلطانا على العراق(٦٨).

إلا ان سلجوق شاه بن محمد – اخو مسعود الذي كان يطمح هو الاخر بعرش السلاجقة في العراق – سبق اخاه إلى بغداد، وطالب الخليفة بالخطبة له، فامتنع الاخير عن تنفيذ طلبه، ولما سمع سلجوق شاه باقتراب زنكي على رأس قواته الموالية لمسعود، امر قائده (قراجا الساقي) بالاسراع في التوجه شمالا لايقاف تقدمه، فوصل إلى مشارف سامراء باقل من يومين، ودارت المعركة بين الطرفين عند قصر المعشوق على الجهة المقابلة لسامراء، وانتهت بهزيمة زنكي واسر عدد كبير من قواته، فلجأ بمن معه من فلول إلى تكريت(٦٩).

---

(٦٧) ابن واصل : مفرج الكروب ١٤٦.

(٦٨) المصدر السابق ١–٩٧.

(٦٩) المنتظم ١٠–٢٥ ، الباهر ، ص ٤٣ ، الكامل ١٠–٢٥٧.

حيث اسرع واليها نجم الدين ايوب باقامة المعابر لهم. واكرام ضيافتهم لحين عودتهم إلى الموصل[٧٠]. وهناك استطاع زنكي ان يعيد تنظيم قواته، بعد ان انفق عليها اموالا كثيرة. وجهزها بالمؤن والمعّدات[٧١].

أدرك كل من مسعود وسلجوق شاه ان استمرار الصراع بينهما سوف يتيح الفرصة لتدخل عمهما سنجر والقضاء على مصالحهما في العراق. فعقدا بينهما صلحا ووحدا قواتهما لقتال سنجر، فرأى هذا ان يستميل زنكي ويتخذه حليفا ضد خصومه، فارسل اليه يطلب منه ان يقوم ودبيس ابن صدقة بالاستيلاء على بغداد واعلان الخطبة له هناك ولحليفه الملك طغرل ابن محمد، ووعد سنجر – في حالة نجاح المحاولة – بتولية زنكي شحنكية العراق – إضافة لمنصبه – وباقطاع الحلة لدبيس بن صدقة[٧٢].

وافق زنكي على عرض السلطان سنجر، لاعتقاده ان النصر سيكون حليف الاخير ضد منافسيه : مسعود وسلجوق شاه، وبذا يستطيع – زنكي ان يحقق مزيدا من مطامحه، فغادر الموصل بصبحة دبيس في طريقهما إلى بغداد، وكان الاخوان مسعود وسلجوق شاه قد توجها لقتال عمهما سنجر. والزما المسترشد بالسير معهما، إلا انه توقف على الحدود بين العراق وفارس بانتظار نتيجة المعركة التي انتهت بانتصار سنجر على قوات مسعود وسلجوقشاه واعلان طغرل بن محمد سلطانا على العراق، والخطبة له في جميع البلاد[٧٣].

كان زنكي ودبيس قد اقتربا من بغداد، فلما سمع المسترشد بتقدمهما عاد إلى حاضرته واخذ يستعد للدفاع، وما لبث الطرفان ان اشتبكا في اواخر رجب، وحلت الهزيمة آخر الامر بقوات زنكي ودبيس. عاد بعدها الخليفة إلى بغداد وتراجع زنكي إلى الموصل. اما دبيس فقد قام بمحاولة الاستيلاء على الحلة. مقر امارته القديمة إلا ان نائب الخليفة هناك تمكن من صده[٧٤].

---

(٧٠) الكامل ١٠–٢٥٧ و١١ ١٣٨ ، الباهر ، ص ١١٩–١٢٠ ، وانظر الفصل الثالث للاطلاع على تفاصيل علاقاته ببني ايوب.

(٧١) الباهر ، ص ٤٣ .

(٧٢) المنتظم ١٠–٢٥–٢٦ ، الكامل ١٠–٢٥٧–٢٥٨ ، الباهر ، ص ٤٤.

(٧٣) المنتظم ١٠–٢٦ ، الكامل ١٠–٢٥٨–٢٥٩ ، الباهر ، ص ٤٤–٤٥.

(٧٤) المنتظم ١٠–٢٦ ، الكامل ١٠–٢٥٩ ، الباهر ، ص ٤٥–٤٦.

استطاع مسعود، بعد حروب عديدة ان يقضي على منافسيه. وان يغدو سلطانا على سلاجقة العراق وبلاد فارس، بموافقة عمه سنجر، إلا ان زنكي – الذي بلغ آنذاك درجة كبيرة من القوة والتمكن – لم يشأ ان يذعن للسلطان الجديد، واخذ يسعى لتشكيل الاحلاف مع الخليفة والامراء المعارضين. ضد حكم مسعود. حتى ان هذا كان، كلما وقع في ازمة أو قامت ضده ثورة. نسبها إلى زنكي. وظن انه هو الذي اشار بها وسعى اليها[٧٥]. وكان زنكي – من جهته – يدرك مدى عداء السلطان مسعود له. بسبب مواقفه العدائية السابقة منه. لذا انصبت خططه ضده على عدم اتاحة المجال امامه للتفرغ وتوجيه ضربة قاضية لمطامحه في المنطقة[٧٦].

كان لمعارك عامي (٥٢٦-٥٢٧) نتائج هامة بالنسبة لزنكي، منها انه خسر علاقته الودية السابقة بالسلطان السلجوقي. والتي افاد منها كثيرا في عهد السلطان محمود (٥١٢-٥٢٥هـ). لكنه حصل – من جهة أخرى – على مدينة اربل ذات الموقع الهام شرقي الموصل، كما اتسعت شهرته كأمير كبير له وزنه في الصراع بين السلاجقة انفسهم، أو بينهم وبين العباسيين كما انه خرج من تلك المعارك وقد تعرف على عائلة بني ايوب حيث كان له الفضل الأول في فسح مجال العمل العسكري والنشاط السياسي لابنائها. إلا ان اهم نتائج تلك المعارك كانت – ولا ريب – تدهور العلاقات بينه وبين الخليفة المسترشد.

ففي ربيع الأول من عام (٥٢٧) ارسل الخليفة إلى زنكي كتابا بنحى فيه باللائمة عليه، بسبب مواقفه العدائية السابقة منه، وقام رسوله بالاغلاظ لزنكي ثقة منه بقوة الخليفة، إلا ان زنكي امر بالقبض عليه، واحتجازه ومعاقبته على ما صدر منه[٧٧]. ولما سمع الخليفة بذلك ثارت ثائرته ، ووجد الفرصة سانحة لتوجيه ضربة انتقامية ضد خصمه، وتوسيع املاكه باتجاه الشمال. ذلك ان السلاجقة كانوا – آنذاك – في دوامة من الصراع العنيف في بلاد فارس[٧٨].

---

(٧٥) الكامل ١١-٣٨ ، الباهر ، ص ٦٥.

(٧٦) الكامل ١١ ٣٨ ، الباهر ، ص ٦٥.

(٧٧) الكامل ١١-٢ ، الباهر ، ص ٤٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ ٥٢ .

(٧٨) المصادر السابقة ، نفس الصفحات.

كما كان بعض الامراء قد التجأوا إلى الخليفة بسبب ذلك الصراع، فقوي مركزه بهم، واستطاع ان يحكم العراق حكما فعليا وان يجبي الاموال لحسابه[٧٩] ، الامر الذي يرجح القول بان لومه لزنكي جاء اثر شعوره بقوة مركزه وقدرته على انزال العقاب بمنافسيه واعدائه.

وفي اواخر رمضان وصل الخليفة إلى الموصل على رأس ثلاثين الف مقاتل[٨٠] ، وكان زنكي – لدى سماعه نبأ زحف الخليفة بقواته الكبيرة – قد غادر الموصل على رأس قسم من جيشه، وعسكر بظاهر سنجار لكي يقوم من هناك بشن الهجمات السريعة على قوات الخليفة، ويعمل على قطع التموين عنها، وابقى القسم الاخر من جيشه في الموصل مع (نصير الدين جقر) نائبه هناك، ليقوم بمهمة الدفاع عن المدينة[٨١]. وقد اسرع هذا بتحصين الموصل وتعميق خنادقها استعدادا للهجوم القريب[٨٢].

بدأت قوات الخليفة بشن هجماتها ضد حصون الموصل، وازداد مركزها قوة بانضمام (أبي الهيجاء الكردي) – احد امراء الاكراد – اليها بجيوشه الكثيرة، لاعتقاده بضرورة مساندة الخليفة في صراعه ضد زنكي[٨٣].

الا ان جقر قام بمهمة الدفاع عن المدينة خير قيام. فيما كان زنكي يرسل سراياه لتمنع وصول المؤن إلى قوات الخليفة وانصاره، ولتشن الهجمات على معسكراتها[٨٤]. كما ارسل إلى الخليفة يعرض عليه مبلغا من المال مقابل انهاء الحصار لكن الاخير رفض طلبه[٨٥].

استمر الحصار ثمانين يوما، ولم يبد من قوات الدفاع عن الموصل ما يشير إلى ضعفها، بينما اخذت الاقوات تقل يوما بعد يوم في معسكرات الخليفة بفضل هجمات زنكي،

---

(٧٩) المصادر السابقة ، نفس الصفحات ،
Runciman , the History of the Crusades , Vol . 2 , pp. 194-195

(٨٠) المنتظم ١٠–٣٠ ، الباهر ، ص ٤٧ ، الكامل ١١–٢ ، ابن العبري : مختصر ، ص ٢٠٣. ويشير ابن الجوزي الى ان عدد قوات الخليفة بلغ اثني عشر الفا ، بينما يذكر ابن الاثير وابن العبري انها جاوزت الثلاثين الفا ، ويمكن اعتبار الرقمين صحيحين ، لان ابن الجوزي يفصل في انباء المرحلة الاولى من هذه الحادثة ، اما ابن الاثير وابن العبري فيؤكدان على انباء المراحل التالية حيث كانت قوات الخليفة تزداد عددا كلما تقدمت من الموصل ، وذلك بانضمام المتطوعين اليها.

(٨١) الباهر ، ص ٤٧ ، الكامل ١١–٢.

(٨٢) الفارقي : ميا فارقين ، المخطوطة ، ورقة ١٥٩أ ، ابن خلكان : وفيات ١–٣١٥.

(٨٣) المنتظم ١٠–٣٠.

(٨٤) الباهر ، ص ٤٧ ، الكامل ١١–٢ ، ابن واصل ١–٥٢.

(٨٥) المنتظم ١٠–٣٠.

حتى غدا جنده اشبه بالمحاصرين[٨٦]. وقد حاول جماعة من عمال البناء (الجصاصين) في الموصل القيام بمؤامرة تستهدف تسليم البلد إلى الخليفة، إلا ان مؤامرتهم اكتشفت، واعدموا[٨٧].

استغل السلطان مسعود فرصة انشغال الخليفة بحصار الموصل فتوجه إلى بغداد لتعزيز مركزه فيها. وتلقى الخليفة انباء تؤكد محاولة السلطان الاستعانة بدبيس بن صدفة لتحقيق اهدافه[٨٨]. مما اضطره إلى انهاء الحصار، خاصة بعد ما رأى من اصرار الموصل على المقاومة، وقفل عائدا إلى بغداد فوصلها في العاشر من ذي الحجة[٨٩]. وبذلك تخلص زنكي من الخطر الذي كاد ان يطيح بامارته، ويذهب بمكاسب سنين طويلة من العمل الدائب.

ما لبث المسترشد ان ارسل إلى زنكي. في مطلع العام التالي (٥٢٨هـ)[٩٠] يعرض عليه رغبته في التصالح، فاجابه زنكي دون تردد، والواقع ان سوء علاقة كل منهما بالسلطان مسعود هو الذي وحد بينهما من جديد لمواجهة الاخطار التي قد تنجم في المستقبل القريب، وارسل زنكي وفدا إلى بغداد ليقدم للخليفة مبلغا من المال ومجموعة ثمينة من الهدايا، معربا بذلك عن طاعته[٩١]. ومن ثم استمرت مبادلة الهدايا والوفود بين الطرفين وازدادت العلاقة بينهما وثوقا، فنجد الخليفة يبعث قاضيه رسولا إلى زنكي فيخلع عليه هذا، ويمنحه هدايا قيمة، ويكرمه اكراما بالغا[٩٢]. كما نجد زنكي يرسل – في مطلع عام ٥٢٩هـ – ابنه سيف الدين غازي ليؤكد طاعته للخليفة وولاءه له. فيستقبل استقبالا حافلا، ويسير في موكب عظيم إلى دار الخلافة، فيأمر الخليفة بانزاله في دار اعدت خصيصا لهذا الغرض[٩٣]. ويظل التقارب بين الطرفين يزداد يوما بعد يوم حتى يبلغ حدا يجد زنكي نفسه معه مضطرا إلى الاشتراك في صراع المسترشد ضد السلطان مسعود عام (٥٢٩هـ). بعد ان توترت العلاقات بينهما، وانتهت باعلان الخليفة وانصاره من الامراء الحرب على السلطان السلجوقي[٩٤].

---

(٨٦) الباهر ، ص ٤٧ ، الكامل ١١–٢ ، ابن واصل ١ ٥٢.

(٨٧) الكامل ١١–٢.

(٨٨) ابن الجوزي : المنتظم ١٠–٣٠.

(٨٩) المنتظم ١٠–٣٠ ، الكامل ١١–٢ ، الباهر ، ص ٤٧.

(٩٠) المنتظم ١٠–٣٤ ، الكامل ١١–٦ ، الباهر ، ص ٤٨.

(٩١) المنتظم ١٠–٣٤ ، الباهر ، ص ٤٨.

(٩٢) المنتظم ١٠–٣٥.

(٩٣) المنتظم ١٠–٤٢.

(٩٤) المنتظم ١٠–٤٥–٤٧ ، الباهر ، ص ٤٩ ، الكامل ١١–١٠–١١.

ذلك ان الخليفة ارسل إلى زنكي – الذي كان يحاصر دمشق آنذاك – يطلب فك الحصار والتوجه إلى بغداد للاشراف بنفسه على ادارة شؤون العراق، واعلان الخطبة لألب ارسلان بن محمود المقيم في الموصل، فاجابه زنكي إلى انهاء الحصار، وعقد صلح مع حكومة دمشق خطب بموجبه لألب ارسلان على منبر مسجدها الجامع، يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الاولى عام (٥٢٩هـ) واعقب زنكي ذلك بارسال نجدة لمساعدة الخليفة، إلا انها وصلت متأخرة، بعد انتصار السلطان مسعود على المسترشد في المعركة التي دارت بينهما في العاشر من رمضان عام (٥٢٩هـ)، وقد ظل الخليفة ماسورا حتى منتصف ذي القعدة، حين هاجمه جماعة من الباطنية وقتلوه، فكتب السلطان إلى شحنة العراق يأمره بمبايعة الراشد ابن المسترشد، فبويع هذا يوم الاثنين اواخر ذي القعدة من نفس العام[٩٥]. وهكذا ضاعت من زنكي فرصة أخرى، كان سيفيد منها لو قدر الانتصار للمسترشد، ونصب الب ارسلان سلطانا على العراق، الامر الذي كان سيؤدي إلى سيطرة كل من الخليفة وزنكي على شؤون العراق باسم السلطان الجديد.

كان من نتائج هذه المعركة ان زاد التوتر بين زنكي والسلطان مسعود وبلغ حدا دفع السلطان إلى القيام بمحاولة لاغتياله والتخلص من خطره بشكل نهائي، فاستدعاه إلى اصفهان، بحجة انه يرغب في مقابلته، إلا ان دبيسا بن صدقة اعلمه بالهدف الحقيقي للاستدعاء، فامتنع عن الذهاب وعندما بلغ السلطان ما فعله دبيس أمر بقتله[٩٦].

ما لبثت العلاقات ان تدهورت بين الخليفة الجديد وبين السلطان مسعود واجتمع لدى الراشد عدد من الامراء المناهضين للسلطان، وحبذوا له العمل على اسقاطه والمجيء بسلطان جديد يرتضونه[٩٧]. وفي مستهل صفر عام (٥٣٠هـ) وصل زنكي بغداد قادما من الشام، بعد ان استدعاه الراشد واتفق معه على اعلان الخطبة لألب ارسلان المقيم في الموصل[٩٨]. وانضم إلى الامراء الذين كانوا قد حرضوا الخليفة على اعلان العصيان ضد السلطان مسعود[٩٩].

---

(٩٥) المنتظم ١٠–٤٥–٥٠ ، الكامل ١١–١٠–١١ ، الباهر ، ص ٤٩–٥٠.

(٩٦) المنتظم ١٠–٥٣ ، زبدة الحلب ٢–٢٥٠–٢٥١.

(٩٧) المنتظم ١٠–٥٥ ، الكامل ١١–١٥ ، الباهر ، ص ٥١.

(٩٨) الفارقي : مخطوطة ، ورقة ١١٤–١١٥ أ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥–٢٥٨.

(٩٩) المنتظم ١٠–٥٥.

وجد الخليفة ان الفرصة قد سنحت بالعمل فالغى الخطبة لمسعود وحولها لداود بن محمود خلافا لما تم الاتفاق عليه مع زنكي[١٠٠] ، وقام السلطان الجديد بتعيين شحنة له في العراق[١٠١]. ولم يمض على ذلك سوى وقت قصير حتى دبت الخلافات بين الراشد وسائر الامراء بسبب المنافسات والاحقاد القديمة، ومحاولة الخليفة استغلال مركزة القوي للبطش برجال حكومة المسترشد، الامر الذي اغضب عددا من الامراء فانسحبوا من بغداد. وقد بذل زنكي جهده لتدارك الأمر قبل فوات الأوان، وطالب الخليفة بتجهيز المقاتلين بالاموال، وتناسي خلافاته القديمة، لكن الخليفة رفض مطالبيه الامر الذي دفع عددا من رجال الحكومة إلى الالتجاه إلى زنكي[١٠٢].

كان سلجوق شاه (اخو السلطان مسعود) قد وصل آنذاك إلى واسط وتمكن من الاستيلاء عليها، مما اضطر الراشد إلى ان يدفع لزنكي مبلغا من المال لكي يتجهز لاسترداد هذا الموقع المهم جنوبي بغداد[١٠٣]. لكن زنكي لم يستطع اداء هذه المهمة وانتهى زحفه على واسط بعقد صلح بينه وبين سلجوق شاه[١٠٤]. مما اعاد الشكوك ثانية بينه وبين الخليفة[١٠٥] إلا ان الاخير رأى ضرورة استمالة زنكي وتحسين علاقته به بالاعتماد عليه في تحقيق مطامحه وجرت بين الطرفين مقابلة ودية انتهت بتوحيد الصفوف ثانية والاستعداد لقتال السلطان مسعود[١٠٦].

اتفق المتحالفون على توجيه ضربتهم للسلطان مسعود في بلاد فارس نفسها إلا انهم ما ان قطعوا مسافة قصيرة حتى ورد خبر بتوجه مسعود على رأس قواته صوب بغداد فارتأوا ان يعودوا اليها لاتخاذ الاجراءات الدفاعية اللازمة لصد الهجوم[١٠٧].

---

(١٠٠) نفسه ، ابن واصل : مفرج الكروب ١-٦٤.

(١٠١) الكامل ١١-١٥.

(١٠٢) المنتظم ١٠-٥٥ ٥٦ ، الباهر ، ص ٥١-٥٢ ، الكامل ١١-١٥.

(١٠٣) المنتظم ١٠-٥٧.

(١٠٤) الكامل ١١-١٦-١٧ ، مفرج الكروب ١-٦٤ ، اما الباهر (٥٢-٥٣) فيورد رواية تتسم بطابع المبالغة والتمجيد لدور زنكي ، اعرضنا عن ذكرها.

(١٠٥) المنتظم ١٠-٥٦-٥٧.

(١٠٦) المنتظم ١٠-٥٧ ، مفرج الكروب ١-٦٥ ، الكامل ١١ ١٥.

(١٠٧) المنتظم ١٠-٥٧ ، مفرج الكروب ١-٦٥.

ما لبث السلطان مسعود ان فرض الحصار على بغداد وجرت مناوشات ومعارك جانبية بين الطرفين لم تسفر عن نتيجة حاسمة. وسعى السلطان إلى احلال الصلح وانهاء القتال دون جدوى، واخذت الاوضاع داخل بغداد تزداد سوءا يوما بعد يوم، وفي مطلع شوال استطاعت قوات مسعود ان تدخل الجانب الشرقي من بغداد وتوسعه نهبا وافسادا. مما عرفت في عضد المدافعين، يضاف إلى هذا ان زنكي ادرك مدى الجهود التي يبذلها السلطان للقضاء عليه، وتبين له عدم جدوى المقاومة، سيما بعد ان انتشرت الشكوك من جديد بين الامراء، فاشار على الراشد ان يرحل عن بغداد بصحبته(١٠٨).

وفي ليلة السبت، منتصف ذي القعدة غادر الخليفة وزنكي بغداد صوب الموصل تصحبهما قواتهما ورجالات حكومتيهما، وفي اليوم التالي دخل السلطان مسعود بغداد واعلن عن خلع الراشد وتولية الخلافة عمه المقتفي(١٠٩).

وصل زنكي والراشد الموصل في الحادي عشر من ذي الحجة، ولقي الاخير من حليفه كل كل تقدير واكرام. وكان يتنقل معه خلال تحركاته في المنطقة(١١٠). وظلت الخطبة للخليفة الجديد (المقتفي) مقتصرة على بعض انحاء العراق(١١١). بينما استمرت مناطق الموصل والجزيرة والشام تخطب للراشد الذي كان يتمتع بحماية زنكي وتاييده، وراجت شائعات تشير إلى احتمال قيام زنكي والراشد بالزحف على بغداد من جديد(١١٢).

غير ان هذا لم يدم طويلا، فقد شعر كل من الراشد و زنكي بضعف موقفهما ازاء السلاجقة والخليفة، وانهاء حالة الحرب بين الطرفين، إلا ان المسؤولين في بغداد رفضوا مقابلة رسول الراشد، اما رسول زنكي، القاضي كمال الشهرزوري، فقد استقبلوه بالحفاوة والاكرام رغبة منهم في استمالة سيّده وكسبه إلى جانبهم. الامر الذي اتاح لهذا الرسول ان ينجز مهمته

---

(١٠٨) المنتظم ١٠-٥٧-٥٩ ، الكامل ١١-١٧ ، مفرج الكروب ١-٦٥.

(١٠٩) المنتظم ١٠-٥٩-٦٠ ، الكامل ١١-١٧-١٨ ، الباهر ، ص ٥٣-٥٤ ، مفرج الكروب ١-٦٥-٦٦ ، الفارقي : المخطوطة ، ورقة ١١٤ أ-١١٥ أ.

(١١٠) المنتظم ١٠-٦٢ ، الباهر ، ص ٥٢-٥٣ ، الفارقي : ورقة ١١٦ ب.

(١١١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(١١٢) المنتظم ١٠-٦٨-٦٩.

على خير وجه، ولم يكتف بذلك بل طلب مقابلة السلطان مسعود نفسه واخذ منه العهود تجاه زنكي " واستنزله عما في نفسه منه "[١١٣].

عاد الشهرزوري إلى الموصل يحمل معه محضرا بخلع الراشد، وارسل المقتفي – في نفس الوقت – مبعوثه الخاص ليأخذ البيعة من زنكي، وليطلب منه ابعاد الراشد عن الموصل، كما وردت رسالة من السلطان سنجر، كبير السلاجقة، يؤكد فيها ضرورة ابعاد الراشد عن الموصل، وهكذا وجد زنكي نفسه مضطرا إلى التخلي عن حليفه والمبايعة للخليفة الجديد والتمس من الراشد المضي إلى حليفه الآخر الملك داود بن محمود السلجوقي في اذربيجان، فغادر الخليفة المخلوع الموصل صوب اذربيجان حيث انضم إلى داود، ثم ما لبث ان قصد اصفهان حيث اغتاله الباطنية في اواخر رمضان عام (٥٣٢هـ)[١١٤].

تحسنت العلاقات، اثر هذا الموقف، بين زنكي والسلطان مسعود، وفي ربيع الأول من عام (٥٣٢هـ) بعث السلطان رسوله بالتشريف الكامل لزنكي، وتلقى بدوره كتبا من نصير جقر، نائب زنكي، بشرح فيها احوال الموصل[١١٥]. كما قام زنكي – في رجب من العام نفسه – بارسال قاضيه (الشهرزوري) ليشرح للسلطان خطورة الاوضاع في شمالي الشام، وتهديد القوات الصليبية المتحالفة مع الروم لمدينة حلب، وليطلب منه نجدة عسكرية لمجابهة هذا الخطر. وكان الشهرزوري قد اعرب لزنكي عن تخوفه من دخول قوات السلاجقة بلاد الشام، واحتمال استيلائها على ممتلكاته فيها، إلا ان رد الاخير جاء قاطعا : (ان الصليبيين قد طمعوا في البلاد، وان هم استولوا على حلب لم يبق في الشام (اسلام)، وعلاى كل حال فالمسلمون اولى بها من الكفار)[١١٦].

استطاع الشهرزوري اقناع السلطان مسعود بامداده بعدد كبير من قواته بلغ عشرين الف فارس، لكن زنكي سرعان ما أرسل إلى بغداد يعلم رسوله ان قوات الصليبيين والروم قد

---

(١١٣) الكامل ١١–١٨–١٩ ، الباهر ، ص ٥٤ ، مفرج الكروب ١–٦٨–٧٠ ، ١٩–١١.

(١١٤) المنتظم ١٠–٦٧–٥٨–٧٦ ، الكامل ١١–١٩ ، الباهر ، ص ٥٤–٥٥ الفارقي : مخطوطة ، ١١٦ د–١١٧ أ ، مفرج الكروب ١–٧٠ ، ويقدم ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٥–٢٥٨) معلومات خاطئة.

(١١٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣.

(١١٦) الباهر ، ص ٦٢–٦٣ ، الكامل ١١–٢٤ ، ابو شامة : الروضتين ١–٨٩–٩١.

رحلت عن حلب، ويطلب منه اعادة النجدة السلجوقية إلى السلطان، بعد اذ لم تعد هناك حاجة اليها[١١٧].

استمرت العلاقات الودية بين الطرفين، وفي رمضان (٥٣٢هـ) قدم إلى زنكي، وهو على ابواب حمص، رسول من السلطان مسعود وخلع عليه[١١٨]. واغلب الظن ان ذلك كان لتهنئته على الانتصارات التي حققها ضد الصليبيين[١١٩].

ويبدو ان السلطان مسعود لم يكن مطمئنا لما كان يتمتع به زنكي من استقلال، وما يمتلكه من نفوذ، اخذ يزداد سعة يوما بعد يوم، لذا راح ينتظر الفرصة المواتية لتوجيه ضربة حاسمة ضده، سيما بعد ان رسخ الاعتقاد لديه ان خصمه هذا كان دائما وراء الفتن والثورات التي استهدفت الاطاحة بنفوذه في العراق، وان عددا كبيرا من الامراء كانوا يلتزمون بالخطط التي يرسمها والمحاولات التي يقوم بها ضده[١٢٠].

وقد اتيحت الفرصة عام (٥٣٨هـ) لقيام السلطان مسعود بتوجيه هذه الضربة، وذلك اثر حادثة مقتل الامير السلجوقي داود بن محمود في تبريز، ذلك العام، على ايدي الباطنية، وانتشار شائعات تقول بان زنكي هو الذي دبر اغتياله بالاتفاق مع جماعة من حشاشي الشام، عندما بلغه ان السلطان مسعود كان قد عول على ارساله للاستيلاء على الشام، وان زنكي ادرك ان هذه الخطوة سوف تقضي على مشاريعه هناك فاسرع بتدبير اغتياله[١٢١]. وكان السلطان قد انهى نزاعة مع اعدائه ومنافسيه وتفرغ لمهمته الجديدة، فجمع قواته وعزم على التوجه إلى الموصل للاستيلاء عليها وضم ممتلكات زنكي إلى دولته. ولما علم الاخبر بذلك ارسل يستعطفه ويستميله، فبعث مسعود اليه رسولا للتفاوض معه، وانتهت المفاوضات بعقد الصلح وايقاف السلطان لهجومه و(اقرار زنكي على امارته)[١٢٢]. وقد اشترط في بنود الصلح ان يدفع زنكي للسلطان مبلغا قدره مائة الف دينار، وان يتنازل له عن بعض اقطاعاته في بغداد[١٢٣]، كما

---

(١١٧) المصادر السابقة : نفس الصفحات ، وانظر الفصل السابع : (زنكي والصليبيون).

(١١٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٧ ، زبدة الحلب ٢-٢٦٩.

(١١٩) انظر الفصل السابع .

(١٢٠) الكامل ١١-٣٨ ، الباهر ، ص ٦٥ ، ٨٠.

(١٢١) البنداري : آل سلجوق ، ص ١٧٧.

(١٢٢) المنتظم ١٠-١٠٥ ، الكامل ١١-٣٨ ، الباهر ، ص ٦٥.

(١٢٣) المنتظم ١٠-١٠٨.

طلب السلطان حضور زنكي بنفسه إلى بلاطه لاعلان الطاعة، إلا ان الاخير امتنع معتذرا بانشغاله في جهاد الصليبيين (لتمكن هؤلاء وقربهم من بلاده) فعذره السلطان، وشرط عليه العمل على فتح الرها[١٢٤].

ويبدو ان السلطان مسعود ادرك خطورة الوضع في الجزيرة وشمالي الشام حيث غدا الصليبيون يشكلون خطرا مباشرا على المنطقة، وحيث استطاع زنكي – دون مساعدة السلاطين – الحد من ذلك الخطر، وارغام الصليبيين على التراجع، والتخلي عن كثير من مدنهم ومواقعهم. هذا فضلا عن ان السلطان – حين عزم على ضرب زنكي – جوبه بمعارضة شديدة من رجالالات دولته ومواطنيه على السواء، من اجل ابقاء امارة الموصل كحاجز قوي متماسك امام اطماع الصليبيين، وقد اوضحت – هذه المعارضة – ان زنكي هو الامير الوحيد في المنطقة. الجدير بالتصدي لتلك الاطماع، وان القضاء عليه يعني فتح الطريق إلى العراق امام الاعداء[١٢٥].

والى جانب ذلك قام زنكي بمناورة بارعة اكتسب من ورائها عطف السلطان مسعود وصداقته. ذلك أنه استقدم – سرا – ابنه سيف الدين الذي كان مقيما لدى السلطان، فلما وصل الموصل منعه من الدخول واعاده إلى السلطان ومعه رسول ليقول عن لسان زنكي (اني بلغني ان ولدي فارق الخدمة بغير اذن، فلم اجتمع به، ورددته إلى بابك !!)، فحل ذلك لدى السلطان محلا عظيما، وكان احد العوامل المهمة في استجابته لمطالب زنكي[١٢٦]. فاذا ما اضيف إلى ذلك حصانة امارة الموصل، وقوتها المادية والعسكرية[١٢٧] ، وصعوبة توجيه ضربة حاسمة ضدها، ادركنا الاسباب التي دفعت السلطان مسعود إلى ايقاف هجومه.

وما ان تم الصلح بين الطرفين حتى ارسل زنكي عشرين الف دينار مما التزم بتقديمه للسلطان، ثم اضطر الاخير إلى التنازل له عن بقية المبلغ بسبب خروج بعض امراء الاطراف على السلاجقة، الامر الذي دفعه إلى مداراة زنكي وكسب وده[١٢٨]. وقد استمرت العلاقات الودية

---

(١٢٤) الباهر ص ٦٥ ، .Runcimsn : Crusadea , 11/225 .

(١٢٥) المصدر السابق ، ص ٦٥–٦٦.

(١٢٦) نفسه ، ص ٦٥–٦٦.

(١٢٧) الكامل ١١–٣٨.

(١٢٨) نفسه ١١–٣٨ ، الباهر ، ص ٦٦ ، أما ابن الجوزي (المنتظم ١٠–١٠٥) فيجعل المبلغ المدفوع ثلاثين الفا بدلا من عشرين .

بين الطرفين طيلة السنين الاخيرة من حكم زنكي، وخاصة بعد النصر العظيم الذي احرزه ضد الصليبيين في الرها.

ولم تكن علاقات زنكي بالخليفة العباسي (المقتفي) – طيلة هذه الفترة – باقل ودية وتعاطفا من علاقاته بالسلطان. فقد استمرت الصلات المتبادلة بينهما منذ صلح عام (٥٣١هـ)، وقد ساعدت على ذلك السياسة المسالمة التي اتخذها المقتفي تجاه السلاجقة – على العكس من الخليفتين السابقين المسترشد والراشد – الامر الذي مكن زنكي من المحافظة على علاقاته الطيبة مع الخليفة. وقد ارسل هذا اليه عام (٥٣٢هـ) يطلب منه اطلاق سراح الزينبي قاضي قضاة بغداد السابق، الدي كان محتجزا في الموصل منذ عام (٥٣٠هـ) ، بسبب موقفه المعادي للراشد انذاك. وقد استجاب زنكي لطلب الخليفة واطلق سراح الزينبي الذي غادر الموصل إلى بغداد حيث اعيد إلى منصبه[١٢٩]. وفي اواخر شهر رمضان من العام نفسه ارسل الخليفة رسولا إلى زنكي ليخلع عليه ويهنئه بالنصر الذي حققه ضد الصليبيين شمالي الشام، فاحتفى زنكي به، وبرسول السلطان الذي كان يرافقه، واكرمهما اكراما بالغاً[١٣٠]. ومن ثم لم يرد ما يشير إلى حدوث تازم بين الطرفين طيلة العقد الاخير من حكم زنكي، حيث تبلورت العلاقات الودية بينهما، وازدادت وثوقا بعد فتح زنكي الرها عام (٥٣٩هـ) حيث منحه الخليفة عددا كبيرا من الالقاب الشرفية، كالامير الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور[١٣١] ...

وهكذا يتضح ان زنكي كان يتمتع باستقلال كبير في سياسته تجاه السلطان السلجوقي والخليفة العباسي، وغدا يشكل قوة لها اثرها في الاحداث التي دارت في العراق، اذ حاول اتباع سياسة عدم الولاء المطلق للسلطان السلجوقي، واستغلال تذمر بعض الخلفاء العباسيين من السيطرة السلجوقية لضرب هذه السيطرة مباشرة. ولكنه – باتباعه هذه السياسة – لم يحصل على نتائج مهمة لصالحه. بل على العكس، كادت ان تهدد حكمة في كثير من الاحيان. ولولا الدور الذي كان يقوم به ضد الخطر الصليبي، وجعله من امارته حاجزا يصد عن املاك السلاطين هذا الخطر، لكان من المحتمل ان تتعرض امارته لهزات خطيرة – كما كاد ان يحدث عام ٥٣٨هـ – ربما اودت بالبناء الذي سهر زنكي على اقامته السنين الطوال.

---

(١٢٩) المنتظم ١٠–١٣٥–١٣٦ ، الكامل ١١ ٢٧ ، الفارقي : مخطوطة ، ورقة ١١٦ ب–١١٧ أ.

(١٣٠) ابن واصل : مفرج الكروب ١–٨٣ ، وانظر فصل (زنكي والصليبيون).

(١٣١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٣–٢٨٤ .Runciman: Crusades , 11/237

الفصل الثالث

عماد الدين زنكي وامارات المدن

شهدت منطقة الموصل والجزيرة وشمالي الشام في هذه الفترة عددا كبيرا من المدن المتفرقة التي استاثر بحكم كل منها امير شبه مستقل، والتي كانت تتميز عن الإمارات المحلية بكون صاحبها لم يكن يملك إلا حكم المدينة وحدها وما يحيط بها – احيانا – من ارض محدودة. وكان حكام هذه المدن عرضة للتبدل والتغيير بين حين واخر، بمجرد ظهور امير قوي تتيح له امكانياته العسكرية اكتساح اولئك الحكام، ولذلك فان معظم هذه المدن لم تشهد حكما وراثيا طويل المدى، كما كان الحال سائدا في كثير من الإمارات المحلية، الامر الذي جعل حكام تلك المدن اقل شهرة بكثير مما هم عليه الامراء المحليون.

بدأ زنكي محاولاته لتوحيد المنطقة بضم هذه المدن، لضعفها وتفرقها وضيق مساحتها. وكان ولاة الموصل الذين سبقوه قد عجزوا عن اكتساحها وبالتالي عن تحويل السلطة الرسمية التي منحهم السلاجقة اياها، بحكم الموصل والجزيرة وشمالي الشام، إلى سلطة فعلية. لذلك سعى زنكي للقضاء على هذه المواقع المستقلة كي تغدو سلطته في هذه المناطق امرا واقعا.

كانت البوازيج – الواقعة على طريق الموصل، عند مصب الزاب الاسفل – اولى المواقع التي استولى عليها زنكي. وذلك لدى توجهه إلى الموصل عام (٥٢١هـ) لتولي مهام منصبه، مستهدفا من وراء ذلك اتخاذها خط رجعة له لحماية ظهره في حالة تصدي جاولي – وصي حاكم الموصل – لزحفه. ثم استمر في سيره نحو الموصل. وعندما وصل جاولي نبا تقدمه على راس قوات حاشدة، يحمل معه منشور السلطان بحكم الموصل، ادرك ان ليس في طاقته التصدي له، واثر السلامة، فخرج لاستقباله، يصحبه امراء الموصل وقادتها، وما ان التقى به حتى ترجل وقبل الارض بين يديه وأعلن طاعته له، فاقطعه زنكي مدينة الرحبة واعمالها، وسيره اليها[١٣٢].

---

(١٣٢) الفارقي : مخطوطة ، ورقة ١٠٨–ب ، الكامل ١٠–٢٤٦ ، الباهر ، ص ٣٥.

جزيرة ابن عمر ٥٢١هـ :

دخل زنكي الموصل، واقام فيها فترة قصيرة ريثما يعيد تنظيم امورها الادارية والعسكرية التي اضطربت اثر الاحداث التي اعقبت وفاة واليها عز الدين مسعود بن البرسقي[١٣٣] ، ثم ما لبث ان غادرها صوب الشمال للاستيلاء على جزيرة ابن عمر والتي كان يحكمها احد مماليك البرسقي[١٣٤]. فامتنع هذا المملوك عليه معتمدا على حصانة مدينته. فراسله زنكي وعرض عليه عروضا مغرية ليقنعه بالاستسلام ؛ لكنه لم يستجب له، فاضطر إلى تشديد الحصار على المدينة ليدخلها عنوة بعد اذ اعجزته الاساليب السلمية عن تحقيق هدفه، وسرعان ما وجد سكانها ان لا طاقة لهم على الصمود، فاعلنوا استسلامهم وفق شروط زنكي الذي فتحت له الابواب فدخل القلعة على رأس قواته[١٣٥]. ولعله بدا بمهاجمة هذا الموقع قبل غيره من المدن والقلاع بسبب قربه من الموصل، واهميته العسكرية والاقتصادية.

حلب ٥٢٢هـ :

كانت حلب اهم مدينة في الجهات الشمالية من بلاد الشام، لحصانتها وامكانياتها الاقتصادية وموقعها الهام على خطوط المواصلات بين بلاد فارس والعراق من جهة وبين الشام واسيا الصغرى من جهة أخرى، ومن ثم غدت قاعدة عسكرية رئيسية. منذ عهد طويل، لا يمكن – بدونها – التحكم في الجهات الشمالية والوسطى من بلاد الشام.

ولما كان زنكي يهدف إلى الاستيلاء على دمشق، واتخاذها قاعدة لتوحيد بلاد الشام، وقتال الصليبيين، كما كان يهدف إلى بناء سياج متين حول امارته يجنبها الاخطار[١٣٦] ، لذلك كان لابد له من الاستيلاء على حلب لضمان تحقيق هذه الاهداف، وهكذا نجد ان اهم ما كان

---

(١٣٣) بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام: معجم البلدان ١٣٨/٢ ، دار صادر.

(١٣٤) المصادر السابقة ، نفس الصفحات.

(١٣٥) اصبحت جزيرة ابن عمر تخضع للموصل منذ ان غدا صاحبها (جكرش) واليا على الموصل عام ٤٩٥هـ ، وبقيت كذلك طيلة عهود الولاة الذين اعقبوه : جاولي سقاو (٥٠٠-٥٠٢هـ) ثم مودود (٥٠٢-٥٠٧هـ) ثم جيوش بك (٥٠٧-٥١٤هـ) ثم آق سنقر البرسقي (٥١٥-٥٢٠هـ) فابنه مسعود (٥٢٠-٥٢١هـ). وكان هؤلاء الولاة ينيبون عنهم احد اتباعهم لحكم هذه المدينة : (ابن شداد : الاعلاق الخطيرة، المخطوطة ، قسم الجزيرة ورقة ٥٨ب-٥٩ب).

(١٣٦) الكامل ١٠-٢٤٦ ، الباهر ، ص ٣٦.

زنكي يسعى لتحقيقه اثر توليه الموصل هو (عبور الفرات وملك حلب .. ثم الاستيلاء على غيرها من البلاد الشامية) كما اعلن ذلك بنفسه[١٣٧].

كانت الظروف انذاك مواتية لزنكي لتحقيق هدفه هذا، اذ اضطربت احوال حلب واجتاحتها الفوضى اثر وفاة عز الدين مسعود عام (٥٢١هـ) واستئثار نائبه (قتلغ ابه) بادارة شئونها[١٣٨] ، حيث انتهز الصليبيون الفرصة وعادوا إلى شن هجماتهم العنيفة للاستيلاء على هذا الموقع الهام، واتخاذه قاعدة لمد نفوذهم باتجاه الشرق والجنوب الشرقي. وقد رافق تلك الهجمات تدهور الاحوال الاقتصادية للمنطقة، وانتشار الخوف والقلق بين السكان[١٣٩].

ومما زاد في اضطراب الامور. السياسة الظالمة التي اتبعها (قتلغ ابه) ومصادرته اموال الناس، وتسليط اجناده عليهم، مما دفع الحلبيين إلى التكتل حول نائب حلب السابق سليمان بن عبد الجبار بن ارتق، واعلان الثورة – في مطلع شوال – ضد قتلغ ابه الذي تحصن في القلعة. وقد اتاح ذلك للصليبيين فرصة تسديد ضربات اعنف ضد حلب، الامر الذي عرقل ثورة سليمان بن عبد الجبار، اذ توزعت جهوده بين تركيز الهجوم ضد القلعة، وبين الدفاع عن البلد ضد الصليبيين، واضطر اخيرا إلى اجراء مفاوضات معهم انتهت بعقد هدنة بين الطرفين، سلمت اليهم بموجبها بعض المناطق الزراعية المحيطة بالجهات الغربية من حلب. إلا ان ذلك لم يخلص هذه المدينة التي لفتها الفوضى من كل مكان[١٤٠].

وما ان استقر زنكي في الموصل حتى توجه اليه صاحب قلعة جعبر القريبة من حلب، وشرح له تدهور الاوضاع في المنطقة، فاسرع بارسال اثنين من كبار امراء البرسقي، المطلعين على دقائق التطورات في حلب، على راس جيش كبير وسلمهما منشور السلطان السلجوقي له بحكم الموصل والجزيرة والشام، كي يدعم مهمتهما من الناحية الرسمية[١٤١]. وقد تمكن هذان الاميران – بما معهما من قوات – من اعادة الاستقرار إلى حلب، وعقد صلح بين الطرفين

---

(١٣٧) الكامل ١٠–٢٤٦ ، الباهر ، ص ٣٦.

(١٣٨) الباهر ، ص ٧٩.

(١٣٩) المصدر السابق ، ص ٣٧.

(١٤٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٨ ، الكامل ١٠–٢٤٧–٢٤٨.

(١٤١) الباهر ، ص ٣٢–٣٤– ٣٧–٣٨ ، الروضتين ١–٧٦–٧٧ ، ٧٧–٧٨

Runciman : Crusades 11/182.

المتنازعين. وتم الاتفاق – كذلك – على ان يتجه كل من قتلغ ابه وسليمان بن عبد الجبار إلى الموصل لمقابلة زنكي[١٤٢].

ما ان اطمان زنكي إلى نجاح مهمة امرائه، حتى تهيا للتوجه بنفسه إلى حلب، فارسل اولا جاجبه الياغسياني لتنظيم امورها الادارية، وتمهيد الطريق لدخوله، ومن ثم غادر الموصل على راس جيشه في ربيع عام (٥٢٢هـ)، واستولى في طريقه على مدينتي منبج وبزاعه. وعندما وصل مشارف حلب خرجت جموع اهاليها لاستقباله، معربة عن استبشارها بقدومه الذي جاء فاتحة عهد جديد من الامن والاستقرار اللذين افتقدوهما طيلة السنين الصعبة الماضية. فدخل القلعة في الثالث والعشرين من جمادي الاخرة، وبدا من هناك بتنظيم امور البلد. واقطاع اعماله لامرائه واجناده[١٤٣].

ادرك زنكي ان الاحتفاظ بحلب واستمرار امنها وسلامتها لن يتما إلا بالقضاء على زعمائها السابقين، ذوي المصالح القديمة فيها، فبدأ بالقاء القبض عليهم وارهابهم لكي يضطرهم إلى مغادرة حلب، وقد جاء قتله لقتلغ ابه بمثابة انذار لاولئك الزعماء، فتسللوا هاربين واحدا بعد الآخر : فر ابراهيم بن رضوان بن تتش السلجوقي إلى نصيبين، وبقي فيها حتى وفاته[١٤٤]، واعقبه سليمان بن عبد الجبار الارتقي[١٤٥] ، والتجأ فضائل بن بديع – رئيس حلب السابق – إلى قلعة جعبر[١٤٦]. وبذا انفتح الطريق امام زنكي لفرض سيطرته وتوحيد صفوف الحلبيين لمجابهة الاخطار الخارجية المحتملة.

---

(١٤٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٨ ، الكامل ١٠–٢٤٧–٢٤٨ ، مفرج الكروب ١–٣٨–٣٩.

(١٤٣) الكامل ١٠–٢٤٨ ، زبدة الحلب ٢–٢٤١ ، ويشير Runciman , Ibid الى ان زنكي سعى للاستيلاء على حلب باعتبارها جزءا من ممتلكات البرسقي (والي الموصل السابق) ، لكن الواقع هو ان زنكي لم يهتم باعطاء الصفة الرسمية (او الشرعية) لاستيلائه على حلب ، لانه يملك هذه الصفة بحيازته لمنشور السلطان الذي كان ينصّ على مايفتتحه من الشام . كما ان دخوله حلب كان باستدعاء بعض زعمائها وترحيب من اهاليها.

(١٤٤) الكامل ١٠–٢٤٨ ، مفرج الكروب ١–٣٩ ، زبدة الحلب ٢–٢٤٢.

(١٤٥) الكامل ١٠–٢٤٨ ، الباهر ، ص ٣٨ ، زبدة حلب ٢–٢٤٢ ، مفرج الكروب ١–٣٩–٤.

(١٤٦) زبدة الحلب ٢–٢٤٣.

سنجار والخابور – ٥٢٣هـ :

لم يتعرض زنكي – حين توجهه إلى حلب – للمدن والحصون الواقعة على الطريق بينها وبين الموصل. اذ كانت الظروف تستدعي منه ان يضع يده على حلب أولا. ثم ينطلق لفرض سيطرته على المواقع الأخرى من اجل تامين الطريق إلى الشام. وما ان اقر الاوضاع في المدينة المذكورة حتى اتجه في اواخر عام (٥٢٢هـ) للاستيلاء على سنجار والمناطق المجاورة[١٤٧]. وفرض الحصار عليها، إلا ان اهاليها امتنعوا عليه، واذ لم يروا من مقاومتهم جدوى ازاء اصرار زنكي على اقتحام المدينة، اضطروا إلى مصالحته وتسليم سنجار اليه[١٤٨]. ثم ما لبث ان ارسل من هناك بعض قواته إلى الخابور[١٤٩] حيث، تمكنت من الاستيلاء عليه[١٥٠]. وكانت سنجار تقع وسط الطريق ين الموصل وحلب، وتشكل منطلقا للسيطرة على المناطق الأخرى[١٥١] ، ولذا فقد حقق زنكي باستيلائه عليها نصرا هاما.

حران ٥٢٣هـ :

توجه زنكي – من ثم – إلى حران التي كانت تابعة لمسعود بن البرسقي والي الموصل (٥٢٠–٥٢١هـ)[١٥٢]. فلما توفي هذا تعرض اهاليها لتهديدات الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على بعض المدن والحصون القريبة منها كالرها وسروج. وعندما تولى زنكي الموصل راسله اهالي حران معلنين طاعتهم له. ومستحثين اياه على القدوم اليهم لتسليمه موقعهم. فاستجاب لهم

---

(١٤٧) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(١٤٨) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، الكامل ١٠–٢٤٨.

(١٤٩) خضعت سنجار لولاة الموصل منذ عام (٥١٥هـ) حينما اقطعها السلطان محمد مع الموصل واعمالها لاق سنقر البرسقي عام (٥٢٠هـ) ، وعندما توفي هذا في العام التالي ، خضعت لاخيه الصغير الذي اعقبه في حكم المنطقة : (ابن شداد : الاعلاق مخطوطة ، ورقة ٤٧ أ–٤٧ ب). ولم تشر المصادر الى نائب سنجار ، او القائد المسؤول عن تنظيم دفاعها ، خلال هجوم زنكي عليها.

(١٥٠) الباهر ، ص ٣٧ ، الكامل ١٠–٢٤٧ (جاعلا الحادثة عام ٥٢١ ، والاصح ٥٢٢هـ). نسبة الى نهر الخابور في ديار ربيعة ، وهي ولاية واسعة تضم بلدانا كثيرة نسبت اليه (ياقوت : معجم البلدان ٢–٣٨٣).

(١٥١) الباهر ، ص ٣٧ ، الكامل ١٠–٢٤٧.

(١٥٢) الباهر ، ص ٣٧.

وتوجه إلى حران حيث استقبله اهاليها (فوعدهم ومناهم)[١٥٣]. ثم اقطعها لسوتكين الكرجي. احد كبار امرائه. لكن هذا اعلن – بعد سنوات – عصيانه ضد زنكى. وانضم إلى جيش الخليفة المسترشد عام (٥٢٧هـ). ولم تشر المصادر إلى سبب عصيان سوتكين وتاريخه. ولعله اراد الاستقلال باقطاعه على غرار كثير من الامراء المعاصرين. وربما لقيام الخليفة باستمالته ضد زنكي.

لم تسنح الفرصة لزنكي للقضاء على عصيان سوتكين واعادة سيطرته على حران حتى عام (٥٣٣هـ). اذ انتهت المشكلة بموت سوتكين نفسه. وحينذاك وجه زنكي قواته التي استطاعت الاستيلاء عليها بعد مقاومة بسيطة قادها نائب سوتكين وبقيت حران تحت سيطرة زنكي حتى مقتله عام (٥٤١هـ)[١٥٤].

أربل ٥٢٦هـ :

ادرك زنكي أهمية اربل العسكرية بالنسبة للموصل. اذ هي بمثابة الباب الشرقي الذي يصلها ببلاد فارس والمشرق، وقلعة الدفاع الرئيسية في الطريق الذاهب غربا صوب الشام. وعندما اتيحت له فرصة مهاجمتها لم يتردد رغم كونها من ممتلكات مسعود بن محمد السلجوقي سلطان اذربيجان. فهاجمها عام (٥٢٦هـ) وشدد النكير عليها. إلا ان حاميتها استطاعت ان تصمد لحين تقدم السلطان مسعود لنجدتها. فاضطر زنكي إلى الانسحاب. ثم راى مسعود ان يضحي بهذا الموقع كي يكسب زنكي إلى جانبه في صراعه ضد منافسيه من اجل الحصول على عرش سلاجقة العراق. فوافق الاخير على اتفاق كهذا يتيح له ضم موقع هام إلى امارته. قد يساعده في المستقبل على التوغل شرقا، وبعد ان اخذ كل من الحليفين العهود من صاحبه تسلم زنكي اربل وعين فيها نائبا عنه[١٥٥].

---

(١٥٣) كان البرسقي قد استولى عليها من بني أرتق عام (٥٠٧هـ) ، ثم استعادها هؤلاء عام (٥١٢هـ) ، وبقيت في ايديهم حتى عام (٥١٨هـ) حيث استردها البرسقي ثانية (ابن شداد : الاعلاق ورقة ١٦ب–١٨أ).

(١٥٤) الباهر ، ص ٣٧.

(١٥٥) ابن شداد : مخطوطة ، ورقة ١٧أ–١٨أ ، مفرج الكروب ١–٨٤.

بنو ايوب حكام تكريت ٥٢٦-٥٤١هـ :

في الثاني عشر من ربيع الاخر عام (٥٢٦هـ) انهزم زنكي في اعقاب المعركة التي دارت بينه – كحليف للسلطان مسعود – وبين قوات الملكين طغرل وداود المنافسين للسلطان المذكور[١٥٦] ، وانسحب بفلول جيشه نحو تكريت التي كان يحكمها نجم الدين ايوب[١٥٧] ، فاقام هذا المعابر على دجلة وجهز عددا من السفن لنقله وقواته إلى الضفة الأخرى التي تقع عليها مدينة تكريت. وهناك احسن نجم الدين إلى زنكي وجنده، وداوى جراحهم، وقدم اليهم سائر ما يحتاجون اليه،. وبعد اسبوعين غادر زنكي واتباعه تكريت مودعين بمثل ما استقبلوا به من حفاوة واكرام[١٥٨]. واخذ يرسل الهدايا إلى نجم الدين تباعا اعترافا منه بفضله وحسن ضيافته[١٥٩].

وعندما بلغ بهروز – شحنة بغداد – موقف نائبه في تكريت من زنكي بعث اليه رسولا ليعاتبه على احسانه لعدو سلاجقة العراق واطلاق سراحه بعد ان كان قد وقع في يديه[١٦٠]. وازداد حرج بهروز لدى قيام اسد الدين شيركوه بقتل احد سكان تكريت بسبب تعرضه لاحدى النساء، واضطر إلى اصدار امره إلى نجم الدين بمغادرة تكريت وجميع افراد عائلته. ولم يكن باستطاعة بهروز معاقبة اسد الدين شيركوه لما بين الطرفين من صداقة قديمة ترجع إلى زمن أبيه[١٦١].

---

(١٥٦) مفرج الكروب ١-٩٧.

(١٥٧) انظر التفاصيل في الفصل الثاني.

(١٥٨) كان شادي بن مروان ، والد كل من نجم الدين ايوب واسد شيركوه ، من اكراد بلدة دوين الواقعة على حدود اقليم اذربيجان قريبا من تفليس (ابو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٣٩٩). وقد غادر بلدته تلك بصحبة ولديه الى بغداد بحثا عن عمل. وهناك انتظموا في خدمة مجاهد الدين بهروز شحنة العراق ، فوجههم الى تكريت التي كانت احدى اقطاعاته. وبعد وفاة شادي عين بهروز ابنه نجم الدين مستحفظا لتكريت : (الكامل ١١-١٣٨ ، الباهر ، ص ١١٩-١٢٠ ، الروضتين ٢-٣٢٩-٣٣٠ ، ٥٣٦-٥٣٧، ابن شداد : المحاسن ، ص ٦٠).

(١٥٩) المصادر السابقة ، نفس الصفحات.

(١٦٠) الروضتين ٢-٥٣٧.

(١٦١) ابن خلكان : وفيات ٦-١٤٢.

في هذه الفترة الحرجة من اواخر عام (٥٣٢هـ) ولد صلاح الدين لنجم الدين ايوب، واضطرت العائلة لمغادرة تكريت، وربما كان ذلك في الليلة التي ولد فيها الطفل المذكور[١٦٢] ولم يكن هناك ملجا اكثر امنا لهذه العائلة الطريدة من كنف الامير الذي احسنوا اليه قبل عدة اعوام. ولم ينس زنكي الاحسان فاستقبل عائلة بني ايوب احسن استقبال، واقطع رجالاتها الاقطاعات الواسعة[١٦٣] ، واتاح للاخوين نجم الدين واسد الدين الانخراط في قواته[١٦٤] ، والاشراف على تربية ابنائه[١٦٥]. والاشتراك في الحروب التي خاضها في الشام ضد الصليبيين[١٦٦].

ظلت العائلة الايوبية تنعم بحماية زنكي. واخذت علاقاتها به تزداد وثوقا يوما بعد يوم. وعندما استولى على بعلبك عام (٥٣٤) عين نجم الدين ايوب واليا عليها، واقطعه ثلثها[١٦٨]، فاستقر هناك هو وافراد العائلة الايوبية[١٦٧] ، وظل يمارس مهام عمله كوال لزنكي حتى مقتل الاخير عام (٥٤١هـ). وكان صلاح الدين خلال تلك الفترة قد ترعرع في كنف والده (وبدت عليه سيماء النجابة والذكاء، والتمعت عيناه ببريق القوة)[١٦٨].

وهكذا قدر لزنكي ان يلعب دورا هاما في اظهار العائلة الايوبية في المجالات السياسية والعسكرية والادارية، وان يمهد لها الطريق إلى المكانة الكبيرة التي تمتعت بها في عهد ابنه نور الدين محمود.

الرقة ٥٢٩هـ :

مر زنكي بالرقة[١٦٩] عام (٥٢٩هـ) حينما كان متجها إلى دمشق في محاولة للاستيلاء عليها، وراى ان ينتهز الفرصة ويعمل على ضم هذه المدينة إلى امارته. فدبر خدعة طريفة مكنته من تحقيق هدفه دون الاضطرار إلى القتال، وذلك بان اعلن لاصحابه عن رغبته

---

(١٦٢) الكامل ١١-١٣٨ ، الباهر ، ص ١١٩.

(١٦٣) وفيات الاعيان ٦-١٤٣-١٤٤ ، ابن شداد : المحاسن ، ص ٦٠.

(١٦٤) الروضتين ٢-٥٣٨.

(١٦٥) الباهر ، ص ١١٩ ، الكامل ١١-١٣٨ ، وفيات الاعيان ٦-١٤٢-١٤٣.

(١٦٦) المقريزي : السلوك ١-١-٤٢.

(١٦٧) الروضتين ٢-٥٣٨.

(١٦٨) الكامل ١١-١٣٨ ، الباهر ، ص ١١٩.

(١٦٩) الروضتين ١-٨٦-٨٧.

بالاستحمام في حمام البلد. فقام حاجبه صلاح الدين الياغسياني باحضار مسيب بن مالك صاحب الرقة وقال له : (زنكي يشتهي دخول الحمام وهذه خمسمائة دينار تسلمها واعمل بها دعوة) !! فلم يشك مسيب بنوايا زنكي ورجاله، فاقام الدعوة وسمح لهم بدخول المدينة. وما ان اصبح اخر جندي داخل السور حتى امر زنكي قواته بالاستيلاء على المدينة، ثم ما لبث ان ابعد المسيب واقطعها احد امرائه. وقد ظلت في يده حتى مقتله عام ٥٤١[١٧٠].

دقوقا ٥٣١هـ وشهر زور ٥٣٤هـ :

وفي عام (٥٣١) عاد زنكي ليمد فتوحاته شرقا، فتوغل في الطريق الواقع بين اربل وبغداد حتى وصل دقوقا وحاصرها، ثم تمكن من اقتحامها بعد قتال شديد[١٧١]. وبعد ثلاثة اعوام قرر القيام بمحاولة أخرى للتوغل شرقا والاستيلاء على قلعة شهرزور الواقعة وسط سهل واسع باسمها، يمتد بين اربل وهمذان ويقطنه الاكراد[١٧٢]. وكانت هذه القلعة وما يحيط بها من بلاد تحت سيطرة الامير قفجاق بن ارسلان تاش التركماني، الذي كان (نافذ الحكم على قاصي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضا. وكان الملوك والامراء يتحاشون قصد ولايته.. لحصانتها. فعظم شانه وازداد جمعه، وقصده التركمان من كل مكان)[١٧٣]. فلما حل عام (٥٣٤) بلغ زنكي عنه مادفعه إلى مهاجمة بلاده، وربما كان سبب ذلك تعاظم شان قفجاق هذا، وتجمع المقاتلين الاشداء في ولايته، وخطره على ممتلكات زنكي الذي اشار اصحابه عليه بعدم التعرض لهذا الامارة، خوفا من نتائج لقاء لا تحمد عقباه، وربما انتهى الامر بتنازل قفجاق عن بعض املاكه للسلطان مسعود، فيغدو الاخير مجاورا لامارة الموصل وبشكل خطرا مباشرا عليها. إلا ان زنكي لم يرجع عن عزمه، وسير إلى قفجاق جيشا كثيفا، فقام هذا باستدعاء كل قادر على حمل السلاح، من التركمان، فتداعوا اليه من كل مكان. إلا ان جيش زنكي تلقاهم وقاتلهم بشجاعة

---

(١٧٠) ابن شداد : المحاسن ، ص ٦٠.

(١٧١) استطاع النميريون اصحاب الرقة ان يصمدوا بموقعهم ازاء هجمات ولاة الموصل . وبقيت بايديهم حتى السنة التي نتكلم عنها (انظر : ابن شداد المخطوطة ، ورقة ٢٤أ-٢٤ب).

(١٧٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، زبدة الحلب ٢-٢٥٧.

(١٧٣) الكامل ١١-٢٢ ، مفرج الكروب ١-٧١.

فائقة، وشدد النكير عليهم، حتى تمكن اخيرا من الحاق الهزيمة بهم، واستباحة اسلابهم، ومضى التركمان منهزمين لا يلوون على شيء[١٧٤].

انطلقت قوات زنكي واقتحمت شهرزور دون مقاومة تذكر، ثم بدأت بمطاردة الفلول التركمانية. ومنازلة حصونها وقلاعها. حتى تمكنت من الاستيلاء على معظمها. وقد امر زنكي قادته باصلاح احوال سكان المنطقة من الاكراد وتخفيف ما كانوا يلقونه من التركمان[١٧٥]. كما طلب منهم ان يبذلوا الامان لقفجاق فاجابهم اليه، وانخرط هو وبنوه في جيش زنكي واستمروا يعملون في الموصل حتى مطلع القرن السابع الهجري[١٧٦].

الحديثة وعانه ٥٣٦-٥٣٨هـ :

التفت زنكي صوب الجنوب الغربي، وتمكن من مد حدود امارته إلى اعماق الصحراء العراقية وذلك باستيلائه على مدينة الحديثة الواقعة على الفرات[١٧٧] عام (٥٣٦هـ)، واعقب ذلك بخطوة جريئة حيث قام بترحيل حكامها القدماء من (آل مهارش) العلويين، وتعيين نوابه فيها[١٧٨]، من اجل ان يضمن سيطرته النهائية عليها. وبعد مرور عامين ارسل جيشا إلى مدينة عانة[١٧٩] القريبة منها، تمكن من الاستيلاء عليها[١٨٠].

ما لبث اهالي الحديثة ان قاموا – عام ٥٣٩هـ – بتمرد ضد حكم زنكي واعلنوا العصيان، فاضطر إلى ان يرسل قوة عسكرية كبيرة استطاعت ان تعيد السيطرة على المدينة بعد قتل عدد كبير من المتمردين[١٨١]. واغلب الظن ان سبب هذا العصيان يعود إلى قيام زنكي

---

(١٧٤) ياقوت : معجم البلدان ٣-٣٤٠-٣٤١.

(١٧٥) الكامل ١١-٣١.

(١٧٦) الكامل ١١-٣١ ، الباهر ، ص ٥٧-٥٨.

(١٧٧) المصدران السابقان ، نفس الصفحات.

(١٧٨) الكامل ١١-٣١ ، ابن الوردي : تاريخ ٢-٤٣.

(١٧٩) تقوم هذه المدينة على جزيرة وسط الفرات وهي غير (حديثة الموصل) الواقعة على ضفة دجلة الشرقية بالقرب من مصب الزاب الاعلى (ياقوت : معجم البلدان ٢-٢٢٢-٢٢٥).

(١٨٠) المنتظم ١٠-١٠٢ ، الكامل ١١-٣٦ ، مفرج الكروب ١-٩٠.

(١٨١) معجم البلدان ٣-٥٩٤-٥٩٥.

بتهجير حكام الحديثة من آل مهارش. الامر الذي ادى إلى استفزاز الاهالي. ودفعهم إلى التمرد على حكم زنكي، سيما وانهم علويون لاينسجمون والحكم السنّي الجديد[١٨٢].

قلعة جعبر ٥٤٠-٥٤١هـ :

وفي آواخر عام (٥٤٠هـ) توجه زنكي إلى قلعة جعبر المطلة على الفرات[١٨٣]. في محاولة للاستيلاء عليها عملا بخطته التي تقضي بان (لا يبقى وسط بلاده ما هو ملك لغيره) [١٨٤]. وكان يحكم هذه القلعة يومئذ على بن مالك العقيلي[١٨٥]. فهاجمها زنكي على حين غفلة من اهلها، وتوغلت قواته في ربضها واسرت عددا من سكانه، إلا ان القلعة صمدت للهجوم. وعندما اوشكت مياهها على النفاد اضطر اصحابها إلى مراسلة زنكي، وتبودلت الرسل بين الطرفين دون التوصل إلى نتيجة تذكر، مما اضطر الاخير إلى استخدام العنف والتهديد ثانية، لكن صاحب القلعة لم يذعن له[١٨٦] ، واستمر القتال حتى اليوم الخامس من ربيع الآخر عام (٥٤١) حيث اغتيل زنكي، فساد الاضطراب جيشه واضطر إلى فك الحصار[١٨٧] .

---

(١٨٢) الكامل ١١-٤٠ ، الباهر ، ص ٦٤ ، الروضتين ١-٩٢ ، ٩٤.

(١٨٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٠.

(١٨٤) معجم البلدان ١-٢٢٣.

(١٨٥) كانت هذه القلعة في السابق تسمى دوسر (معجم البلدان ٢-٨٤-٨٥).

(١٨٦) الباهر ، ص ٧٣.

(١٨٧) كانت جعبر قد انتقلت الى العقليين منذ عام ٤٧٩هـ (معجم البلدان) ٢-٨٤-٨٥ ، الكامل ١٠-٥٥.

الفصل الرابع

عماد الدين زنكي والإمارات المحلية في ديار بكر

كان هدف زنكي. بعد ان تم له الاستيلاء على حلب واتخاذها قاعدة في بلاد الشام. السيطرة على المناطق الممتدة بينها وبين الموصل. والتي كان يحكمها امراء مستقلون. عملا بخطته القاضية (بالا يبقى في بلاده ما هو ملك لغيره. حزما منه واحتياطا) [١٨٨]. ذلك انه كان يستهدف – كما ذكرنا – انشاء امارة موحدة قوية. تمكنه من تحقيق انتصارات حاسمة ضد الصليبيين. وكان عليه – لتحقيق هذا الهدف – اكتساح عدد من الإمارات المحلية في منطقة ديار بكر. والتي كانت تشكل خطرا على مواصلاته مع الشام، سيما في حالات صدامه مع الصليبيين.

بدأ زنكي هجومه على ديار بكر عام (٥٢٣هـ)، بعد مضي اشهر فحسب على دخوله مدينة حلب، وكانت نصيبين التابعة للآراتقة[١٨٩] هدفه الأول في هذا الهجوم. وما ان فرض الحصار عليها حتى استنجد صاحبها حسام الدين تمرتاش الارتقي (٥١٦–٥٤٧هـ) حاكم امارة ماردين، بابن عمه ركن الدولة داود، حاكم امارة (حصن كيفا) لصد زنكي عن نصيبين وحمله على فك الحصار عنها، كما بعث إلى اهاليها وحاميتها رسالة مستعجلة، على جناح طائر ، يحثهم فيها على الصمود ريثما تصلهم النجدة الارتقية خلال فترة لا تتجاوز الخمسة ايام. إلا ان الرسالة وقعت بيد زنكي. واطلع على مافيها. وراى ان ينتهز الفرصة لتدبير حيلة قد تساعده على تحقيق هدفه. فامر بكتابة رسالة أخرى إلى اهالي نصيبين بدلا من الرسالة الاولى، جاء فيها : من حسام الدين تمرتاش ، اني قد قصدت ابن عمي داود، وقد وعدني بالنجدة والمسير بالجيوش، وسوف لا يتأخر قدومه الينا باكثر من عشرين يوما. لذا اطلب منكم الثبات طيلة هذه المدة !![١٩٠].

بعثت الرسالة على جناح الطائر نفسه، ولم يشك النصيبيون لحظة بانها وردت اليهم من اميرهم الارتقي (فخافوا على نفوسهم. وايقنوا انهم يعجزون عن الدفاع عن البلد خلال هذه

---

(١٨٨) الكامل ١١–٤٤ ، الباهر ، ص ٧٣–٧٤.

(١٨٩) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤–٢٨٥ ، الكامل ١١–٤٥ ، الباهر ، ص ٧٤–٧٥.

(١٩٠) الباهر ، ص ٧٣.

المدة الطويلة). لذا ارسلوا إلى زنكي وصانعوه وسلموا مدينتهم اليه (فبطل على حسام الدين وداود ما كانا قد عزما عليه)[١٩١]. وبفتح نصيبين انفسح الطريق امام زنكي لتحقيق اهدافه ضد امارات ديار بكر، اذ اتخذ من هذا الموقع قاعدة عسكرية في المنطقة للهجوم على المواقع المجاورة.

أدرك امراء ديار بكر، اثر سقوط نصيبين، مدى خطورة زنكي على ممتلكاتهم، فعقدوا تحالفا بينهم في العام التالي للوقوف بوجهه، اشترك فيه الاميران الارتقيان حسام الدين وابن عمه ركن الدولة، وسعد الدولة ايكلدي ابن ابراهيم ، صاحب آمد[١٩٢] ، وانضم اليهم عدد كبير من تركمان المنطقة، الذين كانوا يكنون الطاعة والاخلاص لركن الدولة داود، اذ انه ما ان استدعاهم مستنجدا بهم، حتى تقاطروا عليه بحشودهم الكبيرة. فشكل المتحالفون جيشا قوامه عشرين الف مقاتل. ولما سمع زنكي نبأ هذا التجمع. قرر مباغتته، وانطلق على رأس أربعة آلاف فارس صوب دارا القريبة من نصيبين. وهناك اشتبك الطرفان في قتال شديد، صبر فيه كلا المعسكرين، وابدى جند زنكي خلاله ضروبا من البسالة والاقدام. وما لبثت المعركة ان اسفرت عن هزيمة امراء ديار بكر وانفتاح الطريق امام غريمهم لوضع يده على عدد من المواقع القريبة كحصن سرجة ودارا[١٩٣].

---

(١٩١) ينتمي هؤلاء الى (ارتق بن اكسك) احد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥-٤٧٥هـ) ، وقد بلغ مكانة حسنة لدى السلاجقة فاقطعوه القدس عام ٤٧٩هـ. وعند وفاته عام ٤٨٣هـ انتقلت الى ولديه سقمان ويلغازي اللذين كانت لهما مع القدس بعض القلاع الجزرية كالرها وسروج. وفي عام ٤٩١ استولى الفاطميون على القدس واضطروا الارتقة الى الجلاء عنها ، فرحل ايلغازي الى بغداد للعمل تحت لواء السلاجقة ، واتجه سقمان الى الرها واقام فيها واستطاع في ظرف سنين معدودة الاستيلاء على عدد من اهم بلاد ديار بكر كحصن كيفا وماردين ونصيبين ، وتشكيل امارة محلية ظل يحكمها حتى وفاته عام ٤٩٨هـ. وعندما سمع اخوه ايلغازي بذلك اسرع بالتوجه الى ديار بكر ، وتمكن من وضع يده على ممتلكات سلفه ، فيما عدا حصن كيفا الذي صار لداود بن سقمان ، ومن ثم تبلور كيان الارتقة هناك في امارتين غدت ماردين قاعدة لاحداهما ، وحصن كيفا قاعدة للاخرى. وفي عام ٥١٦هـ توفي ايلغازي، فخلفه ابنه حسام الدين تمرتاش الذي توسعت املاك بني ارتق في عهده .. واستمرت هذه العائلة تحكم المنطقة حتى مطلع القرن التاسع الهجري. انظر : ابن خلدون: تاريخ ، ط بيروت ، مجلد ٥ ، ص ١-٤ ٤٦٩ ، E. I. S. V. Artukids by C. Cahen الامارات الارتقية في ديار بكر للمؤلف (مؤسسة الرسالة ، بيروت-١٩٨٠).

(١٩٢) الكامل ١٠-٢٤٦-٤٧٢ ، الباهر ، ص ٣٦-٣٧ ، مفرج الكروب ١-٣٥-٣٦.

(١٩٣) المصادر السابقة ، نفس الصفحات.

وكرد انتقامي على انتصارات زنكي، اتجه ركن الدولة داود، على راس عدد كبير من جنده، إلى منطقة جزيرة ابن عمر التابعة للموصل. واجرى هناك نهبا وتخريبا واسع النطاق، الامر الذي دفع زنكي إلى التوجه اليه لايقافه عند حده. لكنه لم يستطع التوغل بعيدا، لضيق المسالك ووعورة الطريق، وانتشار اشياع داود في المنطقة، فاكتفى باستمالة السكان في الجهات التي بلغها، ثم قفل راجعا(١٩٤).

أدرك زنكي، اثر هذه الاحداث، مدى الخطر الذي يشكله التحالف بين امراء ديار بكر ضد مطامحه في المنطقة، فراى ان يلجا إلى الاساليب السياسية علها تتيح له احداث انشقاق وتنافر في صفوف اولئك الامراء، كي يسهل عليه – بعد ذلك – اقتطاع اراضيهم وممتلكاتهم. واعتقد ان خير ما يبدأ به من خططه السياسية هو ايجاد تحالف متين مع احد هؤلاء الامراء، والاستعانة به ضد الاخرين. وكان من الصعب عليه تحقيق هذا التحالف مع غريمه اللدود ركن الدولة داود ، لما كان يتمّيز به هذا من حقد، ورغبة بانزال الضربات بعدوه، وتحين الفرص للانقضاض على ممتلكاته(١٩٥). كما ان زنكي لم يشا ان يتخذ من صاحب امد حليفا له ، لضعف امكانياته وعدم قدرته على تقديم مساعدات مجدية في حالة نشوب قتال بين امير الموصل والارانقة. ولم يبق امامه اذن سوى حسام الدين تمرتاش الذي كان اكثر مرونة من ابن عمه داود. لذا أخذ يتقرب اليه وأوقف مهاجمته لممتلكاته وسرعان ما احس الامير الارتقي باتجاه زنكي الودي منه، وراى ان التضحية بابن عمه داود لابد منها في سبيل كسب حليفه الجديد، وائتمان جانبه، والسعي – عن طريق هذا التحالف – للحصول على مزيد من المكاسب في المنطقة.

وشهد عام (٥٢٨هـ) لقاء ودّيا بين الحليفين(١٩٦) انطلقا بعده مباشرة لمهاجمة الحصن المنيع امد، وفرضا الحصار عليه، فارسل صاحبه سعد الدولة ايكلدي (٥٠٣–٥٣٦هـ) يستنجد

---

(١٩٤) آمد هي احدى المدن الكبيرة في ديار بكر ، وقد كان قربها من ميا فارقين سببا في خضوع المدينتين لسلطة واحدة في معظم الاحيان. وعند مقتل تاج الدولة تتش ، سلطان الشام السلجوقي ، عام ٤٨٨هـ استقل بامد احد امرائها الاتراك ويدعى (صادر) ، ثم انتقلت بعد وفاته الى اخيه ينال. وظل ابناء هذه العائلة يتناوبون حكم المدينة الى ما بعد عصر زنكي ، معتمدين على حصانة موقعهم الذي كان محاطا بسورين ، فضلا عن مناعته الطبيعية. انظر : (ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) ، مخطوطة، ورقة ٦٦أ ، ١٢٢ب).

(١٩٥) الكامل ١٠–٢٥٣ ، الباهر ، ص ٣٨–٣٩.

(١٩٦) المصدران السابقان ، نفس الصفحات.

بداود الارتقي، وسرعان ما جمع هذا جيوشه ومتطوعيه من التركمان واتجه لفك الحصار عن آمد. وهناك عند اسوار هذا الحصن حدث اللقاء بين الطرفين في اواخر جمادي الاخرة من ذلك العام، وانتهى القتال بهزيمة داود واسر ولده ومقتل عدد من جنده، بينما استمر حصار زنكي وحليفه لهدفهما المنيع، وكي يلقيا الفزع والياس في نفوس اصحابه قاما بتخريب واسع النطاق في البساتين والمزارع المجاورة. إلا ان امد صمدت واقنعت المهاجمين بعدم جدوى البقاء طويلا، ورضي زنكي من صاحبها – لقاء فك الحصار – تقديم مقدار من المال[١٩٧].

اتجه الحليفان إلى قلعة الصور القريبة، وفرضا عليها حصارا شديدا، وتمكنا بعد قليل من ارغامها على الاستسلام، رغم المقاومة التي ابدتها حاميتها[١٩٨] بقيادة الامير فخر الدين قرا ارسلان بن داود الذي كان ينوب عن أبيه هناك[١٩٩]. وقام زنكي بمنح هذه القلعة لحليفه تمرتاش[٢٠٠] ، تقديرا لمساعداته له، وتاكيدا لتحالفهما الذي كان لابد له من وسائل تقويه وتقيمه على اساس من المصالح المتبادلة، كي يبقى هذا الامير الارتقي دوما إلى جانب حليفه لمجابهة الاعداء والمنافسين في المنطقة، وتحقيق انتصارات أخرى، واعادة الكرة على امد وممتلكات داود.

ما لبثت شقة الخلاف ان اتسعت بين تمرتاش وابن عمه داود، وشهد عام (٥٣٠) توترا في الموقف انذر بالحرب، حتى ان تمرتاش اضطر إلى هدم بعض الاجزاء التي لا تحتمل المقاومة من عاصمته ماردين، وامر سكانها بالانسحاب إلى القلعة للاحتماء بها في حالة قيام داود بهجومه المتوقع. هذا في الوقت الذي ازداد فيه تحالف تمرتاش مع زنكي قوة عن ذي قبل. وقاما بشن هجماتهما المشتركة على جبل جور والسيوان وتمكنا من الاستيلاء عليهما، والتزم زنكي خطته السابقة بان منح هذين الموقعين لحليفه. وقد ادت الانتصارات السريعة التي حققها هذان الحليفان إلى القاء الرعب في قلب قرا ارسلان بن داود الذي اعتقد بان لا طاقة له بهما، فآثر الانسحاب إلى قاعدة أبيه داود في حصن كيفا، معرضا مناطق ولايته للخطر[٢٠١].

---

(١٩٧) انظر مفرج الكروب ١–٥٢.

(١٩٨) تاريخ آمد وميا فارقين (المخطوطة) ، ورقة ١٢١أ.

(١٩٩) زبدة الحلب ٢–٢٥٣ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة : قسم الجزيرة (مخطوطة ورقة ١٣٤ب).

(٢٠٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٣ ، الكامل ١١–٢٥ ، تاريخ آمد وميا فارقين (مخطوطة) ورقة ١٢٠أ ب.

(٢٠١) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٥٥–١٥٦.

ظل التحالف بين زنكي وتمرتاش على تماسكه حتى عام (٥٣٣هـ) حيث اخذ يلوح في الافق ما يشير إلى ان عراه بدات بالضعف، ويظهر ان الشكوك لعبت دورها في تدهور العلاقة بين الطرفين. ولم تحدد المصادر الاسباب، ويبدو ان من جملتها ادراك تمرتاش للاخطار المقبلة التي قد تتعرض لها امارته في حالة اضعاف اعداء حليفه في ديار بكر، وربما كان عدم الاتفاق بينهما على توزيع الحصون التي افتتحاها سوية، احد تلك الاسباب. غير ان هذا الجفاء لم يؤد إلى صدام بين الطرفين، اذ راى زنكي ان مصالحه في المنطقة تفرض عليه الابقاء على تحالفه القديم، ليعينه على فرض سيطرته التدريجية على ديار بكر، ولكيلا يتجه تمرتاش إلى ابن عمه صاحب امد، فيعود هو إلى عزلته الاولى.

وقد ساعد مجرى الاحداث في المنطقة زنكي على تحقيق هدفه هذا، اذ حدث – في العام نفسه – ما ادى إلى تعميق الخلاف بين تمرتاش وابن عمه داود، اذ قام الاخير بغزو ارزن في اقاصي شمالي ديار بكر، واباحتها وسبي اهاليها، فالتجأ اميرها حسام الدولة قرتي بن الاحدب إلى ميافارقين طالبا الحماية من تمرتاش. وبدا ان الظروف حتمت على الحليفين القديمين التقارب من جديد، فارسل زنكي حاجبه صلاح الدين الياغسياني إلى ماردين للتفاوض مع اميرها، وانجز الحاجب مهمته بنجاح بعد ان قام بتسليم حصن دارا إلى ذلك الامير. وسرعان ما تاكد هذا التقارب بخطبة زنكي لضيفة خاتون ابنة تمرتاش، مستهدفا من وراء ذلك توثيق عرى تحالفه مع الامير الارتقي[٢٠٢].

أدت عودة التحالف بين اميري الموصل وماردين وما رافقها من احداث في المنطقة، إلى توتر الموقف ثانية بين تمرتاش وابن عمه داود، فاغار الاخير عام (٥٣٥هـ) على ميافارقين ونهب اطرافها، وفرض الحصار عليها، وتمكن، خلال ايام معدودات، من الاستيلاء على موقع (تل شيح) القريب منها، واقطاع اراضيه لامرائه واتباعه. وقام من هناك بشن هجمات يومية منظمة على مدينة ميافارقين، واختطاف اولئك الذين كانوا يغادرونها صباح كل يوم لاداء اعمالهم الضرورية، وتمكن بذلك من فرض سيطرته التدريجية على المناطق المحيطة بالمدينة، إلا ان الجهود الدفاعية العظيمة التي بذلها كل من شرف الدين حبشي وزير تمرتاش، ويوسف بن ينال حاجبه، خلصت ميافارقين من خطر محقق كاد ان يوقعها فريسة امام ضغوط وهجمات

---

(٢٠٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٢٠ب–١٢١أ.

داود[٢٠٣]. وكان زنكي – خلال ذلك – قد اسرع بمهاجمة ممتلكات امير حصن كيفا كي يشغله عن التضييق على امارة حليفه تمرتاش، وكي ينتهز الفرصة للحصول على بعض المغانم. إلا انه ما ان توغل في تلك البلاد حتى التقى بجيوش قرا ارسلان بن داود، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة انتهت بانتصار زنكي وهزيمة غريمه – ثانية – تاركا قلعة بهمرد القريبة من ميدان المعركة تحت رحمه عدوه. فاتجه زنكي اليها وتمكن من الاستيلاء عليها دون مقاومة تذكر، ثم قفل عائدا إلى الموصل لدخول الشتاء واشتداد البرد[٢٠٤].

أدرك كل من تمرتاش وداود ان هذا الخلاف الذي اشتد بينهما. واتسع إلى درجة الحرب والتخريب لن يفيد ايا منهما بقدر ما يعود بالمكاسب على زنكي الذي قد يستغله بشكل دائم لتحقيق مزيد من الانتصارات في المنطقة، وبالتالي اضعاف قوى الاراتقة جميعا، كي يصبحوا بعد ذلك هدفا سهل المنال، لذا قام كل من الأميرين الارتقيين بتبادل الرسل في مطلع عام (٥٣٦هـ) واسفرت المفاوضات عن عقد صلح بينهما، وما لبث داود ان اتجه إلى ميافارقين حيث اجتمع بابن عمه بعد سنين طويلة من العداء[٢٠٥].

لم يغب عن زنكي ان الصلح الذي تم بين الاراتقة سيكون على حسابه، للحد من مطامحه في المنطقة، فسعى إلى اتخاذ اجراءات سياسية تكفل عدم انعزاله من جهة، واكتساب حليف جديد ضد منافسيه في المنطقة من جهة أخرى. وقد تمكن – في اقل من عام – من تحقيق هدفيه هذين، وذلك بان ارسل إلى صاحب آمد[٢٠٦] يتهدده ان استمر على سياسة الولاء لامير حصن كيفا، ويامره باعلان طاعته له والخطبة باسمه، ويعلمه انه ان لم يستجب لمطالبيه هذه فسوف يعرض مدينته للهجوم. فتخوف الاخير من بطش زنكي واستجاب لما امر به[٢٠٧].

---

(٢٠٣) تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٢١ب–١٢٢أ. وينفرد ابن العديم بالقول بان زنكي وحليفه استوليا في هذه الجولة على حصن البارعية الذي منح بدوره لتمرتاش (زبدة ٢ الحلب–٢٥٤).

(٢٠٤) تاريخ امد وميا فارقين ، ورقة ١٢١ ب–١٢٢ أ.

(٢٠٥) تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٢٢ أ–ب.

(٢٠٦) الكامل ١١–٣٢ ويجعل ابن الاثير قائد جيش حصن كيفا في هذه المعركة داود نفسه ، والارجح هو ابنه قرا ارسلان وفق ما ذكره ابن العديم (زبدة الحلب ٢–٢٧٦) ، اذ ان داودا كان مشغولا خلال ذلك بشن الهجمات على ميا فارقين. ويخطىء ابن الاثير (في الباهر ، ص ٤٧) يجعل هذه الحادثة عام ٥٢٦هـ، وهذا شان (الباهر) في عدم ضبط التواريخ.

(٢٠٧) تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٢٢أ–ب.

كما قام في العام نفسه بعقد صلح مع خصمه اللدود داود بن سقمان[٢٠٨]. ويبدو ان نجاح زنكي في تحقيق اهدافه السياسية هذه ارغم تمرتاش على العودة إلى موالاته، فارسل إلى الموصل وفدا برئاسة وزيره شرف الدين حبشي[٢٠٩] لاجراء مفاوضات مع اميرها حول ما يجب ان تستقر عليه العلاقات بين الطرفين. وقد استقبل زنكي وفد ماردين باكرام بالغ، واستطاع – خلال محادثاته السرية مع حبشي – ان يحصل على وعد من الاخير بتسليمه مدينة ميا فارقين حال عودته اليها[٢١٠]. وقد استهدف زنكي من محاولته هذه، اضعاف جانب تمرتاش واتخاذ ميا فارقين قاعدة للهجوم على بقية ممتلكات هذا الامير.

وبفضل تلك الخطوات السياسية التي قطعها زنكي، استطاع ان يحصل على مركز قوي في ديار بكر، وان يستغل هذا المركز لمد نفوذه هناك، والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من الحصون الكثيرة المنتشرة في المنطقة والتابعة لعدد من الامراء، كي يتسنى له بعد ذلك القيام بخطوته الحاسمة، وهي الانقضاض لاسقاط حكم بني ارتق الذي يقف عائقا دون تحقيق هدفه الرئيسي في توحيد بلاد الموصل والجزيرة وشمالي الشام.

وشهدت أواخر عام (٥٣٧) ومطالع العام التالي قيام زنكي بحملة واسعة ضد عدد كبير من الحصون الواقعة في اقاصي ديار بكر والتابعة لامير يدعى يعقوب بن السبع الاحمر الذي لم تشر المصادر – بوضوح – إلى تاريخه السياسي، وهويته، وطبيعة علاقاته بامراء ديار بكر[٢١١].

---

(٢٠٨) في منتصف جمادي الاولى سنة ٥٣٦هـ توفي الامير سعد الدولة ايكلدي ، صاحب آمد ، فقام متولي البلد (مؤيد الدين بن بيسان) بتنصيب ولده شمس الملوك محمود : (تاريخ امد وميا فارقين ، ورقة ١٢٢ب).

(٢٠٩) الكامل ١١-٣٦-٣٧ ، الباهر ، ص ٦٤.

(٢١٠) زبدة الحلب ٢-٢٧٦.

(٢١١) قدم شرف الدين حبشي بن محمد الى ماردين عام ٥٢٨هـ ، للالتحاق بخدمة اميرها تمرتاش ، فولاه الاخير الوزارة ، وسرعان ما بلغ حبشي منزلة لم يبلغها احد من قبله ، الا انه كان ظالما متعسفا ، وبخاصة تجاه الموظفين وارباب الاعمال : (تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٠٩ب-١١٠أ).

وقد تمكن زنكي – في حملته هذه – من الاستيلاء على مدينة طنزة[٢١٢] ، واسعرد[٢١٣]، والمعدن[٢١٤] ، وحيزان[٢١٥] ، وحصن الزوق[٢١٦] ، وفطليس[٢١٧] ، وباتاسا[٢١٨] ، وحصن ذي القرنين[٢١٩] ، وانيرون[٢٢٠]. وقام بترتيب اوضاع هذه المواقع والحصون، ووضع في كل منها حامية عسكرية لتدافع عنها ضد هجمات الاعداء[٢٢١].

أسرع زنكي – بعد انجازه هذه الانتصارات – بالتوجه إلى ميا فارقين لتنفيذ الخطة السرية التي رسمها مع شرف الدين حبشي وزير تمرتاش، وعسكر بقواته الكبيرة، في احدى ضواحيها القريبة المسماة (تل بسمى) املا في ان يقوم حبشي، المقيم في ميا فارقين، بفتح الابواب لدخول قواته والسيطرة على المدينة والقلعة دون اراقة قطرة من دماء. إلا ان الخطة اكتشفت، واتفق رجلان من كبار اعيان البلد ومسؤوليه، على اغتيال حبشي وانهاء الخطر المحدق بميا فارقين[٢٢٢] ، فتسللا إلى خيمته ليلا، وضرباه بالسيوف، ثم حملا راسه إلى تمرتاش

---

(٢١٢) تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٢٢ب–١٢٣أ.

(٢١٣) انظر : تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٢٩أ ، وابن شداد : الاعلاق (قسم الجزيرة)، ورقة ١٠٣ب–١٠٤أ.

(٢١٤) تقع قريبا من جزيرة ابن عمر : (ياقوت : معجم البلدان ٦–٦٢–٦٣).

(٢١٥) ويقال لها (سعرت) كذلك : (معجم البلدان ٣–٣٨١).

(٢١٦) تقع قريبا من منابع نهر دجلة ، سميت بهذا الاسم بسبب كثرة معدني الحديد والنحاس في اراضيها : (محمد مصطفى زيادة : السلوك للمقريزي ١–٦٩٠ ، حاشية ٤).

(٢١٧) بلد كثير الاشجار والبساتين ، يقع قريبا من اسعرد (معجم البلدان ٢–٣٨٠).

(٢١٨) وردت اسماء هذه الحصون الثلاثة في الكامل ، بالرسم التالي المخالف لما ورد في الباهر : الدوق ، مطليس ، بانسبة. كذلك وردت محرفة في (مفرج الكروب ١–٩٢) ، وربما حرفتها اخطاء الناسخين. ولم يرد ذكر لهذه المواقع في معجم البلدان ، او غيره من المصادر الجغرافية.

(٢١٩) وردت اسماء هذه الحصون الثلاثة في الكامل ، بالرسم التالي المخالف لما ورد في الباهر : الدوق ، مطليس ، بانسبة. كذلك وردت محرفة في (مفرج الكروب ١–٩٢) ، وربما حرفتها اخطاء الناسخين. ولم يرد ذكر لهذه المواقع في معجم البلدان ، او غيره من المصادر الجغرافية.

(٢٢٠) وردت اسماء هذه الحصون الثلاث في الكامل ، بالرسم التالي المحالف لما ورد في الباهر : الدوق ، مطليس ، بانسبة. كذلك وردت محرفة في (مفرج الكروب ١–٩٢) ، وربما حرفتها اخطاء الناسخين. ولم يرد ذكر لهذه المواقع في معجم البلدان ، او غيره من المصادر الجغرافية.

(٢٢١) لم تعرفه المصادر الجغرافية.

(٢٢٢) لم تعرفه المصادر الجغرافية. ويشير الفارقي (تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٢٨ب–١٢٩م) الى ان زنكي استولى ، في جولته هذه ، على (ابرذون) كذلك ، ولعل هذا الاسم تحريف لانيرون ، لما بينهما من تشابه في الرسم.

في ماردين، وسرعان ما انتشر نبا الحادثة، فاضطرب جيش زنكي وعمته الفوضى، واضطر قائده إلى الانسحاب، اذ ان مقتل حبشي المفاجيء جعل من الصعوبة بمكان الاستيلاء على ميا فارقين، فقل عائدا إلى نصيبين[٢٢٣].

وفي مطلع العام التالي (٥٣٩هـ) توفي داود بن سقمان، وتولى امارة حصن كيفا بعده ولده فخر الدين قرا أرسلان[٢٢٤]. ولم يكن يتمتع كأبيه بمقدرة سياسية أو عسكرية، فاستغل زنكي ضعفه وبدا بمهاجمته لممتلكاته، حيث استطاع في فترة قصيرة الاستيلاء على حاني[٢٢٥]، وارقتين، وحيرموك وبالمرقتين[٢٢٦]. وفرض سيطرته – بذلك – على مناطق واسعة من امارة حصن كيفا الارتقية[٢٢٧]. وقد ادت العمليات العسكرية التي قام بها زنكي في السنين الاخيرة، سواء في محاولة ميا فارقين ام في مهاجمة املاك قرا ارسلان، إلى تعميق الخلاف بينه وبين تمرتاش، سيما بعد ان قام بمهاجمة قلعتي جور والسيوان والاستيلاء عليهما ثانية، بعد ان كان قد وهبهما لحليفه هذا عام (٥٣٠هـ)[٢٢٨].

لم يأبه زنكي لضياع حلفه القديم مع امير ماردين، بعد اذ اصبح مركزه في ديار بكر على درجة كبيرة من القوة والثبات، وقرر ان يمضي في فرض سيطرته على مدن المنطقة وقلاعها واحدة بعد أخرى، فاتجه إلى امد في محاولة للاستيلاء عليها كي يقف بعدئذ وجها لوجه امام تمرتاش الذي سيغدو وحيداً آنذاك. إلا ان انهماكه بمهاجمة الرها بعد فترة قصيرة من توجهه

---

(٢٢٣) تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٢٣ب–١٢٤م ، الكامل ١١–٣٩ ، الباهر ، ص ٦٦ ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٧ ، زبدة الحلب ٢–٢٧٧.

(٢٢٤) كان ينوب عن تمرتاش في ميا فارقين–خلال هذه الفترة–يوسف بن ينال ، ولم تشر المصادر الى الدور الذي لعبه في محاولة حبشي ، سوى انه استمر في منصبه الى الثالث من رجب سنة ٥٣٩هـ حيث توفي (الاعلاق الخطيرة ، ورقة ١٠٤–١٠٥م) ، واغلب الظن ان يوسف هو الذي اشرف على عملية اغتيال حبشي ، ولذا استمر في منصبه–كوال على ميا فارقين– طيلة الفترة التي اعقبت محاولة زنكي الاستيلاء عليها.

(٢٢٥) تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٢٢ب–١٢٣ب ، الاعلاق الخطيرة ، ورقة ١٠٤أ–١٠٥أ.

(٢٢٦) المصدران السابقان ، نفس الاوراق. وكان قرا ارسلان واخوه ارسلان تغمش قد تقاسما املاك ابيهما ، فملك قرا ارسلان حصن كيفا والبلاد المجاورة ، واستقر ارسلان تغمش في قلعة ملا زكرد (تاريخ امد وميا فارقين ، ورقة ١٢٣ب ، ١٣٠ب).

(٢٢٧) الكامل ١١–٣٩ ، الباهر ، ص ٦٦ ، ويخالف ابن واصل (مفرج الكروب ١–٩٢) ما اكده ابن الاثير ، بقوله ان زنكي حاصر حاني ، فلم ينل منها غرضا ، فرحل عنها.

(٢٢٨) لم تعرف المصادر الجغرافية أياً من هذه المواقع.

إلى آمد، انقذ هذا الموقع من خطر محقق، وابعد عن امارة ماردين الارتقية احتمالات هجوم شامل عليها من قبل قوات الموصل. وقد ظل زنكي منشغلا في قتاله ضد صليبيي المنطقة، صارفا كل اهتمامه تجاههم حتى عام (٥٤١هـ) حينما اتيحت له الفرصة للتوجه إلى قلعة جعبر التابعة للعقيليين في محاولة للاستيلاء عليها، وكان يصحبه في حملته تلك جمال الدين بن تمرتاش. إلا انه سرعان ما قبض عليه واعتقله[٢٢٩] ، تمهيدا – في اغلب الظن – لمهاجمة تمرتاش نفسه، بعد تصفية حسابه مع اصحاب جعبر، إلا ان مقتله خلال الحصار انقذ الاراتقة – بشكل نهائي – من خطره القريب.

ولا بد – قبل الانتهاء من سرد وتحليل علاقات زنكي بامراء ديار بكر – من الاشارة إلى طبيعة موقفه ازاء امارة ارمينية المتاخمة لذلك الاقليم[٢٣٠] ، اذ ارسل في عام (٥٢٨) – كما يحدثنا ابن منقذ – يطلب خطبة ابنة سكمان القطبي الذي كانت زوجته قد تولت الوصاية على شؤون الامارة منذ وفاته عام (٥٠٥هـ). وصادف في الوقت نفسه ان تقدم حسام الدولة بن دلماج امير بدليس المجاورة، يخطب هذه الفتاة لابنه، الامر الذي اغضب زنكي اشد الغضب. واعتبر الموضوع بمثابة تحد لرغبته، فتقدم على راس قواته إلى خلاط، سالكا بجنده الطرق الجبلية الوعرة، غير المسلوكة، من اجل ان يبلغ هدفه باسرع وقت ممكن. (فكان الجيش بغير خيام، وكل جندي في موضعه من الطريق). وعندما وصلوا خلاط ضربوا خيامهم قريبا منها، واتجه زنكي مع كبار افراد حاشيته إلى القلعة لكتابة المهر. وما ان اتم ذلك حتى قام بارسال حاجبه الياغسياني إلى بدليس، على راس قسم من قواته، لتاديب صاحبها، إلا ان هذا استطاع اقناع قائد زنكي بالعودة إلى سيده مقابل مبلغ من المال[٢٣١].

وهكذا اعتمد زنكي رابطة الزواج لتعزيز علاقته بامارة ارمينية، وكسب – بذلك – صديقا جديدا، ربما حصل على مساعدته خلال عملياته العسكرية في المناطق القريبة من ارمينية، أو ضمن حياده على الاقل، سيما وان هذه الامارة كانت تجاور اعداءه في ديار بكر ومناطق الجبال الكردية، مما كان يحتم ابعادها عن الدخول في الصراع إلى جانب هؤلاء الاعداء. ولم يحاول زنكي – من جهة أخرى – ان يتوسع على حساب هذه الامارة، ربما لبعدها عن حدود ممتلكاته، وعدم تشكيلها خطرا مباشرا عليه، حيث يفصل بين الطرفين عدد من الإمارات والمواقع

---

(٢٢٩) تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٢٣ب–١٢٤م ، ١٢٨ب–١٢٩م ، الاعلاق الخطيرة ، ورقة ١٠٤ب–١٠٥م.

(٢٣٠) المصادر السابقة ، نفس الاوراق.

(٢٣١) تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٢٧م.

المستقلة في اقاليم الجبال وديار بكر، امتصت معظم جهوده خلال صراعه الطويل مع امرائها. هذا إلى ان المنشور، الذي منحه السلطان السلجوقي لزنكي، نص على توليته الموصل والجزيرة والشام، دون اية اشارة إلى ارمينية. وبالرغم من ان منشورا كهذا ليس له تاثير كبير من الناحية العملية، إلا ان بالامكان اعتباره احد العوامل التي ابعدت امير الموصل عن مهاجمة امراء ارمينية، ومحاولة اقتطاع بعض ممتلكاتهم، تفاديا لغضب السلطان.

وفضلا عن هذا وذاك، كان هدف زنكي الرئيسي العمل على توحيد المواقع الاسلامية التي تخدمه في صراعه ضد الصليبيين، ولم تكن ارمينية ذات غناء كبير في هذا المجال. واخيرا لا بد ان نلاحظ بعد نظر زنكي في سياسته التي استهدفت عدم اضعاف الامارة المذكورة التي كانت بمثابة حزام واق ضد هجمات الخزر والقفجاق القاسية على الجهات الشمالية من اسيا الصغرى وارمينية، اولئك الذين كانوا يشكلون خطرا على المناطق المجاورة. يؤكد هذا بوضوح ما حدث هناك عام (٥١٤هـ)، لدى خروج حشد كبير من مقاتلي هذه الاقوام، واتجاهه جنوبا حيث تصدى لهم عدد من امراء المسلمين، يقودون ثلاثين الف جندي، فلم تغن كثرتهم عنهم شيئا، وتمزقوا وقتلوا بين ايدي الاعداء، ووقع اربعة آلاف منهم اسرى[٢٣٢]، فكانت تلك المجزرة كارثة كبرى لقنت مسلمي المنطقة درسا قاسيا، وعلمت زنكي – فيما بعد – كيف تكون الحيطة ازاء اعداء يحيطون بالمسلمين من كل مكان.

(٢٣٢) وكانت تسمى –ايضا– امارة آل سكمان القطبي نسبة الى مؤسسها سكمان الذي كان مولى لاحد امراء السلاجقة ، وقد اشتهر بمقدرته العسكرية وشهامته ، لذا دعاه اهالي خلاط والمناطق المجاورة لتخليصهم من ظلم الاكراد المروانيين حكام ديار بكر. فاتجه الى ميا فارقين –اولا– واستولى عليها ، ثم ما لبث ان تمكن من اخضاع معظم بلاد ارمينية ، واتخذ من خلاط قاعدة لامارته. وعندما توفي عام ٥٠٥هـ انتقل الحكم من بعده إلى ابنائه الذين توارثوا الامارة حتى عام ٦٠٤هـ ، حيث استولى الايوبيون على املاكهم. (انظر : ابن خلدون : تاريخ ، ط ، بيروت ، مجلد ٥ ، ص ٣٧٣–٣٨١).

الفصل الخامس

عماد الدين زنكي والاكراد

كانت المناطق الجبلية المحيطة بالموصل من جهاتها الشمالية والشمالية الشرقية، ذات أهمية بالغة بالنسبة لامارة زنكي وضمان امنها وازدهارها، وذلك لقربها من الموصل. وامكاناتها الاقتصادية، فضلا عن الاخطار التي يمكن ان تنشا عن عدم سيطرة زنكي على القبائل الكردية المنتشرة في تلك المناطق، الامر الذي حتم عليه مد نفوذه اليها كي يضمن لامارته خطوطا دفاعية طبيعية تحمي ظهره في حالة انهماكه بحروبه ومشاكله بعيدا في الشام أو الجزيرة أو العراق.

كان الاكراد – في الفترة التي نتكلم عنها – ينقسمون إلى قبائل وطوائف عديدة اهمها: الجوزقان والزوم واللر والجلالية والجوبية والداسنيه[٢٣٣] والكورانيه والهذبانيه والبشنوية والشاهنجانيه والرلجيه واليزوليه والمهرانيه والزرزاريه والكيكانيه والجاك والدنبليه والرواويه والهكاريه والحميديه والوركجية والمروانيه والشنبكيه[٢٣٤]. ولم يهاجم زنكي من هذه الطوائف جميعا سوى تلك المجاورة لامارته كالحميديه (منطقة عقرة)، والهكاريه (منطقة العماديه والخابور)، والمهرانيه والبشنوية (منطقة جزيرة ابن عمر).

وكان هؤلاء الاكراد قد انقسموا – بصورة عامة – إلى قسمين شمل اولهما افرادا وقبائل لم تكن خاضعة لسلطة منظمة أو خارجية، وكانت تقوم باعمال السلب والنهب، وتحتمي بقلاعها الجبلية اذا ما دهمها الخطر[٢٣٥].

---

(٢٣٣) الاعتبار ص ٨٨–٨٩.

(٢٣٤) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٤–٢٠٥ ، الكامل ١٠–٢١٥ ، الذهبي : دول الاسلام ٢–٢٩.

(٢٣٥) ياقوت : معجم البلدان ١–٤٧٧ ، ٢–١٥١ ، ٢٧٧ ، ٥٣٨ ، ٩٥٩–٩٦٠ ، ٤–٣٥٥.

أما القسم الآخر فقد استطاع ان يشكل عددا من الإمارات تختلف في نظمها واحجامها، فهناك امارات واسعة تناوب الامراء حكمها بالوراثة، وهناك امارات مدن صغيرة منفردة كان حكمها ينتقل – بين حين وآخر –[٢٣٦] للامير الأقوى[٢٣٧].

وقد اثر قيام الدولة السلجوقية على تاريخ الاكراد السياسي إلى حد كبير. ففي عام (٤٦٣هـ) انتهز السلطان السلجوقي (ألب ارسلان) انتصاره على جيش ارمانوس الرابع امبراطور الروم، في موقعه ملازكرد في ارمينية. وكان لهذه الموقعة الحاسمة أهمية بالغة بالنسبة للاكراد، لانها مهدت الطريق امام السلاجقة لفرض سيطرتهم التامة على منطقة ارمينية، واتاحت لهم في السنين التي تلت ذلك، اجتياح المناطق الكردية في الجبال، والقضاء على جميع الإمارات المنتشرة هناك، والتي سرعان ماغدت تحت سيطرة ورعاية الحكم السلجوقي[٢٣٨].

وفي عام (٤٧٨هـ) ارسل السلطان السلجوقي ملكشاه، قائده فخر الدين ابن جهير للاستيلاء على ديار بكر، وقد تمكن هذا من اجتياح امد وميا فارقين وجزيرة بن عمر، وعدد من المواقع الأخرى هناك، وبذلك قضى على دولة بني مروان الكردية في هذه المنطقة[٢٣٩]. وفي السنين التي اعقبت ذلك قام سكمان القطبي، مؤسس امارة ارمينية، بالاستيلاء على مدينة خلاط، والقضاء على اخر امير كردي من سلالة الدولة المروانية[٢٤٠].

---

(٢٣٦) المقريزي : السلوك ١-١-٤. ويعدّد القلقشندي (صبح الاعشى ٤-٣٧٣-٣٧٩) عشرين طائفة من الاكراد ، يتفق في معظمها مع المصدرين السابقين ، موضحا مناطق كل من هذه الطوائف وعدد محاربيها ، مشيرا الى من كان لها امير يدير شئونها. كما يعدد طوائف أخرى من الأكراد الذين تفرقوا بعد اجتماع. ويذكر خمسا وعشرين موضعا آخر يقطنها الأكراد الذين كانوا يتخذون من القلاع مراكز لهم. وعن الطوائف الكردية في الفترة التي سبق عصر زنكي أنظر : المسعودي ، مروج الذهب ٣-٣٥٣ ، ٣٥٤ ومسكويه : تجارب الأمم ٦-١٧٩.

(٢٣٧) الكامل ١٠-٢٣٠.

(٢٣٨) انظر : شرف خان البدليسي : شرفنامة ، ومحمد امين زكي : (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) و (تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي) . وقد قسم المؤلف المذكور تنظيمات الاكراد السياسية طيلة العهد الاسلامي الى قسمين : يشمل اولهما الحكومات او الدول الكردية التي بلغت اربع عشرة دولة ، ويشمل ثانيهما الامارات الكردية في مناطق الجبال والجزيرة وديار بكر وبعض انحاء بلاد الشام ولبنان ، وتبلغ خمس وثلاثون امارة. ولا نجد في كلا القسمين ثمة اشارة الى ان ايا من الطوائف التي هاجمها زنكي كان قد شكل دولة او امارة ذات شان ، طيلة الفترة التي حكم فيها (٥٢١-٥٤١هـ).

(٢٣٩) (by : V. Minorsky). Encyclopeadia of Islam , S . KURD , .

(٢٤٠) الكامل ١٠-٥٢-٥٣.

وهكذا يبدو ان الفترة التي سبقت حكم زنكي أو عاصرته، كانت تخلو بالمرة من اية دولة كردية ذات شان في مناطق الجبال المحيطة بالموصل، الامر الذي يعني ان الطوائف الكردية التي هاجمها لم تكن قد استطاعت ان تشكل حكومات أو دولا مستقلة، على غرار ما حققته بعض الطوائف الأخرى في الفترات السابقة أو اللاحقة لحكم زنكي، مما يفسر اغفال مؤرخي المناطق الكردية توضيح نوعية التشكيلات السياسية لهذه الطوائف، والاكتفاء بمجرد الاشارة، أو القول بانها كانت تحكم مدينة أو اكثر، مشكلة امارات مدن صغيرة لم تستقر وتتسع بشكل يجعلها تقف في صف الدول والإمارات الكردية الواسعة، ذات النظام الوراثي والتاريخ الطويل.

الاكراد الحميديه :

بدأ زنكي هجومه على الاكراد بطائفة الحميديه، بسبب قرب حصونها من الموصل. وكانت (العقر) مركز هذه الطائفة، وهي قلعة حصينة تربض في جبال الموصل الشرقية، نسبت إلى الجماعة التي تقطنها فسميت (عقر الحميديه)[٢٤١]. وكان يتبعها حصن اخر يدعى (الشوش)، وهو قلعة عظيمة، شديدة الارتفاع تقع بالقرب من المركز السابق[٢٤٢]. وكان يحيط بكل من هذين الحصنين اراض واعمال زراعية غزيرة الانتاج، تجنى منها سنويا محاصيل شتى كالرز والقصب والاخشاب، وتنتشر في انحائها قرى وضياع تشرف على زراعتها، كالغيضة القريبة من العقر، وجوجر التي ينسب اليها الرز الجيد، وخلبتا القريبة من الشوش. والمعروفة باعتدال مناخها، وخصوبة تربتها، وكثرة بساتينها[٢٤٣].

لا تقدم المصادر شيئا يذكر عن التاريخ السياسي للحميديه، وكل ما لدينا هو ماذكره أبو شجاع[٢٤٤] وابن الاثير[٢٤٥] من ان (باذ بن دوستك الحاربختي) – مؤسس الامارة المروانية في ديار بكر (٣٧٣-٣٧٤هـ) كان ينتمي إلى تلك الطائفة. وهو خبر لايلقي ضوءا على

---

(٢٤١) انظر : الفارقي : تاريخ آمد وميا فارقين (القسم المنشور) ، للاطلاع على تاريخ الدولة المروانية.

(٢٤٢) ياقوت : معجم البلدان ٣-٦٩٦ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٢٧٤.

(٢٤٣) معجم البلدان ٣-٣٣٤ ، تقويم البلدان ، ص ٢٧٤.

(٢٤٤) معجم البلدان ٢-١٤٢-١٤٣ ، ٤٥٩ ، ٣-٨٢٨ ، تقويم البلدان ، ص ٢٧٤.

(٢٤٥) ذيل تجارب الامم ، ص ٨٤.

الموضوع، كما انه يتطرق إلى فترة بعيدة عن العصر الذي نتكلم عنه[٢٤٦]. اما في عهد زنكي فكان يحكم هذه الطائفة الامير عيسى الحميدي، وكانت امارته تتمتع بنوع من الاستقلال المحلي، وكان الحميديون يقومون، في كثير من الاحيان، بمهاجمة مزارع الموصل الشرقية ونهب فلاحيها[٢٤٧]. وقد بلغت هذه الطائفة من الأهمية بحيث غدت مقياسا تقاس به امكانيات الجماعات الكردية الأخرى فيقال عن التحتية – مثلا – انهم كانوا يضاهون الحميديه [٢٤٨].

كان زنكي، لدى توليه الموصل، قد اقر الامير عيسى الحميدي على ولايته، (ولم يتعرضه بشيء مما في يده)[٢٤٩]. إلا ان الامير المذكور سرعان ماخرج على طاعة زنكي لدى حصار الخليفة المسترشد الموصل عام (٥٢٧هـ)، حيث انضم اليه بجيوشه، وامده بالاقوات، وحشد له عددا كبيرا من الاكراد. وما ان فشل الحصار وانسحب المسترشد عائدا إلى بغداد، حتى بدا زنكي هجومه على قلاع الحميديه. فحاصرها وقاتلها قتالا شديدا، حتى انه حمل بنفسه على حامية العقر (وصعد في جبلها المرتفع إلى سورها، فوصلت طعنته اليه)[٢٥٠] ، ثم ما لبث ان استولى عليها (٥٢٧هـ)، منهيا بذلك اسباب القلق والخوف الذي كانت تسببه هجمات الحميديين على فلاحي الموصل[٢٥١] ، الامر الذي ادى – ولا ريب – إلى عودة ازدهار الحياة الزراعية والتجارية في المنطقة.

وقد استطاع زنكي – باستيلائه على العقر والحصون الحميديه المجاورة[٢٥٢] – ان يقضي على احدى الإمارات التي كانت تهدد امن الموصل العسكري، بما لها من موقع حيوي، وان يحصل على موطىء قدم مهد الطريق امامه للتوغل في بلاد الاكراد الجبلية. ولقد ادرك أبو الهيجاء الهكاري، صاحب قلعة اشب، مدى خطورة هذا النصر الذي حققه زنكي، فارسل اليه

---

(٢٤٦) الكامل ٩–١٣.

(٢٤٧) يقدم القلقشندي : (صبح الاعشى ٤–٣٧٤–٣٧٥) معلومات متاخرة عن هذه الطائفة ، خلال الحكم المغولي للعراق ، وهي لا تخدمنا في هذا البحث.

(٢٤٨) الكامل ١١–٥ ، الباهر ، ص ٤٨ ، مفرج الكروب ١–٥٥.

(٢٤٩) صبح الاعشى ٤–٣٧٨–٣٧٩.

(٢٥٠) الباهر ، ص ٨٠.

(٢٥١) المصدر السابق ، ص ٨٠ ، مفرج الكروب ١–٥٥.

(٢٥٢) الكامل ١١–٥ ، الباهر ، ص ٤٨.

مبلغا من المال، وتوسل اليه إلا يتعرض لبلاده بسوء، ثم ما لبث ان قدم بنفسه إلى الموصل لاعلان الطاعة[٢٥٣].

الهكارية :

كان الهكاريون يقطنون المنطقة المعروفة بهكاريا إلى الشمال من نهر الخابور الذي يصب في اعالي دجلة[٢٥٤]. وكانت قلعة اشب مركزهم الرئيسي. فهي اكبر حصون هؤلاء الاكراد، واكثرها مناعة، وبها أموالهم وأهلوهم[٢٥٥] ، وتقع في منطقة العمادية الحالية[٢٥٦] ، حيث كانت تنتشر عدة قرى زراعية واعمال ترتبط جميعا باشب، واشهرها (هرور) التي تميزت بمناعتها. ووفرة مياهها، وكثرة انتاجها، وانتشار معدن الحديد في اطرافها[٢٥٧]. و(كوم) التي لا تقل انتاجا عن شقيقتها[٢٥٨]. و(جبل لهيجة) و(جبل صور) الواقع إلى الجنوب الشرقي من هرور. اما المواقع الهكارية الاقل أهمية فاشهرها الملاسي. مابرما. بابوخا. باكزاد. وسباسي[٢٥٩].

وحظ الهكارية – من حيث تاريخهم السياسي – كحظ الحميدية. فليس ثمة سوى اشارات متفرقة عنهم. منها ان جماعة من هؤلاء الاكراد وحلفائهم اغاروا على الموصل عام (٣٧٤هـ) وحاصروها، ونهبوا اطرافها، فلما سمع باذ بن دوستك (مؤسس الدولة المروانية في ديار بكر)

---

(٢٥٣) المصدران السابقان ، نفس الصفحات.

(٢٥٤) الكامل ١١–٥ ، مفرج الكروب ١–٥٥–٥٦.

(٢٥٥) أنور المائي : الاكراد في بهدينان ، ص ٩١.

(٢٥٦) ياقوت : معجم البلدان ١–٦٣ ، الكامل ١١–٣٧.

(٢٥٧) الاكراد في بهدينان ، ص ٩.

(٢٥٨) معجم البلدان ٤–٩٧٠.

(٢٥٩) المصدر السابق ٢–٦٩٠.

بهذا الهجوم، غادر حصن كيفا على رأس جيشه، وباغت الهكارية وحلفاءهم ليلا، على ابواب الموصل، واعمل فيهم قتلا واسرا، وصادر ماغنموه من اموال، الامر الذي انقذ اهالي الموصل من خطر محقق، وزاد من حبهم لهذا الزعيم الكردي(٢٦٠).

وفي عام (٤٣٢هـ) تعرضت بلاد الهكارية لهجوم قبائل الغز التركية التي انطلقت غربا من مواقعها في منطقة آرميه، وجرى بين الطرفين قتال شديد انتهى بهزيمة الاكراد، واستيلاء الغز على غنائمهم ونسائهم واموالهم. ثم استانفوا مطاردتهم للهكارية الذين اعتصموا بالجبال والمضايق، وتمكنوا، بعد قليل، من اعادة الكرة والقيام بهجوم مضاد على قوات الغز، انتهى بهزيمة هؤلاء وقتل واسر عدد كبير من امرائهم ومقاتليهم، والاستيلاء على اسلحتهم وغنائمهم، واضطر من بقي منهم إلى التراجع عبر الجبال(٢٦١).

تقفز المصادر – بعد ذلك – إلى العقد الثاني من القرن السادس، حيث تشير إلى الدور الذي لعبه (جيوش بك) والي الموصل السلجوقي (٥٠٧-٥١٤هـ) ضد فوضى الاكراد – والهكارية بضمنهم – في مناطق الموصل والجزيرة، اذ كانوا قد انتشروا وكثر فسادهم وازدادت قلاعهم (وغدا الناس معهم في ضيق)، وافتقد الامن عبر طرق المواصلات. فتولى جيوش بك امر مطاردتهم بنفسه، وحاصر قلاعهم وتمكن من الاستيلاء على عدد كبير منها في مناطق الهكارية والزوزان والبشنوية، والقى – بذلك – الرهبة في قلوب الاكراد، فهربوا بين يديه في المضايق والشعاب، ومن ثم عاد الامن والاستقرار إلى تلك المناطق. واتجه الناس – من

---

(٢٦٠) لم تحدد المصادر الجغرافية مواقع هذه القرى والضياع ، وقد وردت في الكامل ١١-٦ ، ومفرج الكروب ١-٥٥-٥٦ ، ويضيف ابن الاثير (الكامل ١١-٦) قلعة الجلاب الى حصون الهكارية ، وانها هي التي بنى زنكي على انقاضها مدينة العمادية المنسوبة اليه ، وينقل هذا الراي عن ابن الاثير ، ابن واصل (مفرج الكروب ١-٥٧) ، وكلاهما مخطىء ولا ريب ، اذ ان الجلاب الواقعة على نهر جلاب المار بمدينة حران (معجم البلدان ٢-٩٦) بعيدة بعدا شاسعا عن منطقة حصون الهكارية ، ومن غير المعقول ان تكون تابعة لهم ، سيما وان المناطق الفاصلة بينها وبينهم ، تقطنها طوائف اخرى من الاكراد ، كالبشنوية والمهرانية (انظر ما يلي من الفصل). وهناك موقع اخر يضيفه ابن الاثير الى حصون الهكارية هو نوش (او موش) (الكامل ١١-٦) والتي تقع في سهل يمتد بين خلاط وميا فارقين يسمى صحراء نوش (ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٣٩٣) ، ومن المحتمل ان يكون الهكارية قد توسعوا في الجهات الشمالية الغربية من منطقتهم. وانظر الخارطة رقم ١.

(٢٦١) الفارقي : تاريخ امد وميا فارقين (القسم المنشور) ص ٥٥-٥٦.

جديد – إلى ممارسة نشاطهم الزراعي والتجاري. بعد ان اصبح الاكراد لا يجرؤون على حمل السلاح خوفا من بطش هذا الوالي[٢٦٢].

أما في عهد زنكي فيبرز لاول مرة اسم (أبي الهيجاء عبد الله بن أبي الخليل بن مرزبان الهكاري)[٢٦٣] الذي سبق وان ذكرنا كيف افزعه المصير الذي آل اليه ملك الحميدية عام (٥٢٨هـ)، فغادر مقره في اشب إلى الموصل لاعلان الطاعة لزنكي، واناب عنه في حكم الامارة (باو الارجي) احد امراء الهكارية. بعد ان منح ابنه احمد قلعة نوش. فلما مات أبو الهيجاء عام (٥٣٧هـ) في الموصل[٢٦٤] ، تقدم احمد إلى اشب لينتزعها من الامير باو. إلا ان هذا قاومه مدعيا انه يدافع عن حق علي – الابن الاخر لأبي الهيجاء – في وراثة امارة أبيه، وكان هدفه من وراء ذلك استغلال مقدرات الامارة الهكارية باسم الطفل الصغر. إلا ان زنكي لم يدعه يحقق هدفه هذا، واسرع بمهاجمة اشب، على راس قواته، وتمكن من استدراج جندها خارج الحصن، وما ان ابتعدوا عن الاسوار حتى انقض عليهم، على حين غرة، واعمل فيهم القتل والاسر، فانهزموا بين يديه، وحينذاك اتجه إلى القلعة مباشرة وتمكن من الاستيلاء عليها دون مقاومة تذكر، ثم قفل عائدا إلى الموصل، بعد ان تخلص من باو وانصاره. وارسل من هناك نائبه نصير الدين جقر ليتم ما بدأه سيده. فقدم جقر إلى منطقة الهكارية، وقام بتخريب قلعة اشب بناء على اوامر زنكي، كيلا تكون مركزا دفاعيا، قد يستغله الاكراد في المستقبل ضد مصالحه في المنطقة. ثم شرع جقر بالاستيلاء على بقية مواقع وحصون الهكارية. فاجتاح جبل لهيجة ونوش[٢٦٥] ، واتم بذلك اسقاط اهم حصون الهكارية، ولم يبق امامه سوى صاحبي جبل صور وهرور، اللذين لم يكن لهما (شوكة يخاف منها)[٢٦٦].

استطاع زنكي ونائبه ان ينهيا – بهذه الانتصارات – اعمال الفوضى والفساد في المنطقة[٢٦٧] ، فحل الامن في ربوعها، وعاد نفعه قبل كل احد على الاكراد انفسهم، الذين

---

(٢٦٢) الكامل ١١–١٤٤–١٤٥.

(٢٦٣) المصدر السابق ١٠–٢٣٠.

(٢٦٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ١–١٦٢.

(٢٦٥) يذكر ابن الاثير (الكامل ١١–٥) ان ابا الهيجاء بقي في الموصل منذ ذهابه اليها لاعلان الطاعة ، وحتى وفاته. ولم يبين لنا هل ان بقاء هذا الامير الكردي طيلة هذه المدة ، بعيدا عن امارته تم باختياره، أم أن زنكي احتجزه تمهيدا للهجوم على امارته؟

(٢٦٦) الكامل ١١–٥–٦ ، ٣٧ ، الباهر ، ص ٦٤.

(٢٦٧) الكامل ١١–٥–٦ ، ٣٧ ، الباهر ، ص ٦٤ .

تخلصوا من المنازعات الداخلية، على ما يظهر، واتجهوا إلى الانتاج. ثم ما لبث زنكي ان اصدر اوامره ببناء قلعة العمادية – نسبة إلى اسمه[٢٦٨] – على اطلال حصن قديم كان الاكراد قد خربوه لعجزهم عن الدفاع عنه[٢٦٩]. ولم تحدد المصادر الغرض الذي استهدفه زنكي من اقامة هذه القلعة، واغلب الظن انه اعتزم اتخاذها قاعدة عسكرية للدفاع والتموين في حالات التمرد التي قد يقوم بها الاكراد ضد ممتلكاته هناك، ونقطة انطلاق لتوسيع نفوذه في المنطقة.

(٢٦٨) الكامل ١١-٦.

(٢٦٩) الباهر ، ص ٦٤ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨-١٩٠.

المهرانية :

بدأ زنكي هجومه في نفس العام (٥٣٧هـ) على طائفة المهرانية[٢٧٠] التي تقطن عددا من القلاع المنتشرة في المنطقة الجبلية المتاخمة لجزيرة ابن عمر، واهمها كواشي الرابضة على جبال الجودي شرقي نهر دجلة، والزعفراني والشعباني والربية وفرحو سروة[٢٧١]. وتخلو المصادر من تقديم ايضاحات كافية عن تاريخ المهرانية السياسي، وظروف تاسيس امارتهم الصغيرة. وتقتصر على تقديم بعض الاشارات عن الفترة التي عاصرت زنكي، حيث يستنتج ان هذه الجماعة لم تكن تجمعها امارة واحدة، وانما توزع حصونها عدد من الامراء، تمتع كل منهم

---

(٢٧٠) الكامل ١١-٣٧ ، الباهر ، ص ٦٤ ، الروضتين ١-٩١-٩٢. ويذهب المستوفي القزويني الى القول بان اسم العمادية جاء نسبة الى عماد الدولة البويهي الذي اجتاز المنطقة عام ٣٣٨هـ ، وهي رواية ضعيفة لا يمكن الاخذ بها لانفراد المستوفي بذكرها ، ولعدم تطرق المصادر المعاصرة للاحداث اليها. انظر : نزهة القلوب ص ١٠٥ ، لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٢ ، E. I. 2 : A mudya (by : V. Minorsky) ويؤكد مينورسكي في مقاله المذكور على ان نسبة العمادية الى عماد الدولة احتمال ضعيف.

(٢٧١) من المرجح ان يكون امات Amat او (امادي – اماتي) هو الحصن الذي بنيت العمادية على اطلاله استنادا الى الدلائل الاتاية المتوفرة ، حيث يوجد للعمادية في الوقت الحاضر بابان قديمان احدهما شرقي، ويسمى (ده ركهي زيباري) ، والاخر غربي ، ويسمى (ده ركهي سه قافا) ، وتوجد على الباب الاخير صورة حارسين مسلحين بينهما حيوان لايوجد له شبيه حي ، وغيرها من نقوش غير اسلامية . كما توجد بالقرب من هذا الباب ، صورة رجل منحوتة في الصخرة التي بنيت القلعة عليها ، مما يشير الى ان اطلال البناية تعود الى ما قبل الاسلام : (انور المائي : الاكراد ، ص ٥). وقد ورد ذكر امات في الكتابات الاشورية ، وبقيت معروفة حتى العصر البابلي الحديث : (بشير فرنسيس وكوركيس عواد : بلدان الخلافة الشرقية للسترنج ، حاشية ٢٢ ، ص ١٢٢. مجلة سومر ، المجلد الثامن ، ص ٢٦٩-٢٧٠). وقد اخطأ بعض المحدثين في محاولة ايجاد علاقة لغوية بين كلمتي امات والعمادية والقول بان الاخيرة ليست سوى تعريب لكلمة امات : (محمد علي عوني : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان لمحمد امين زكي ، حاشيتا ١ ، ص ١٥٤) ، حتى ان احدهم ذهب الى التاكيد بان زنكي لم يقم ببناء العمادية اساسا ، وان اسم القلعة الحالي ليست سوى تعريب لكلمة امات القديمة (انور المائي : الاكراد ص ٥-٧). ولم يشر اي من المصادر الاسلامية الى امات.

باستقلاله عن الآخرين. فالربية وفرح والقي[٢٧٢] كانت تحت حكم الامير عبد الله بن عيسى بن ابراهيم المهراني الذي لم تشر المصادر إلى سنة توليه الامارة وسنة وفاته حيث انتقل الحكم إلى ولده علي[٢٧٣]. وكانت الشعباني لامير اخر اسمه الحسن بن عمر. اما كواشي فقد حكمها الامير خول وهرون[٢٧٤]. ولم تذكر المصادر زمن تولي كل من الاميرين الأخيرين الحكم.

ما ان استولى زنكي على قلعة اشب الهكارية عام (٥٣٧) وعاد إلى الموصل، حتى ارسل نائبه نصير الدين جقر ليقوم باتمام فتح الحصون الكردية الأخرى في المنطقة – كما سبق ومر بنا – فقام هذا بالاستيلاء على بقية الحصون الهكارية المهمة، ثم اتجه إلى منطقة المهرانية المجاورة، واستطاع ان يفرض سيطرته على قلاع الشعباني وفرح وكواشي وسروة والزعفراني[٢٧٥]. وقد لعبت الظروف دورها في تحقيق هذه الانتصارات السريعة لصالح زنكي. ذلك ان اكتساح القلاع الهكارية في ذلك المدى القصير، ادخل الرعب في قلوب اصحاب القلاع الأخرى في المناطق المجاورة. وصادف ان توفي الامير عبد الله بن عيسى المهراني صاحب الربية والمواقع المحيطة بها، فتولاها من بعده ولده علي الذي اسرع بارسال امه خديجة بنت الحسن إلى الموصل لتطلب الامان من زنكي، فاجابها إلى ذلك، ثم مالبث علي ان قدم بنفسه لاعلان الطاعة لزنكي، فاقره هذا على قلاعه، بسبب انهماكه بفتح قلاع الهكارية المتبقية. ولعله اراد بذلك عزل امراء المهرانية بعضهم عن البعض الاخر، اذ انه سرعان ما اوعز إلى نائبه نصير الدين جقر بالاستيلاء على حصن الشعباني العائد لامير مهراني اخر هو الحسن بن

---

(٢٧٢) يذكر ابن واصل (مفرج الكروب ١–٥٦) ان الشعباني وكواشي وعددا من الحصون المجاورة كانت للهذبانية. ورواية ابن الاثير (الكامل ١١–٦) اكثر رجحانا ، لان موطن الهذبانية يبعد كثيرا عن منطقة جزيرة ابن عمر ، حيث يشير ياقوت (معجم البلدان ١–١٧٤) الى ان الاكراد الهذبانية كانوا ينزلون في نواحي الموصل، ويزيد ابن حوقل (صورة الارض ، ص ٢٨٨) مكان سكناهم تحديدا فيقول ان مشتاهم كان يمتد في المنطقة الفاصلة بين الزابين الكبير والصغير ، والتي تبعد مسافة كبيرة عن جزيرة ابن عمر.

(٢٧٣) ياقوت : معجم البلدان ٣–٣١٥ ، الكامل ١١–٦ ، أنور المائي : الاكراد ، ص ١٤ ، ١٩.

(٢٧٤) قلعة حصينة ينسبها ابن الاثير (الكامل ١١–٦) الى حصون المهرانية ، وينسبها ياقوت (معجم البلدان ١–٣٥٢) الى حصون الزوزان (البشنوية) ولعل تقارب المنطقتين ادى الى هذا الاضطراب في تحديد تبعية الحصن.

(٢٧٥) الكامل ١١–٦. ويذكر محمد امين زكي (تاريخ الكرد وكردستان ، ص ١٥٤–١٥٥) الى ان عليا كان يحكم حصن (علكار الكي) فضلا عن الربيه ، وربما كان الرسم الاخير هو اللفظ الكردي لاسم (القي).

عمر، فاتم جقر المهمة واقترح على زنكي السماح له بالقاء القبض على علي ومهاجمة ممتلكاته فاذن له بذلك[٢٧٦].

اسرع جقر بالتوجه إلى قلعة الربية، فهاجمها وتمكن من الاستيلاء عليها واسر من كان فيها من انصار علي واخوانه. وتلقى زنكي نبا هذا الانتصار السريع بسرور بالغ، واوعز إلى نائبه ان يسعى للاستيلاء على بقية المواقع المهرانية التابعة لعلي، فتحركت قواته لتنفيذ الامر، إلا ان الاكراد دافعوا عن حصونهم بحماس شديد، الامر الذي دفع زنكي إلى ملاينتهم وتقديم الوعود لهم، فاجابوه إلى التسليم بشرط ان يطلق سراح من في سجونه من امرائهم وقادتهم. وقد تم الاتفاق على ذلك بعد مفاوضات طويلة بين الطرفين، فتسلم زنكي القلاع المهرانية واطلق من في يده من الاسرى، وهكذا استتب الامن في تلك المناطق[٢٧٧]، بعد ان كانت الفوضى قد سادتها زمنا طويلا[٢٧٨] ، الامر الذي عاد بالنفع العميم على السكان الذين اتيح لهم ان يتخلصوا من المنازعات والحروب.

البشنوية :

بعد ان وضع زنكي يده على عدد من اهم مواقع الطوائف الكردية انفة الذكر، التفت صوب جماعة البشنوية المنتشرة في بلاد الزوزان[٢٧٩] ، الواقعة في الاراضي الممتدة من جبال ارمينية شمالا وحتى الموصل جنوبا، ومن اذربيجان شرقا حتى اقليم ديار بكر غربا، وكان يقطن هذه البلاد، إلى جانب البشنوية، عدد كبير من الارمن وطائفة كردية أخرى تدعى البختية. وقد اقامت كلتا الطائفتين الكرديتين عددا من القلاع الحصينة في المنطقة، اشهرها برقة وبشير وجرذقيل واتيل وعلوس[٢٨٠] ، وباز الحمراء[٢٨١] وانبح[٢٨٢] واروخ وباخوخا وبرخو وكنكور[٢٨٣].

---

(٢٧٦) الكامل ١١-٦.

(٢٧٧) الكامل ١١-٥-٦ ، الباهر ص ٦٤.

(٢٧٨) المصدر السابق ١١-٥-٦.

(٢٧٩) المصدر السابق ١١-٦.

(٢٨٠) الباهر ، ص ٦٤ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨-١٩٠.

(٢٨١) ياقوت : معجم البلدان-٦٣٥.

(٢٨٢) المصدر السابق ٢-٩٥٧.

(٢٨٣) المصدر السابق ١-٤٦٦.

وخوشب[٢٨٤] والهيثم وشاروا[٢٨٥]. إلا ان ايا من هذه المواقع لم يكن يداني في اهميته حصن فنك الذي اتخذه البشنوية مركزا رئيسيا لهم، لما كان يتمتع به من حصانة لم تتح لامراء جزيرة ابن عمر القريبة منه السيطرة عليه. (ويطل الحصن على نهر دجلة، وله سرب إلى عين ماء لايمكن ان يحال بينه وبينها)[٢٨٦]. وقد امتاز سكانه بالمروءة والعصبية، وحماية من يلتجىء اليهم وتقديم ما يحتاج اليه[٢٨٧].

ولم تورد المصادر عن التاريخ السياسي لهذه الطائفة سوى روايات متفرقة، غير مترابطة، لا تكفي لتوضيح تنظيمهم وتطور امارتهم. منها ما ذكره ابن الاثير – في احداث عام ٣٨٠هـ – من ان باذ بن دوستك الكردي – مؤسس الامارة المروانية في ديار بكر – سعى في ذلك العام إلى حشد انصاره من الاكراد ضد الحمدانيين في الموصل (فاكثر من اطاعه الاكراد البشنوية اصحاب قلعة فنك، وكانوا كثيرين، وفي ذلك قال الشاعر الحسين البشنوي لبني مروان، يعتد عليهم بنجدتهم خالهم (باذ) بقصيدة مطلعها :

البشـــــنوية انصـــــار لـــــدولتكم ولـيس فـي ذا خفـافي العجـم والعـرب

كانت بلاد البشنوية تابعة لباذ بن دوستك. وقد اناب عنه في حكمها ابن اخته حسين بن مروان. فلما اندحر خاله امام الحمدانيين عام (٣٨٠هـ). تزعم الاكراد بنفسه، وتمكن من الاستيلاء على مناطق واسعة من ديار بكر، بعد الهزيمة التي الحقها بالحمدانيين في نفس العام، ومن ثم اعاد بناء الدولة المروانية هناك[٢٨٨].

ورواية أخرى يذكرها ابن الاثير في احداث عام (٤٣٣هـ)، اوضح فيها كيف ان الغز فارقوا اذربيجان في ذلك العام، فرارا من السلاجقة. واتجهوا غربا، وكيف ان بعض الاكراد دلوهم على الطريق. وساروا بهم مجتازين مناطق جبلية وعرة عبر اراضي الزوزان، وانتهوا إلى جزيرة ابن عمر، وكيف ان قسما من الغز انطلق من هناك إلى ديار بكر للنهب والسلب، بينما بقي القسم الاخر قريبا من الجزيرة، بقيادة منصور بن غز غلي الذي تلقى رسالة من سليمان بن نصر الدولة المرواني يعرض عليه فيها الصلح، ويطلب منه البقاء في مكانه لحين خروج

---

(٢٨٤) المصدر السابق ١–٣٧١.

(٢٨٥) المصدر السابق ٤–٣١٢.

(٢٨٦) المصدر السابق ٢–٩٥٧.

(٢٨٧) الباهر ، ص ٦٣.

(٢٨٨) المصدر السابق ، ص ٧٣ وينقل عنه ابو شامة : الروضتين ١–١٠٥.

الشتاء، كي يتجها سوية، مع سائر الغز المتفرقين في البلاد، صوب الشام للاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من بلادها. وقد استجاب قائد الغز لهذا العرض وعقد تحالفا مع الامير المرواني، إلا ان الاخير اضمر الغدر به، وسرعان ما تمكن من القبض عليه، الامر الذي دفع اصحابه إلى التفرق في كل مكان. ولما علم قرواش العقيلي، امير الموصل، بتفرق الغز، سير جيشا كبيرا لقتالهم، انضم اليه الاكراد البشنوية، اصحاب فنك، وقوات سليمان المرواني، وبداوا بملاحقة الغز الذين وجدوا انفسهم ازاء عدو يفوقهم بكثير. فاضطروا إلى طلب الامان. لكنهم لم يجابوا اليه، ومن ثم التقى الطرفان في معركة طاحنة اسفرت عن هزيمة الحلفاء وانسحاب قرواش العقيلي إلى الموصل خوفا من احتمال مهاجمتها خلال غيابه عنها[٢٨٩].

وفي عام (٥٠٩هـ) اشترك البشنوية، مع عدد من الطوائف الكردية القاطنة شمالي الموصل، كالهكارية والمهرانية، في اثارة الفتن والاضطرابات. تلك التي تصدى لها الامير جيوش بك والي الموصل السلجوقي (٥٠٧-٥١٤هـ) وتمكن من القضاء عليها، واعادة الامن والاستقرار إلى المنطقة، بعد ان تولى امر مطاردة الفسدين بنفسه، واستولى على عدد من قلاعهم[٢٩٠].

لم يبق امام زنكي من حصون الاكراد المهمة شمالي الموصل سوى حصن فنك وعدد من الحصون البشنوية المجاورة التي كانت تخضع لهذه الطائفة الكردية منذ اكثر من ثلاثة قرون، وكان اميرها يومئذ حسام الدين البشنوي[٢٩١] وقد اضطر زنكي إلى تاخير مهاجمته حصن فنك بسبب ما كان يتمتع به من حصانة، ولم يسع لذلك إلا بعد ان تمت له السيطرة على معظم الحصون الكردية في المنطقة، حيث وجه اهتمامه اليه عملا بخطته التي اختطها وهي (ان لا يكون وسط بلاده ماهو ملك لغيره)[٢٩٢].

قام زنكي – قبل مهاجمة فنك – بمحاولة عزلها عما يحيط بها من مواقع وحصون، وتمكن من الاستيلاء على عدد من القلاع المجاورة كالهيثم وشاروا وغيرهما[٢٩٣]، وفي عام (٥٤١هـ) اتيحت له الفرصة لتوجيه ضربته ضد اخر الحصون المستقلة في المنطقة، فاوعز إلى

---

(٢٨٩) معجم البلدان ٣-٩٣٠ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٢٧٤.

(٢٩٠) الكامل ٩-٢٦.

(٢٩١) المصدر السابق ٩-٢٦-٢٨ ، الفارقي : تاريخ آمد (القسم المنشور) ، ص ٥٩-٦٠.

(٢٩٢) المصدر السابق ٩-١٤٥.

(٢٩٣) الكامل ١٠-٢٣٠.

قائده زين الدين علي كجك بالتوجه على راس قوة عسكرية للاستيلاء على حصن فنك. فنظم هذا القائد جيشا كبيرا من الفرسان والرجالة، انطلق بهم نحو فنك، وفرض حصاره عليها، إلا ان اصحابها صمدوا للحصار معتمدين على حصانة موقعهم، ومساربه الخفية التي كانت تضمن لهم الماء والاقوات. ولم يطل حصار زين الدين لفنك، اذ سرعان مابلغه نبا اغتيال سيده زنكي خلال حصاره قلعة جعبر في نفس العام، فاضطر إلى فك الحصار والانسحاب إلى الموصل(٢٩٤).

تلك هي الجماعات الكردية التي هاجم زنكي مواقعها، واستطاع ان يضع يده على معظم ممتلكاتها وقواعدها المهمة، ويخضعها لسيطرته، في اقل من عقد ونصف، بفضل مقدرته العسكرية، وخططه السياسية البارعة التي اتاحت له التغلب على مصاعب القتال في المناطق الجبلية الوعرة، وسط فئات لا تدين له بالولاء. وقد تمكن بذلك من تامين احدى الجهات الهامة لامارته، بعد ان كانت تشكل نقاط خطر عليه، وان يجعلها تستند إلى خطوط دفاعية يصعب اختراقها، تحقيقا لخطته في بناء السياج الذي صمم على بنائه حول امارته عندما قال يوما (ان البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول)(٢٩٥).

---

(٢٩٤) الباهر ، ص ٧٣ ، الكامل ١١-٤٤ ، مفرج الكروب ١-٩٨.

(٢٩٥) الكامل ١١-٤٤.

الفصل السادس

عماد الدين زنكي وحكام دمشق

بدأ زنكي عام (٥٢٤هـ) تنفيذ خططه للاستيلاء على دمشق والمواقع المجاورة في قلب بلاد الشام، والتي كانت تخضع جميعا لامارة ال طغتكين الذين ورثوا حكم هذه المنطقة الحيوية عن سلاجقة الشام[٢٩٦]. وقد ادرك زنكي ان تسديد ضربة حاسمة لدمشق لن يتاتى دون الاستيلاء على المدن والمواقع المحيطة بها وبخاصة مدينتي حماة وحمص الواقعتين على الطريق الرئيسي إلى دمشق، اذ ان السيطرة عليهما تمنحه قواعد استراتيجية هامة، ومراكز للتموين، لا يمكن الاستغناء عنها عند القيام بهجوم ضد دمشق، أو فرض حصار عليها.

سعى زنكي إلى استخدام الطرق والمناورات السلمية للاستيلاء على هاتين المدينتين دون اللجوء إلى اساليب العنف والقتال، فاتجه إلى حماة التي كان يحكمها سونج بن بوري بن طغتكين حاكم دمشق، نيابة عن أبيه، وارسل إلى بوري – من هناك – يستنجده على قتال الصليبيين (واظهر العزم على الجهاد)، فاجابه الاخير إلى طلبه، وارسل إلى ابنه سونج يامره بالخروج على راس جيشه لنجدة زنكي، كما ارسل من دمشق قوة من الفرسان – بلغت الخمسمائة – بقيادة عدد من الامراء[٢٩٧].

ما ان وصل سونج وقواته إلى معسكر زنكي حتى دبر هذا حيلة أخرى انتهت بالقاء القبض عليه وعلى عدد من امرائه وقادته، وارسالهم مخفورين إلى حلب حيث اعتقلوا في قلعتها، ثم تقدم مسرعا إلى حماة منتهزا فرصة عدم وجود حامية تدافع عنها، فاستولى عليها دون مقاومة تذكر، في الرابع عشر من شوال، وسلمها – خدعة منه – لحليفه خيرخان بن قراجا صاحب حمص الذي كان يرافقه في عملياته في المنطقة تقربا منه، وتخلصا من خطره على ممتلكاته. إلا ان زنكي سرعان ما القى القبض عليه، اسوة بامير حماة، ثم اسرع في مهاجمة حمص علها تلقى نفس المصير الذي لقيته حماة، وتسلم قيادها اليه دون لجوء إلى القتال. إلا ان اهالي

---

(٢٩٦) الباهر ، ص ٧٣.

(٢٩٧) الكامل ١١–٤٤ ، الباهر ، ص ٧٣ ، الروضتين ١–١٠٥. الباهر ، ص ٧٩ ، وينقل عنه ابو شامة: الروضتين ١–١١١ وابن واصل : مفرج الكروب ١–١٠٣.

حمص قاتلوا ببسالة كبيرة، اضطرت زنكي – اخيرا – إلى فك الحصار والعودة إلى حلب[٢٩٨]. حيث ارسل من هناك كلا من خيرخان وسونج وامرائه لكي يعتقلوا في الموصل. ثم ما لبث بوري ان اخذ يراسل زنكي ملتمسا اطلاق سراح ابنه، واخيرا تمت موافقة امير الموصل على اعادة المعتقلين إلى دمشق مقابل تسليمه دبيسا بن صدقه – امير الحلة – الذي كان محتجزا انذاك في دمشق[٢٩٩]. اما خيرخان فقد بقي في السجن حتى مقتله عام (٥٢٩هـ)[٣٠٠].

ما لبث زنكي ان قام – في العام التالي – بهجومه الثاني على حمص، لكنه جوبه بنفس المقاومة الشديدة، فاثر الانسحاب انتظارا لفرصة مواتية أخرى[٣٠١] ، وفي السنة التالية توفي بوري حاكم دمشق، فاعقبه في الحكم ابنه اسماعيل الذي كان اكثر طموحا واندفاعا من أبيه، فعزم على مهاجمة حماة، وتمكن من استردادها في شوال عام (٥٢٧هـ)، بعد ان ابدت حاميتها مقاومة عنيفة[٣٠٢].

كان زنكي – خلال هذه الفترة – منهمكا بمشاكله مع الخلافة العباسية والسلاجقة، وكان قد اوقف خططه التوسعية في الشام لكي يتفرغ لتلك المشاكل، الامر الذي اضطره إلى عدم القيام بعمل سريع ضد اسماعيل اثر استرداده حماة. إلا ان الاخير سرعان ماتبع سياسة ظالمة ازاء اهالي دمشق وامرائها، فتألب عليه الجميع. واذ ادرك اصرار زنكي على مهاجمة دمشق، وصعوبة الصمود بوجهه والنقمة تحيطه من كل مكان، قرر القيام بمناورة استهدف من ورائها كسب زنكي إلى جانبه ضد خصومه الدمشقيين، فكاتبه – عام ٥٢٩هـ – يطلب منه القدوم إلى دمشق لتسليمها اياه طوعا، وشرط عليه – لقاء ذلك – ان يمكنه من الانتقام

---

(٢٩٨) كانت امارتهم تضم – فضلا عن دمشق وحماه– عددا من المواقع المنتشرة في قلب الشام كبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وغيرها .

(٢٩٩) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧–٢٢٨ ، الكامل ١٠–٢٥١ ، زبدة الحلب ٢–٢٤٥–٢٤٦ ، مفرج الكروب ١–٤١–٤٢.

(٣٠٠) المصادر السابقة ، نفس الصفحات ، وابو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ٥–٨ ، ابن الوردي ، تاريخ ٢–٣٥. ويجعل كل من ابن الاثير وابي الفدا وابن الوردي هذه الاحداث عام ٥٢٣هـ ، بينما يجعلها كل من ابن القلانسي وابن العديم وابن واصل عام ٥٢٤. ورأي الأخيرين ارجح ، لان معلوماتهم عن احداث الشام في هذه الفترة اكثر دقة من غيرهم .

(٣٠١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠–٢٣١ ، المنتظم ١٠–٢٠ ، الكامل ١٠–٢٥٤–٢٥٥ ، وينفرد الباهر – ص ٤٦– بان زنكي هدد بوري بمحاصرة دمشق ، ان لم يسلمه دبيسا ، فاجابه بوري الى طلبه. وهو خبر ضعيف ، ومبالغ فيه كعادة ابن الاثير في (الباهر).

(٣٠٢) مفرج الكروب ١–٧١.

من خصومه، وابلغه انه ان لم يسرع بتلبية طلبه، قام باستدعاء الصليبيين وسلمهم دمشق (وكان اثم المسلمين في عنق زنكي) !! ثم مالبث اسماعيل ان شرع بنقل امواله وممتلكاته إلى صرخد، استعدادا لتسليم دمشق لامير الموصل. غير ان كبار امراء دمشق وقادتها اوضحوا لوالدته – ذات النفوذ الكبير في الامارة – العواقب الوخيمة التي ستجرها عليهم سياسة ابنها الرعناء، فاسرعت بتدبير قتله، واجلست مكانه في الحكم اخاه شهاب الدين محمود حيث بايعه الناس[٣٠٣].

كان زنكي قد سار مجدا لتسلم دمشق من اسماعيل، حسب الاتفاق الذي تم بينهما، وعندما بلغته انباء التغييرات التي جرت فيها، لم يقطع امله وواصل المسير حتى عسكر في منطقة العبيدية القريبة من دمشق، وارسل من هناك وفداً للتفاوض مع مسؤوليها حول شروط تسليم المدينة، اعتقادا منه بعدم قدرة الحكام الجدد على المقاومة. فاستقبل الوفد بحفاوة بالغة، واطلع على مدى التفاف الاهالي حول الحاكم الجديد، وعاد لكي يخبر زنكي بما استجد من اوضاع. إلا ان الاخير اصر على مهاجمة دمشق، فضرب الحصار عليها، وقام بشن هجماته على اطرافها، مما اضطر سكان هذه المناطق إلى الانسحاب إلى قلب المدينة والانضمام إلى المدافعين عنها[٣٠٤].

بذل الدمشقيون جهودا كبيرة للدفاع عن بلدهم، وقاموا بشن هجماتهم المضادة على معسكرات زنكي، وقد جاء هذا اثر اشتداد الغلاء في المنطقة، وانعدام الاقوات، وتسلل بعض جند زنكي إلى دمشق، ووصول رسول الخليفة المسترشد يامره بفك الحصار والتوجه على راس قواته إلى بغداد للعمل سوية ضد السلطان مسعود، وكان حكام دمشق قد بعثوا إلى الخليفة مبلغا قدره خمسون الف دينار وقالوا له (ادفع عنا زنكي، ونحن نحمل هذا في كل عام، فاجابهم إلى طلبهم)[٣٠٥]. وقد دفعت هذه الامور جميعا زنكي إلى طلب عقد الصلح بين الطرفين، وغادر دمشق في التاسع والعشرين من جمادي الاولى (٥٢٩هـ) متوجها إلى بلاده[٣٠٦]. وقد تمكن – لدى مروره بحماة – من مهاجمة المدينة والقاء القبض على واليها الدمشقي (شمس

---

(٣٠٣) المصدر السابق ١–٤٦.

(٣٠٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٨–٢٣٩ ، الكامل ١١–٣ ، ابن منقذ : الاعتبار ص ٩٧–٩٨ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨–١٤٥.

(٣٠٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٧–٢٤٨ ، الكامل ١١–٨–٩.

(٣٠٦) المصادر السابقة ، نفس الصفحات.

الخواص)، منتهزا فرصة تذمر اهالي حماة من معاملة موظفي ونواب هذا الوالي. واستطاع زنكي بذلك ان يعيد حماة إلى ممتلكاته دون عناء يذكر، ومن ثم عين عليها نائبا وغادرها متوجها إلى حلب[٣٠٧]. ثم ما لبث ان عاد لمهاجمة حمص في شوال من نفس العام، فاحرق زروعها وقاتلها، إلا ان هجومه هذا لم يحقق اية نتيجة، فغادر المنطقة في ذي القعدة متوجها إلى الموصل[٣٠٨].

غدت حمص، طيلة السنوات الثلاث التالية (٥٣٠-٥٣٢هـ)، الهدف الأول لزنكي، وشهد عام (٥٣٠) محاولة أخرى للاستيلاء عليها اشد عنفا من سابقاتها، حيث حاصرها نائب زنكي وضيق الخناق على اعمالها، وقطع التموين عنها، فاضطر صاحبها قريش بن خيرخان إلى مراسلة شهاب الدين محمود يلتمس منه ارسال من يراه كفؤا لتولي شؤون الحكم في حمص، على ان يعوضه عنها باحدى مدن امارته. فوافق حاكم دمشق على هذا العرض الذي يتيح له ضم مدينة كبيرة كحمص إلى امارته، وعين عليها احد امرائه، وكتب إلى نوابه في البلاد ان يسرعوا بارسال الميرة والاقوات اليها، وسرعان ماغدت حمص اشد قدرة على مجابهة الحصار الاقتصادي الذي فرضه زنكي عليها، واقدر على المقاومة والصمود من ذي قبل[٣٠٩].

استمرت قوات زنكي بقيادة سوار بن ايتكين، نائبه في حلب، على شن غاراتها على اطراف حمص، واستولت على مساحات واسعة من مزارعها وراحت تستثمرها لحسابها، إلا ان صمود الحمصيين، سيما بعد الاجراءات الاخيرة التي اتخذها حاكم دمشق، اضطرت سوار إلى طلب التفاوض، وانتهى الامر بعقد صلح بين الطرفين اتفقا فيه على عدم تعرض اي منهما للطرف الآخر[٣١٠]. غير ان زنكي لم يقر هذه الهدنة التي عقدها نائبه، وجدد الهجوم على حمص بنفسه في العام التالي (٥٣١هـ) ولكنها اصرت على المقاومة ولعب الحظ دوره هذه المرة في تحديها لارادة زنكي. اذ شهدت المنطقة تحالفا خطيرا بين زعماء الصليبيين، استهدف مباغته

---

(٣٠٧) المنتظم ١٠-٤٣.

(٣٠٨) ابن القلانسي ٢٤٧-٢٤٨ ، ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٩٩-١٠٠ ، ابن الجوزي : المنتظم ١٠-٤٣ ، الكامل ١١-٨-٩ ، ابن العديم : زبدة الحلب ٢-٢٥٥-٢٥٨ ، ابن واصل ١-٥٧- ٥٨. ويذكر S. Runciman : History of the Crusades 11 / 197 ان زنكي قام بزيارة رسمية لدمشق ، ولكن محمودا لم يثق به ليعيد الزيارة اليه ، فارسل اخاه نيابة عنه. وربما اخطا رنسمان فهم النصوص المتشابكة في هذا المجال التي اوردها كل من ابن الاثير وابن القلانسي وابن العديم ، والتي لم تشر مطلقا الى ان زنكي دخل دمشق بل اكتفى باستقدام اخ شهاب الدين محمود الى معسكره لعقد الصلح.

(٣٠٩) زبدة الحلب ٢-٢٥٩ ، ابن القلانسي ، ص ٢٤٨.

(٣١٠) زبدة الحلب ٢-٢٥٩.

زنكي والقضاء على نفوذه في الشام[٣١١]. فاضطر إلى ايقاف هجومه على حمص، وعقد هدنة مع حكام دمشق[٣١٢] كي يتفرغ لحشود الاعداء.

اشتبك زنكي مع الصليبيين بالقرب من بعرين وانتصر عليهم[٣١٣]. وتهيات الفرصة ثانية لمهاجمة ممتلكات ال طغتكين وتوحيد بلاد الشام لمجابهة الخطر الصليبي، فتوجه في مطلع العام التالي (٥٣٢هـ) إلى حماة، حيث جمع قواته ونظمها، وبدأ بمهاجمة بعلبك هذه المرة،لكنه ما لبث ان غادرها لقاء مبلغ من المال دفعه صاحبها اليه، واتجه إلى حصن المجدل فاستولى عليه دون مقاومة تذكر، واذ ذاك شعر ابراهيم بن طرغت صاحب بانياس بضعف مركزه تجاه زنكي فراسله واعلن دخوله في طاعته. وعندما دخل الشتاء واشتد البرد، اوقف زنكي نشاطه في المنطقة[٣١٤].

ومع بوادر الربيع انطلق على راس قواته صوب حمص وفرض الحصار عليها. كان مركزه في المنطقة قد بلغ درجة كبيرة من القوة اتاح لنفسه معها ان ينقض الهدنة التي عقدها مع حكام دمشق في العام الماضي. كما انه، باستيلائه على حصن المجدل، وفرض طاعته على صاحبي بعلبك وبانياس، تمكن من السيطرة على معظم المواقع الغربية لامارة آل طغتكين، ولم يبق امامه، لاتخاذ طريقه صوب دمشق، سوى مدينة حمص.

شدد زنكي النكير على حمص، وجمع عليها جموعا كبيرة من مقاتلي التركمان، واستقدم من حلب فرقة عسكرية متمرسة على اساليب الحصار، وقام بشن هجماته على انحاء المدينة، مستخدما هذه المرة مزيدا من اساليب العنف والارهاب. ومرة أخرى يقف الحظ السيء بوجه زنكي، فيضطره تهديد امبراطور الروم لمتتلكاته في الشمال إلى فك الحصار والتوجه لمجابهة اخطار التحالف البيزنكي – الصليبي، وقد تمكن في فترة قصيرة من القضاء على هذا التحالف الذي انتهى بانسحاب امبراطور الروم إلى بلاده[٣١٥].

---

(٣١١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٢ ، الكامل ١١-١٥-١٦.

(٣١٢) المصدران السابقان ، نفس الصفحات.

(٣١٣) العظيمي ، تاريخ ، مخطوطة ، ورقة ٢١١ ، وزبدة الحلب ٢-٢٦١-٢٦٢ وانظر فصل (زنكي والصليبيون).

(٣١٤) المصدران السابقان ، نفس الصفحات ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٢.

(٣١٥) انظر فصل (زنكي والصليبيون).

عاد زنكي إلى حصار حمص من جديد، محاولا هذه المرة استخدام الاساليب السلمية لتحقيق هدفه، مستغلا مركزه القوي في المنطقة اثر الانتصارات الحاسمة التي حققها ضد الصليبيين والبيزنطيين، فتقدم طالبا يد زمرد خاتون والدة شهاب الدين محمود حاكم دمشق، لعله يضمن الحصول على حمص عن طريق هذا الزواج السياسي. فاجيب إلى طلبه بعد مفاوضات قصيرة، وتمت اجراءات العقد في السابع عشر من رمضان، بعد ان تمكن من اقناع آل طغتكين بتسليمه حمصا كجزء من الاتفاق، على ان يعوض نائبها بعدد من الحصون القريبة من دمشق كبعرين واللكمة والحصن الشرقي، كما اشترط عليهم تزويج ابنته من شهاب الدين محمود، مستهدفا – من وراء ذلك – اقامة علاقته بهذه العائلة الحاكمة على قواعد راسخة قد تفيده في المستقبل القريب[٣١٦].

لم يبق امام زنكي بعد هذه الانتصارات العسكرية والسياسية، سوى دمشق، المدينة الرئيسية التي لابد من حيازتها اذا ما اريد للشام ان يتوحد بوجه الخطر الصليبي. واغلب الظن ان زواجه بزمرد خاتون استهدف التمهيد لتحقيق هذا الهدف، لما كانت تتمتع به من نفوذ واسع في امارة آل طغتكين. لكنها ما ان غادرت دمشق حتى فقدت مكانتها وسطوتها هناك، حيث غدت الكلمة الاولى لشهاب الدين محمود ورجال حكومته. ولما لم يؤمل زنكي من وراء زوجته الجديدة خيرا، اعرض عنها[٣١٧]. لكن شهاب الدين محمود ما لبث ان قتل في شوال من العام التالي (٥٣٣هـ)، على ايدي رجالات حاشيته، فرجح في ظن زمرد خاتون – التي كانت مقيمة في حلب آنذاك – ان ما حدث انما هو بتدبير من الطامعين بالسلطة في دمشق ضد ابنها محمود، فحزنت عليه، وارسلت إلى زنكي في الموصل، تستدعيه طالبة الثار لولدها، مستعجلة اياه على الوصول إلى دمشق للاستيلاء عليها[٣١٨].

واغلب الظن ان معين الدين انر، كبير امراء دمشق، هو الذي تولى كبر الجريمة، اذ انه سرعان ما اتى بالاخ الاصغر محمد، صاحب بعلبك، واجلسه في دست الامارة، املا من وراء ذلك السيطرة عليه، والتفرد – باسمه – بالسلطة الفعلية في ادارة شؤون الامارة. ومما يرجح هذا

---

(٣١٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣ ، الكامل ١١–٢٣ ، العظيمي : مخطوطة ، ورقة ٢١١ ظ ، زبدة الحلب ٢٦٣–٢٦٤.

(٣١٧) المصادر السابقة ، نفس الصفحات ، وانظر فصل (زنكي والصليبيون).

(٣١٨) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٦–٢٦٧ ، الكامل ١١–٢٣ ، سبط بن الجوزي مرآة الزمان ٨–١٦٥ ، W. B. Stevenson : The Crusades in the East , p . 142..

الظن ان انر سرعان ما قام بابعاد الاخ الاخر بهرام شاه عن دمشق، رغم كونه اكبر عمرا واكثر ادراكا من محمد، وذلك تحسبا مما قد يقوم به بهرام شاه من كشف لاسرار المؤامرة التي اودت بالحاكم السابق، والتي تولى امر مهمة انجاحها، فراى ان ينفيه ليتخلص من الشبهات، والمنافسين في ان واحد. وقد اتجه بهرام إلى حلب ثم غادرها إلى الموصل حيث انضم إلى جبهة زنكي[٣١٩].

كان زنكي قد استحث قواته لمهاجمة دمشق قبل ان تستتب الامور فيها فيجابه بالتالي نفس العناء الذي جابهه في هجومه السابق، ولدى مروره بحماة جرد قوة من المشاة بلغت تسعة آلاف رجل[٣٢٠]، وما ان سمع الدمشقيون نبا زحفه حتى اخذوا يستعدون للدفاع، ويستكثرون من الذخائر (ولم يتركوا شيئا، مما يحتاجون اليه، إلا وبذلوا جهودا بالغة للحصول عليه)[٣٢١]. ولم يشأ زنكي – ازاء هذه الاستعدادات – ان يهاجم دمشق مباشرة، واثر ان تكون بعلبك هدفه الأول في هجومه هذا، وكانت هذه القلعة وما يحيط بها من بساتين ومزارع اقطاعا لمعين الدين انر، فشدد عليها الحصار، وتمكن بعد قتال حام من الاستيلاء عليها[٣٢٢]. واستطاع بذلك ان يتم ربط الطوق الذي ضربه حول دمشق بوضع قبضته على عدد من اهم المواقع المحيطة بها: بعلبك، حمص، حماة، بانياس، والمجدل، وان يمنعها من الاتصال ببقية اجزاء امارتها لطلب معونة عسكرية أو اقتصادية، الامر الذي سيضعف مقاومتها إلى حد كبير. وفضلا عن ذلك قام زنكي بجهود ديبلوماسية لتقوية مركزه، اذ راسل (رضوان)، الوزير الفاطمي الذي كان قد لجا إلى دمشق، واغراه بالانضمام إلى جبهته، وتم الاتفاق بين الطرفين. إلا ان انر ادرك ما وراء هذا التحالف من اخطار، سيما وان زنكي يقف على ابواب دمشق، فارسل فارس بني شيزر المشهور اسامة ابن منقذ سفيرا إلى رضوان واستطاع ان يقنعه بالعدول عن ذلك بعد ان بذل له الاموال[٣٢٣].

---

(٣١٩) الكامل ١١–٢٣ ، ابن العبري : مختصر ، ص ٢٠٦ ، مفرج الكروب ١–٧٧.

(٣٢٠) زبدة الحلب ٢–٢٧٢.

(٣٢١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٨–٢٦٩ ، الكامل ١١–٢٨–٢٩.

(٣٢٢) مفرج الكروب ١–٨٤.

(٣٢٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٩–٢٧٠.

بقي زنكي في بعلبك إلى ربيع الأول (من عام ٥٣٤هـ)، واعاد خلال ذلك تنظيم امورها، واصلاح ما افسدته الحرب[٣٢٤] ، ثم عين نجم الدين ايوب واليا عليها، واتخذ طريقه إلى دمشق، فعسكر في البقاع، وارسل إلى جمال الدين محمد يبذل له اي بلد يقترحه مقابل التنازل عن دمشق. إلا ان الاخير ورجال حكومته وعلى راسهم انر رفضوا الطلب، فاضطر زنكي إلى التقدم صوب دمشق وفرض الحصار عليها. وفي الثالث عشر من ربيع الأول حدث اللقاء الأول لطلائع الجيشين وانتهى بهزيمة الدمشقيين، بعد ان خلفوا وراءهم عددا كبيرا من الاسرى والقتلى. وعندما تقدمت القوات المهاجمة خطوات إلى الامام، جوبهت ثانية بحشد كبير من جند دمشق وشرطتها واحداثها[٣٢٥] ، لكنها لم تلق صعوبة تذكر في اكتساحه وقتل واسر وجرح عدد كبير من افراده. وحينذاك انهارت معنويات المدافعين عن دمشق واوشكت مدينتهم على الاستسلام، لولا ان اوقف زنكي عملياته الحربية عشرة ايام[٣٢٦]. مؤملا من وراء ذلك استمالة اهالي دمشق، ودخول المدينة سلما، دونما اضطرار إلى اراقة مزيد من الدماء. وكي يحيط رغبته السلمية هذه بالضمانات امر قاضيه كمال الدين الشهرزوري بمكاتبة جماعة من مقدمي جند دمشق وشرطتها، واستمالتهم، واغرائهم بالهدايا والاموال، من اجل ان يتخلوا عن المقاومة ويفسحوا الطريق امام زنكي لدخول دمشق. وسرعان ما استجاب للقاضي عدد كبير من سكان دمشق وقادتها، وعرضوا القيام بمحاولة لتسليم بلدهم من الداخل، إلا ان زنكي رفض ذلك تحسبا لما قد ينجم عن هذا الاسلوب من مخاطر قد تحل بقواته[٣٢٧].

تابع زنكي مراسلة امير دمشق، باذلا له التنازل عما يشاء من المدن والحصون، لقاء تسليمه دمشق، معتقدا أن سيطرته على الموقف، وتضييقه الشديد على المدينة، سوف يدفعان اميرها إلى قبول عرضه هذه المرة. وقد مال جمال الدين محمد فعلا إلى التسليم، لما في ذلك (من

---

(٣٢٤) المصدر السابق ، نفس الصفحات ، الكامل ١١-٢٨-٢٩ ، اما الباهر ، ص (٥٨-٥٩) فيقدم معلومات يسودها الاضطراب والاخطاء.

(٣٢٥) للاطلاع على تفاصيل المحاولة وما دار من مناقشات ، انظر : ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٣٠-٣١.

(٣٢٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠ ، الكامل ١١-٣٠.

(٣٢٧) الاحداث : هم جماعات مسلحة من اهالي المدن ، عظم شأنهم في بلاد الشام في عهد الحروب الصليبية ، وبخاصة دمشق وحلب ، واصبحوا ذوي الكلمة الاولى في الدغاع عن دمشق في عهد آل طغتكين ، كما اصبح لهم مسؤول يدعى (رئيس الاحداث) او (رئيس البلد) يقر اختياره حاكم المدينة:
C. Cahen : Mouvements populaires et Antonomisme urbaine dans I, Aise Musulmane du Moyen Age, pp. 11-13

الصلاح وحقن الدماء)، إلا ان رجال حكومته، وعلى راسهم انر، الحاكم الفعلي في دمشق، منعوه من الاستجابة لمطالب زنكي، فوجد هذا نفسه مضطرا لاعادة القتال[٣٢٨].

وفي الثامن من شعبان توفي جمال الدين محمد، ربما مقتولا بايدي جماعة أنر خوفا من الاستجابة لعروض عدوهم. وقد وجد زنكي في هذه الحادثة فرصة مواتية لتوجيه ضربته الحاسمة ضد دمشق، إلا ان انر اسرع بتنصيب مجير الدين ابق بن محمد اميرا على دمشق، واعاد تنظيم الدفاع ضد هجمات زنكي، واخذ يشن بدوره هجمات مضادة اضطرت الاخير إلى التراجع قليلا (وقد ضعفت نفسه وضاق صدره) بعد ما راى من اصرار مسؤولي دمشق على المقاومة مهما كلف الامر. ولكنه استمر في حصاره، مؤملا انهيار الحالة الاقتصادية في دمشق ومن ثم انهيار مقاومتها. ولما راى انر عزم غريمه على الاستمرار في الحصار امن بضرورة التحالف مع الصليبيين لارغامه على الانسحاب. فارسل بعثة إلى القدس التقت بملك الصليبيين وكبار امرائهم، وطلبت منهم تقديم مساعدتهم لدمشق ضد زنكي، مقابل مبلغ من المال، فضلا عن قيام انر بالاستيلاء على بانياس وتسليمها اليهم، وخوّفتهم البعثة من ان سيطرة زنكي على دمشق تعني ان مقدّرات الشام قد اصبحت بيديه، وان قواعد الصليبيين في المنطقة سوف تتعرض لخطر ماحق[٣٢٩].

اجتمع (فولك)، ملك بيت المقدس، بمجلسه الاستشاري، وتمت الموافقة بالاجماع على عقد تحالف مع دمشق ضد زنكي، وتحرك الصليبيون بقيادة ملكهم نفسه صوب الشمال. باثين امامهم العيون والجواسيس للتعرف على خطط عدوهم[٣٣٠]. وما ان علم زنكي بما يبيت له حتى ادرك ان استمراره في حصار دمشق سوف يضعه بين شقي الرحى. واسرع لمجابهة الصليبيين قبل اقترابهم من دمشق، كي يتصدى لكل قوة على انفراد. فغادر المنطقة في مطلع رمضان (٥٣٤هـ) صوب اقليم حوران في الجنوب. وعسكر هناك بانتظار قدوم الصليبيين الذين فضلوا ايقاف زحفهم عند طبرية خوفا من الاصطدام بزنكي. فرأى هذا – وقد اطمان من جهتهم – ان يعود مسرعا إلى دمشق لحصارها من جديد، لكنه سرعان ما اضطر إلى الانسحاب ثانية صوب حمص، بسبب تقدم القوات الصليبية لنجدة حليفهم في دمشق[٣٣١].

---

(٣٢٨) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧١ ، الكامل ١١–٣٠ ، مفرج الكروب ١–٨٧.

(٣٢٩) الباهر ، ص ٥٨–٥٩ ، نقل عنه ابو شامة : الروضتين ١–٨٥–٨٦.

(٣٣٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٢ ، الكامل ١١–٣٠.

(331) (Runciman : The Crusades , 11/227-228 , Setton : A History of the Crusades, Vol. I, S. V. Zengi and the Fall of Edessa, by H.A.R Gibb, pp. 459-460.

استغل انر وحلفاؤه الفرصة واتجهوا إلى بانياس في محاولة للاستيلاء عليها تنفيذا لما تم الاتفاق عليه في مفاوضات بيت المقدس. وما ان سمع زنكي بذلك حتى غادر على جناح السرعة إلى بعلبك استعدادا للدفاع عنها في حالة مهاجمتها، والقيام بمحاولة لانقاذ بانياس التي كان صاحبها قد دخل تحت طاعته. وبينما كان منهمكا بارسال قواده لاستدعاء التركمان المقاتلين من اماكنهم المتفرقة في المنطقة، انقض انر وحلفاؤه على بانياس وتمكنوا من الاستيلاء عليها، حيث سلمت إلى الصليبيين حسب الاتفاق السابق. وكرد على ذلك وزع زنكي قواته المتبقية للقيام بهجمات تخريبية في المناطق المحيطة بدمشق، وما لبث ان جمع قواته ثانية ورحل بهم عائدا إلى حلب[٣٣٢]. خوفا من قدوم حملة بيزنطية لمساندة الصليبيين والدماشقة[٣٣٣].

وهكذا استطاع أنر، بتحالفه مع الصليبيين، ان يتخلص من أخطر وآخر محاولة جدية من زنكي للإستيلاء على دمشق، واتمام خطته بتوحيد الجبهة الإسلامية في الشام، إلا أن الاخير ظل – رغم ذلك – يفكر، طوال سنوات حكمه المتبقية، بتحقيق هدفه هذا.

ففي مطلع جمادي الاولى من عام (٥٤٠هـ) راجت شائعات تقول بان زنكي يعد العدة، ويتاهب للجهاد، وانه ربما استهدف دمشق. واكدت هذه الشائعات استكثاره من صنع المجانيق والمهمات الحربية وسائر مايحتاج اليه لمجابهة أية صعوبة[٣٣٤]. وبعد ثلاثة اشهر اتجه زنكي إلى حلب، في طريقه إلى دمشق فعلا، لكنه لم يلبث ان غير وجهته، بعد ان اكتشف – اثناء مروره بالرها – مؤامرة من سكانها الارمن لاعادتها للصليبيين[٣٣٥]. وارسل مجانيقه ومهماته الحربية إلى ناحيتي حمص وبعلبك[٣٣٦]، الامر الذي يؤكد استهدافه دمشق من وراء تلك التحركات، بسبب قرب هاتين المدينتين منها. ولكن اغتياله بعد عام واحد، عند اسوار جعبر، وضع حدا لخططه في قلب الشام.

---

(٣٣٢) المراجع السابقة ، نفس الصفحات.

(٣٣٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٢ ، الكامل ١١–٣٠ ، مفرج الكروب ١–٨٨.

(٣٣٤) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٢–٢٧٣ ، الكامل ١١–٣١ ، الباهر ٥٨–٥٩ ، زبدة الحلب ٢–٢٧٤–٢٧٥ ،

Runciman : Op . cit, 11/227-228, Gibb : Op. cit, 1/459-460.

(٣٣٥) R.H. Nicholson : Tancred, p. 443.

(٣٣٦) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٣ ، زبدة الحلب ٢–٢٨١.

الفصل السابع

عماد الدين زنكي والصليبيون

تمكن الصليبيون من الاستيلاء على اجزاء واسعة من بلاد الشام والجزيرة، في فترة قصيرة لا تزيد عن العقد (٤٨٩-٤٩٨هـ)، وانشاوا فيها اماراتهم الاربع : الرها، انطاكية، بيت المقدس، وطرابلس، التي سرعان ما اصبحت تشكل خطرا بالغا على بقية المواقع الاسلامية في المنطقة، واخذ ذلك الخطر يزداد يوما بعد يوم، بسبب ما كانت تعانيه القوى الاسلامية انذاك من ضعف وتنازع، فالخلافتان العباسية والفاطمية كانتا اضعف من ان تقفا بوجه هذا الزحف الجديد، اما السلاجقة فقد بددوا قواهم في الصراع على السلطة. ولم يبق لتحمل عبء القتال ضد الصليبيين سوى الامراء المحليين في الجزيرة والشام، لكن التنافس بين هؤلاء كان يعرقل – في كثير من الاحيان – نجاح اي مشروع لطرد الغزاة.

استغل الصليبيون هذا التدهور الشامل الذي لف العالم الإسلامي، وسعوا جاهدين إلى توسيع نفوذهم في المنطقة، وارغام سكانها على تنفيذ مطاليبهم، فكانت سراياهم – كما يقول ابن الاثير – تبلغ (آمد .. ونصيبين ورأس العين. واما الرقة وحران فكانتا تعيشان على الخوف من استضعاف الفرنج وهجماتهم. وانقطعت الطرق إلى دمشق، إلا على الرحبة – وبادية الشام – فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعبا ومشقة، ويخاطرون بالقرب من العرب باموالهم وانفسهم. ثم زاد الامر فجعلوا على كل بلد جاورهم خراجا واتاوة، ياخذونها منهم ليكفوا ايديهم عنهم.. واما حلب فانهم اخذوا مناصفة اعمالها، واما باقي بلاد الشام فكان حالها اشد من حال هذه البلاد، وكان ملوك المسلمين عاجزين عن نصرة دينهم[٣٣٧])(!)

وهكذا غدت الظروف السياسية والعسكرية في الجزيرة والشام تحتم ظهور امير قوي يتمكن من القضاء على تناحر الامراء المحليين، وتوحيد اماراتهم في جبهة اسلامية واحدة، بمقدورها التصدي للصليبيين. وقد قدر لعماد الدين زنكي ان يقوم بهذا الدور، بعد ان ولاه السلطان محمود السلجوقي حكم الموصل والجزيرة، وما يفتتحه من بلاد الشام، نظرا لقوة شخصيته، وشجاعته، ومواقفه السابقة في القتال ضد الصليبيين، عندما كان يعمل تحت امرة ولاة الموصل طيلة الفترة بين (٥٠٥ و٥١٤هـ)، حيث اشترك معهم في معظم حروبهم في هذا

---

(٣٣٧) Runciman : Op . cit., 11/239, Gibb : Op. cit., 1/462 .

المجال. وكانت اولى تلك المعارك التي خاضها إلى جانب هؤلاء الولاة، تلك التي قادها مودود بن التونتكين والي الموصل، بعد تلقيه امرا من السلطان محمد (عام ٥٠٥هـ) بمهاجمة الصليبيين في الشام. وقد استهدف الهجوم مدينة الرها، إلا ان صمودها للحصار اضطر مودود وقواته إلى مغادرتها إلى مواقع أخرى اسهل منالا. فمر على تل باشر وانتهى المطاف به عند معرة النعمان حيث فرض عليها الحصار. وهناك انضم اليه بعض الامراء المحليين في المنطقة، وعلى راسهم طغتكين حاكم دمشق. إلا ان مراسلة الاخير للصليبيين – سرا – لطلب الصلح، ادى إلى اخفاق حملة المسلمين في الاستيلاء على المعرة، والى انفضاض معظم امرائها بالتالي، (فلما راى مودود تفرق العساكر وصلح طغتكين للفرنج، ضعفت نفسه، وعاد عنهم. ولم يكن في عسكره من ظهر اسمه غير زنكي)[٣٣٨].

وبعد اقل من عامين شارك زنكي في الهجوم الذي شنه في فلسطين كل من مودود وطغتكين اثر التحالف الذي عقداه فيما بينهما لهذا الغرض. وقد استمرت المعارك بين المسلمين والصليبيين اسابيع طوالا دون نتيجة حاسمة وعندما حل البرد والشتاء ارتاى الحليفان ان يعودا إلى دمشق ريثما ياتي الربيع، وقد اظهر زنكي خلال المعارك الانفة شجاعة فائقة (لم يسمع بمثلها)[٣٣٩].

لم يلبث مودود ان اغتيل على ايدي الباطنية، في جامع دمشق خلال العام نفسه. فقام السلطان محمد – اثر ذلك – بتجهيز الامير اق سنقر البرسقي بالعساكر وتسييره لقتال الصليبيين، واصدر امره إلى قوات الموصل بمرافقته في حملته تلك، فكان زنكي من ابرز المنضمين اليه، وكان (قد ظهر عنه من الشجاعة ما لا يوصف، لا سيما بعد ما فعله بطبرية)[٣٤٠]. وقد استهدفت الرها مرة أخرى، إلا ان قدرتها الدفاعية ارغمت القائد الجديد، كما ارغمت سلفه من قبل، على التخلي عن فكرة الاستيلاء عليها، فرحل إلى سميساط، وقام – من هناك – بمهاجمة وتخريب عدد من المواقع الصليبية ثم قفل عائدا إلى بغداد[٣٤١] ، (وابلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا، وعادت العساكر تتحدث بما فعله، وما ظهر له من الشجاعة)[٣٤٢].

---

(٣٣٨) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢ ، زبدة الحلب ٢–٢٨١.

(٣٣٩) الباهر ، ص ٣٢–٣٣ وينقل عنه : ابو شامة : الروضتين ١–٧٦–٧٧.

(٣٤٠) الباهر ، ص ١٧–١٨.

(٣٤١) المصدر السابق ، ص ١٨–١٩.

(٣٤٢) الباهر ، ص ١٩.

لعبت مواقف زنكي هذه عبر جولات الصراع ضد الصليبيين دورا كبيرا في مستقبله السياسي، اذ كانت على راس الاسباب التي دفعت السلطان محمد السلجوقي إلى توليته الموصل والجزيرة، اثر وفاة واليها عام (٥٢١)، بعد ان اصبح لديه الاقتناع الكافي بانه ليس ثمة من يسند هذا الثغر الهام غير عماد الدين، الامر الذي دفعه إلى ان يمنحه منشورا اضافيا بحكم ما يفتتحه من بلاد الشام. مما يؤكد حرص السلطان على الاستفادة من قدرات هذا الامير إلى اخر مدى ضد الخطر الجاثم على حدود العراق الغربية[٣٤٣]. وقد جاءت هذه التولية نصرا هاما للمسلمين في صراعهم ضد اعدائهم. ذلك ان طغتكين – حاكم دمشق – ما لبث ان توفي في العام التالي، وكان يعتبر من اشد امراء الشام حرصا على التصدي للهجمات الصليبية (فبعد وفاته خلت البلاد بالمرة .. ولطف الله سبحانه وتعالى وولي زنكي)[٣٤٤].

لم يشأ زنكي الاشتباك مع الصليبيين منذ البداية، وراى ان يسعى اولا إلى تثبيت امارته الجديدة، وتعزيز امكانياتها الاقتصادية والعسكرية، وتوحيد ما يمكن توحيده من الإمارات الصغيرة المتناثرة التي تحيط بها من كل مكان. وتشكل عوائق امام اية خطة يستهدف من ورائها اعلان الجهاد العام ضد الصليبيين، اذ كانت المصالح الخاصة لامرائها، والمنافسات المستمرة فيما بينهم، تمنع تشكيل حلف متماسك ضد الاعداء، كما كان هؤلاء الامراء – من جهة أخرى – يشكلون خطرا مباشرا على زنكي في حالة تقدمه لقتال اولئك الغزاة، اذ ستظل خطوط رجعته – آنذاك – غير مامونة، فضلا عن امكان تعرضه لمجابهة محالفات بين بعض هؤلاء الامراء والصليبيين، قد تعيقه عن تنفيذ مشاريعه واسترداد ما استولوا عليه. ومن ثم قام بمراسلة جوسلين امير الرها، وعقد معه هدنة مؤقتة[٣٤٥] (يعلم انه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشامية والجزرية، واصلاح شانها، والفراغ من اقطاع بلادها لجند يختبرهم، ويعرف نصحهم وشجاعتهم)[٣٤٦]. ولم تشر المصادر إلى شروط هذه الهدنة التي كان امدها سنتين[٣٤٧]،

---

(٣٤٣) نفسه ، ص ١٩–٢٠.

(٣٤٤) نفسه ، ص ١٩–٢٠.

(٣٤٥) انظر الفصل الاول.

(٣٤٦) الباهر ، ص ٣٨.

(٣٤٧) الكامل ١٠–٢٤٧ ، الباهر ، ص ٣٧ ، مفرج الكروب ١–٣٦.

Lane - Pool: Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 49, Geousset: Croisades, Vol. 1., pp. 667-668 .

إلا ان ابن الاثير يذكر انها تمت على ما اختاره زنكي[٣٤٨]. ويبدو ان المشاكل التي جابهت جوسلين اضطرته إلى قبول هدنة لصالح غريمه المسلم.

كان هدف زنكي الأول، اثر عقده الهدنة، هو الاستيلاء على حلب واتخاذها نقطة انطلاق له في بلاد الشام[٣٤٩] ، وعندما دخلها في العام التالي، لقي ترحيبا بالغا من اهاليها، وخرجوا لاستقباله في تظاهرة عبروا خلالها عن فرحهم وسرورهم بالامير الذي جاء لتخليصهم من تهديد الصليبيين الدائم لهم، ومما كانوا يقومون به من تخريب لاحد له، على مدى المناطق الزراعية المحيطة بمدينتهم[٣٥٠]. وانطلق زنكي بعد ذلك لاكتساح ما كان يقف في طريقه من حصون مستقلة وامارات محلية، منتهزا فرصة هدنته مع جوسلين، ساعيا إلى توسيع حدود امارته في شتى الاتجاهات.

ووافق عام (٥٢٤هـ) ان اجتازت انطاكية الصليبية ظروفا صعبة كادت ان تنتهي بسقوط هذه الامارة في يد زنكي، أو بخضوعها لطاعته على الاقل. ذلك ان اميرها (بوهيمند الثاني) قتل هذا العام على ايدي سلاجقة اسيا الصغرى، فخلفته في الحكم زوجته (اليس) ابنة (بلدوين) ملك بيت المقدس. وعندما استنجد الانطاكيون بابيها، واتجه لانهاء المشاكل هناك، اسرعت ابنته وبعثت رسولا إلى زنكي تعرض عليه اعلان طاعتها له مقابل اقرارها كاميرة على انطاكية. لكن الرسول ما لبث ان قتل على يد بلدوين، الذي عثر عليه اثناء توجهه إلى انطاكية. إلا ان ملك بيت المقدس ما ان وصل إلى هناك حتى قامت ابنته باقفال الابواب في وجهه، ثم ما لبثت ان اعلنت – مضطرة – خضوعها له[٣٥١]. وهكذا خسر زنكي فرصة ثمينة لا تعوض، كانت ستتيح له – بلا شك – السيطرة على اهم امارات الصليبيين في الشمال.

لكن ما حققه من نصر في العام نفسه، عوضه عن هذه الخسارة، ذلك انه كان قد انهى آنذاك معظم مشاكله وحروبه ضد امراء ديار بكر[٣٥٢]. كما كانت هدنته مع جوسلين قد انتهت، فقرر البدء بالهجوم على المواقع الصليبية، مستهدفا اشدها قربا وخطرا على كيانه السياسي في حلب، ولم يكن غير حصن الاثارب المجاور هو ذلك الهدف، بسبب ما كان يلحقه

---

(٣٤٨) الباهر ، ص ٣٧.

(٣٤٩) Runciman : A History of the Ceusades, 11/182.

(٣٥٠) الباهر ، ص ٣٧.

(٣٥١) نفسه ، ص ٣٧.

(٣٥٢) الكامل ١٠–٢٤٨ ، الباهر ٣٢–٣٤ ، ٣٧–٣٨ ، زبدة الحلب ٢–٢٢٥–٢٣٤.

من اضرار بفلاحي المنطقة من المسلمين، وكان من فيه من الصليبيين يقاسمون سكان حلب كافة اعمالها الغربية، ويقومون بغارات مستمرة عليهم، وقد جمعوا فيه خيرة فرسانهم، نظرا لخطورة موقعه واهميته بالنسبة لاهدافهم في المنطقة[٣٥٣].

اتجه زنكي إلى هذا الحصن وفرض الحصار عليه، فلما علم صليبيو الشام بذلك، حشدوا قواتهم من كل مكان، وشكلوا جيشا ضخما اتجهوا به لقتال زنكي، فاستشار هذا اصحابه وقادته فيما يعمل، فاجمعوا امرهم على الانسحاب، وترك الحصن، لان لقاء الصليبيين في بلادهم مجازفة وخيمة العاقبة. إلا انه اجابهم : (ان الفرنج متى راونا قد عدنا من بين ايديهم، طمعوا وساروا في اثرنا، وخربوا بلادنا، ولا بد من لقائهم على كل حال)[٣٥٤]. ومن ثم سار بجيشه للقائهم بعيدا عن الاثارب، وجرت بين الطرفين معركة قاسية انتهت بانتصار المسلمين وقتل واسر عدد كبير من الصليبيين. ثم ما لبث زنكي ان اتجه إلى الحصن وفتحه عنوة، وقتل واسر معظم افراد حاميته، ثم امر بتخريبه[٣٥٥] ، كيلا يكون عرضة لتهديد مستمر من قبل الصليبيين، وتقدم من هناك إلى حارم الواقعة على طريق انطاكية، وضرب عليها الحصار، فبذل له اهلها نصف دخل بلدهم، والتمسوا مهادنته، فاجابهم إلى ذلك، وقفل عائدا إلى حلب[٣٥٦]. وقد اشار ابن الاثير إلى نتيجة من اهم نتائج معركة الاثارب، وهي ان الاحداث في الشام اخذت تتجه اتجاها جديدا لصالح المسلمين، الامر الذي جعل الصليبيين يدركون ان عليهم مجابهة قوة جديدة لم تكن في حسابهم، ويحولون خططهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع، بعد ان كانوا (قد طمعوا في ملك الجميع)[٣٥٧]!!

انشغل زنكي، طيلة السنوات الاربع التالية (٥٢٥-٥٢٨هـ) بتنظيم شؤون امارته وتوسيعها، ولم يستطع ان يوجه اهتمامه إلى الصليبيين رغم المنازعات التي نشبت بينهم اثر وفاة (بلدوين الثاني) امير انطاكية عام ٥٢٥[٣٥٨]. وفي عام (٥٢٩) اتيحت له الفرصة ثانية لتحقيق

---

(٣٥٣) Runciman : Op cit., 11/182-184, W.B. Stevenson : The Crusaders in the East, p. 129.

(٣٥٤) الباهر ، ص ٣٩.

(٣٥٥) الكامل ١٠-٢٥٢ ، الباهر ، ص ٣٩.

(٣٥٦) الكامل ١٠-٢٥٢-٢٥٣ ، الباهر ، ص ٣٩-٤٢.

(٣٥٧) المصدران السابقان ، نفس الصفحات ،
Crousset: Op. cit., 1/675-676, Stevenson: Op. cit., p. 129 .

(٣٥٨) المصادر السابقة ، نفس الصفحات.

انتصارات جديدة في بلاد الشام، حيث قام بمهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب، والتي كانت تهددها باستمرار، فضلا عن كونها الخط الدفاعي الذي يحمي انطاكية من هجمات المسلمين، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها : الاثارب[٣٥٩] زردنا، تل اغدي، معرة النعمان، وكفر طاب[٣٦٠].

أدت هذه الانتصارات التي حققها زنكي ضد الصليبيين إلى تنبيههم إلى تزايد خطره على ممتلكاتهم في الشام، والى ضرورة توجيه ضربة حاسمة اليه، وراحوا يتحينون الفرصة المواتية لانزال هذه الضربة. وبعد عامين وحينما كان منهمكا في حصاره لحمص، قاموا بحشد كبير تقدموا به مسرعين لمباغته زنكي والقضاء عليه، وكسب حكام دمشق إلى جانبهم. وعندما سمع بذلك سار للقائهم بعيدا عن حمص كيلا يوقع نفسه في شقي الرحى بينهم وبين الحمصيين، وراى أن خير وسيلة يستدرج بها الصليبيين اليه، وتتيح له، في نفس الوقت، تولى زمام المبادرة بنفسه، هو ان يظهر عزمه على مهاجمة حصن بعرين الصليبي القريب. وما ان بدا زحفه صوب ذلك الموقع حتى تقدم اليه الصليبيون بقيادة كل من فولك ملك بيت المقدس وريموند كونت طرابلس. ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، وقتل واسر عدد كبير من جند العدو وامرائه وقادته، كان ريموند من بينهم، اما فولك فقد تمكن من الهروب إلى حصن بعرين[٣٦١].

ما لبث زنكي ان تقدم نحو الحصن وفرض عليه حصارا شديدا. بينما اتجه عدد من المنهزمين من المعركة إلى بلاد البيزنطيين واوربا طالبين النجدة من ابناء العالم المسيحي وامرائه، قائلين لهم ان زنكي، اذا ما تمكن من الاستيلاء على بعرين، سهلت عليه السيطرة على

---

(٣٥٩) الكامل ١٠-٢٥٣.

(٣٦٠) Runciman: op. cit., 11/193-194, Stevenson: Op. cit., pp. 129-130.
Grousset: Op. cit., 1/676
السيد الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ١-٥٠٢-٥٠٣.

(٣٦١) مر ذكر استيلاء زنكي على الاثارب وتخريبه عام ٥٢٤ هـ، ولم تشر المصادر الى ظروف عودته الى الصليبيين ثانية. وهذه الرواية تثير الشك فيما اورده ابن الاثير ، والذين نقلوا عنه ، كابن واصل ، من ان زنكي فتح الحصن وخربه عام ٥٢٤هـ. فهل ان ما اورده ابن العديم هنا (زبدة الحلب ٢-٢٥٩) يشير الى ان الحصن فتح لاول مرة عام ٥٢٩هـ ، وان ابن الاثير اخطا في تحديد التاريخ ؟ ام ان صاحب الزبدة حشر اسم الاثارب بين اسماء الحصون المجاورة الاخرى التي فتحها زنكي هذا العام ؟ (انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ١-٥٦٨ ، ٥٧٢ ، Grousset: Op. Cit., 11/193-194)

بقية الممتلكات الصليبية في الشام، لعدم وجود من يدافع عنها (وان المسلمين لهم نية في قصد بيت المقدس). فجمع المسيحيون جيشا كبيرا من الصليبيين والبيزنطيين، وساروا لنجدة الحصن. إلا ان زنكي كان قد عزله عن العالم الخارجي، ومنع عنه تسلل الاخبار، كما ان تشديده الحصار على هذا الموقع الهام ادى إلى تناقص الميرة والذخيرة فيه، الامر الذي اضطر اصحابه إلى طلب الصلح. فاجابهم زنكي اليه، بعد ان علم بتقدم الاعداء لنجدته، واشترط عليهم، فضلا عن تسليم الحصن، تقديم مبلغ قدره خمسون الف دينار يستعين به على نشاطه العسكري، فلم يتردد اصحاب الحصن في قبول مطالب زنكي، بعد ان ايقنوا بعجزهم عن مقاومته، والتمسوا منه اطلاق سراح امرائهم وكبار اسراهم، فاطلقهم، بعد ان عاملهم معاملة حسنة، وتسلم الحصن[٣٦٢].

بعد ان اخفقت حملة الروم والصليبيين التي قادها الامبراطور البيزنكي (حنا كومنين)، في انقاذ بعرين، سعت إلى محاولة استغلال الفرصة والاستيلاء على عدد من المواقع الاسلامية في الجهات الشمالية من الشام[٣٦٣]. وتم عقد اتفاق بين الامبراطور وريموند امير انطاكية، كان من ابرز بنوده انه اذا ما استولى المتحالفون على حلب وما يحيط بها من حصون، فان ريموند يقوم بالتنازل عن انطاكية للامبراطور البيزنكي، ويتخذ لنفسه، عوضا عن ذلك، امارة صليبية جديدة تضم حلب وشيزر وحماة وحمص[٣٦٤]. وقد قام ريموند – كتاكيد لهذا الاتفاق – باعلان تبعيته للامبراطور، بعد حصوله على موافقة فولك، ملك بيت المقدس، على ذلك، اذ اعتقد الاخير بان مصلحة صليبيي الشام تقتضي استمالة البيزنطيين، والافادة من قواهم الكبيرة ضد المسلمين وبخاصة زنكي[٣٦٥].

---

(٣٦٢) زبدة الحلب ٢–٢٥٩.

Stevenson: Op. Cit., pp. 129-130. Runciman: op. cit., 11/197, K.M. Setton: A History of the Crusades, Vol, S.V. Zengi and the Fall of Edessa. by: H.A.R. Gibb, pp. 457-458.

(٣٦٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٨–٢٥٩ ، الكامل ١١–٢١–٢٢ ، الباهر ، ص ٥٩–٦١ (ويخطىء المصدر الاخير بجعله هذه الحادثة عام ٥٣٤ ، كعادته في عدم ضبط التواريخ ، والاصح عام ٥٣١هـ ، على ما اجمعت عليه المصادر) ، وقد نقل عنه هذه الرواية ابو شامة : الروضتين ١–٨٧–٨٨ ، Runciman: Op. cit., 11/203-205. Gibb: Op. cit., p. 458. Setton: A History of the Crusades. Vol. I.S.V. The Grouth of the Latin = States, by: R.L. Nishoison, pp. 438.

(٣٦٤) المصادر السابقة ، نفس الصفحات.

(٣٦٥) الباهر ، ص ٦٢ ، الروضتين ١–٨٩ ، ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٢.

ولكي يغطي الامبراطور حنا كومنين على اهدافه سعى إلى خداع زنكي، الذي كان معسكرا انذاك بين حمص وحماة، بان ارسل اليه رسولا ليقدم له بعض الهدايا، وليخبره بعدم تعرض الامبراطور لامارته[٣٦٦] ثم ما لبث الاخير ان اصدر اوامره بالقاء القبض على جميع المسافرين القادمين من حلب والقرى المجاورة صوب الغرب، كيلا تصل انباء تحركات قوات المتحالفين إلى زنكي[٣٦٧]. ومن ثم تقدم الامبراطور، يصحبه اميرا الرها وانطاكية، وبداوا بمهاجمة حصن بزاعة القريب من حلب وتمكنوا من الاستيلاء عليه[٣٦٨]. وقد استطاع بعض اهاليه ان يفروا إلى حلب، حيث انذروا المسؤولين فيها عن قرب الخطر، فقام هؤلاء بتعزيز التحصينات الدفاعية، وارسلوا إلى زنكي يطلبون نجدة مستعجلة، فامدهم بقوة من الفرسان، كان لدخولها حلب تاثير كبير على رفع معنويات ابنائها. وما ان وصل المتحالفون إلى حلب وفرضوا الحصار عليها، حتى ادركوا مدى مناعتها وقدرتها الكبيرة على المقاومة، هذا إلى ان الحلبيين اخذوا يقومون بهجمات سريعة على معسكرات الاعداء ادخلت الرعب وعدم الاستقرار في نفوسهم، فاثروا الانسحاب. ولما علم جند الاثارب بذلك، خافوا من توجه المتحالفين اليهم، فاحرقوا خزائن القلعة وانسحبوا، وقام الامبراطور – اثر ذلك – بارسال بعض قواته إلى هذا الموقع، فتمكنت من الاستيلاء عليه. اما هو فقد تقدم على راس القسم الاكبر من جنده إلى معرة النعمان واستولى عليها، وتوجه من هناك إلى شيزر، وفرض الحصار عليها، ساعيا بذلك إلى وضع يده على موقع هام يمنح الغزاة السيطرة على وادي نهر العاصي، ويقف سدا امام مطامح واهداف زنكي البعيدة في المنطقة[٣٦٩].

استنجد سلطان بن علي الكناني، صاحب شيزر، بزنكي الذي كان منهمكا انذاك بمشاريعه الرامية إلى توحيد الجبهة الاسلامية في قلب بلاد الشام، فاتجه على راس قواته شمالا، وعسكر بالقرب من حماة (وكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر، بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود اخر

---

(٣٦٦) Runciiman: Op. cit., 11/213, Grousset : op. cit., 11/97, Nicholson op cit., p. 439.

(٣٦٧) Runciiman: Op. cit., 11/213, Nicholson : op. cit., p. 439

(٣٦٨) زبدة الحلب ٢-٢٦٣.

(٣٦٩) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٤ ، زبدة الحلب ٢-٢٦٤ ، Runciiman: Op. cit., 11/215

النهار)[٣٧٠]. كما سعى إلى خداع المتحالفين، اذ ارسل اليهم يقول (انكم قد تحصنتم بهذه الجبال – المحيطة بشيزر – فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي !! فان ظفرتم اخذتم شيزر وغيرها، وان ظفرنا بكم ارحت المسلمين من شركم. ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم، وانما كان يفعل هذا ترهيبا لهم)[٣٧١]!! وبهذا استغل زنكي مبادىء علم النفس الحربي، وعمل على تحطيم الروح المعنوية للصليبيين[٣٧٢]. وقد اشار هؤلاء على كومنين بلقاء عدوهم، فرفض الامبراطور ذلك، اعتقادا منه بأن زنكي لم يكن يظهر امامهم من عسكره سوى القليل، وان وراءه قوات ضخمة اتاحت له ان يتحداهم إلى اللقاء[٣٧٣].

استمر زنكي يطلق ما في جعبته من سهام الحيلة والدهاء لتفتيت هذا التحالف الخطير، فراح يراسل صليبيي الشام ويحذرهم من امبراطور الروم. ويعلمهم انه ان استولى على حصن واحد في الشام (اخذ البلاد التي بايديهم منهم)، ويراسل الامبراطور – من جهة أخرى – يتهدده ويوهمه ان الفرنج معه. فسادت الشكوك بين الطرفين المسيحيين[٣٧٤] ، سيما وان اميري الرها وانطاكية لم يسعيا إلى التعاون الجاد مع الامبراطور، فضلا عن اشتداد المنافسة فيما بينهم، وتخوف ريموند من انتصار الروم، وبالتالي تنفيذ الاتفاقية التي وقعها معهم، والتي تجعله يقف وجها لوجه امام قوات المسلمين بعيدا عن انطاكية. ولم يرغب امير الرها – هو الاخر – في ان يكون منافسه ريموند قريبا منه في حلب، في حالة انتصار المتحالفين وتنفيذ بنود الاتفاقية المعقودة بينهم، وقد عرقلت هذه العوامل جميعا توحيد الجهود لفتح شيزر[٣٧٥].

ولم يأل زنكي جهدا – من جهة أخرى – في طلب النجدات العسكرية من شتى انحاء العالم الإسلامي، فارسل إلى بغداد يلتمس نجدة السلطان مسعود السلجوقي[٣٧٦]. والى سلاجقة اسيا الصغرى يشير عليهم بالاغارة على المواقع البيزنطية هناك، كي يتحول اهتمامهم إلى تلك

---

(٣٧٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٥ ، تاريخ آمد وميا فارقين ، ورقة ١٢١أ ، المنتظم ١٠–٧٢ ، الكامل ١١–٢٣ ، الباهر ، ص ٥٥ ،
Gibb: Op. cit., pp. 458-459, Nicholson : Op. cit., p. 439.

(٣٧١) الكامل ١١–٢٣ ، الباهر ، ص ٥٥ ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٤ ،
Runciiman: Op. cit., 11/215, Gibb: Op. cit., 459., Nicholson: Op. cit., pp. 439-440.

(٣٧٢) الباهر ، ص ٥٥ ، الروضتين ١–٨١ ، مفرج الكروب ١–٧٩.

(٣٧٣) الكامل ١١–٢٣–٢٤ ، الباهر ، ص ٥٥–٥٦.

(٣٧٤) عاشور : الحركة الصليبية ١–٥٨٧.

(٣٧٥) الكامل ١١–٢٤ ، الباهر ، ص ٥٦.

(٣٧٦) الكامل ١١–٢٤ ، الباهر ، ص ٥٦ ، Runciiman: Op. cit., 11/216

الجهات[٣٧٧]. ووردت انباء تشير إلى ان امير حصن كيفا الارتقي ارسل ابنه على راس جيش كبير من التركمان[٣٧٨] ، وان قوات دمشق تحركت لمساعدة زنكي[٣٧٩].

ازاء هذا وذاك راى الامبراطور ان الانسحاب اصبح امرا محتما، فانهى حصاره لشيزر في التاسع من رمضان (٥٣٢هـ)، بعد ان عرض عليه اميرها مبلغا من المال، وهدايا قيمة، وضريبة سنوية كرمز لتبعيته[٣٨٠] ، وقاد القوات المسيحية المتنازعةفي طريق العودة إلى انطاكية. وحينذاك انقض زنكي على الاتهم الحربية الثقيلة (ومجانيقهم العظام)، فاستولى عليها، ورفعها إلى قلعة حلب[٣٨١] ، كما ارسل بعض جنده في اثار قوات العدو المنسحب، فقتلوا واسروا عددا كبيرا منهم[٣٨٢].

وفي انطاكية حدث خلاف جديد بين الامبراطور والصليبيين كاد ان ينتهي بفتنة واسعة بين الطرفين، لولا اسراع كومنين بالرجوع إلى بلاده[٣٨٣]. وهكذا يبدو واضحا ان اهم النتائج التي اسفرت عن فشل المسيحيين هذه، هي تدهور العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد نشاط زنكي في المنطقة في السنين التالية.

في الايام التي اعقبت انسحاب المتحالفين، استطاع صلاح الدين الياغسياني حاجب زنكي، ان يستولي على كفر طاب، بعد ان بلغه هروب الصليبيين منها[٣٨٤]. كما سار زنكي إلى حصن عرقة، فحاصره وفتحه عنوة، واسر من فيه من الصليبيين، ثم امر بتخريبه[٣٨٥]. وما لبث ان اتجه، في مطلع العام التالي (٥٣٣هـ) إلى حصن بزاعة، فاجتاحه عنوة وقتل معظم من فيه

---

(٣٧٧) ستيفن رنسيمان : محاضرات عن الحروب الصليبية ، ترجمة صالح احمد العلي ، ص ٢٣٥ ، Runciiman: Op. cit., 11/216

(٣٧٨) الكامل ١١-٢٤ ، الباهر ، ص ٦٢-٦٣.

(٣٧٩) العريني : الحروب الصليبية ١-٥١٥-٥١٦ ،

Runciiman: Op. cit., 11/216, Gibb: Op. cit., p. 459.

(٣٨٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٦ ، زبدة الحلب ٢-٢٦٨ ، Gibb: Op. cit., p. 459 .

(٣٨١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٦ ، Grousset: Op . cit., 11/99.

(٣٨٢) زبدة الحلب ٢-٢٦٨ ، الباهر ، ص ٥٦. Runciiman: Op. cit., 11/216-217.

(٣٨٣) زبدة الحلب ٢-٢٦٨ ، الباهر ، ص ٥٦.

(٣٨٤) الكامل ١١-٢٤ ، الباهر ، ص ٥٦.

(٣٨٥) زبدة الحلب ٢-٢٦٨ ، Runciiman: Op. cit., 11/217-218.

من قوات الصليبيين والروم، ثم حاصر الاثارب وتمكن من فتحها – في صفر – وقفل عائدا إلى الموصل[٣٨٦].

انهمك زنكي، في الفترة التالية، بالعمل على اتمام خطته بتوحيد الجبهة الاسلامية، كي يكون اكثر قدرة على مجابهة الصليبيين، وقام عام (٥٣٣) بعدة مناورات وعمليات عسكرية وسياسية، في بعض جهات الجزيرة، مستهدفا ضمها لامارته[٣٨٧]. ثم عاد ليستانف السعي من اجل تحقيق هذفه القديم بالاستيلاء على دمشق وتوحيد الجبهة الشامية. فاتجه اليها في اواخر العام نفسه، وفرض حصارا شديدا عليها كاد ان يسقطها في يديه، لولا استنجاد امرائها بصليبيي بيت المقدس، واستجابة هؤلاء لهم، رغبة منهم في القضاء على الخطر المشترك الذي يمثله وجود زنكي في المنطقة، الامر الذي اضطر الاخير إلى الانسحاب[٣٨٨].

وفي عام (٥٣٨هـ) اتيح لزنكي استغلال مركزه القوي في ديار بكر[٣٨٩] ، والقيام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية العائدة لامارة الرها الصليبية، والمنتشرة في المناطق القريبة من ماردين. كجملين والموزر[٣٩٠] ، وتل موزن، وغيرها من حصون اقليم شبختان[٣٩١]. وكان هدفه من وراء ذلك قطع الاتصال بين قرا ارسلان الارتقي، امير حصن كيفا، وبين جوسلين امير الرها، بسبب تحالفهما ضده[٣٩٢] وبذلك تمهد الطريق امامه لانزال ضربته المباشرة بالرها نفسها وتحقيق حلمه الذي طالما راود خياله عبر سني صراعه الطويل ضد الصليبيين.

كانت الرها من اهم المراكز الصليبية، باعتبارها قاعدة لاحدى اماراتهم الاربع في الشرق الإسلامي، ولقربها من العراق، وقوة تحصيناتها، وما كانت تسببه للمناطق الاسلامية المجاورة من اخطار لا تقف عند حد، (وهي من اعظم المدن عند النصارى، اذ كانت عين البلاد الجزرية، وحصن المنطقة، وانضاف اليها عدد من البلاد)، فاتسعت اراضيها، واشتدت وطاتها

---

(٣٨٦) زبدة الحلب ٢–٢٦٨ ، Gibb: Op. cit., p. 459

(٣٨٧) الباهر ، ص ٥٧ ، الروضتين ١–٨٤.

(٣٨٨) مفرج الكروب ١–٨٣، Gibb: Op. cit., p . 459.

(٣٨٩) انظر الفصل الرابع.

(٣٩٠) انظر الفصل السادس.

(٣٩١) انظر الفصل الرابع.

(٣٩٢) سماها ياقوت : الموزز (بالزاي) وذكر انها احدى اقاليم الجزيرة (معجم البلدان ، ٤–٦٧٩–٦٨٠) ، اما المصادر الاخرى فترسم حرفها الاخير بالراء. ويذكر ابن شداد انها وجملين قلعتان لهما عمل متسع بين بلاد ديار بكر وديار مضر ، على مسيرة يوم من حران : (حاشية زبدة الحلب ٢–٢٧٧).

على سكان المناطق المجاورة، (واصبحت غارات فرسانها تبلغ امد وماردين ونصيبين، وراس عين والرقة، واما حران فكانت في الخزي، كل يوم صبحوها بالغارة)[٣٩٣]. وكانت هذه الامارة الصليبية – فضلا عما سبق – تشكل عائقا يحول دون قيام زنكي بتوحيد الجبهة الاسلامية في الجزيرة وشمالي الشام، بسبب تدخلها المستمر لصالح اعدائه من امراء المسلمين في المنطقة، وتهديدها الدائم لخطوط المواصلات الاسلامية التي تربط بين الموصل وحلب من جهة، وبين بلاد فارس وسلاجقة اسيا الصغرى من جهة أخرى[٣٩٤].

لذلك راح زنكي يعد العدة للاستيلاء عليها، وتامين الاهداف الكبرى التي يتيحها اسقاط هذا الجدار، منتظرا سنوح الفرصة لتوجيه ضربته، ودخول المدينة التي كان ذكرها – كما يقول ابن القلانسي (جائلا في خلده، وامرها ماثلا في خاطره وقلبه)[٣٩٥] – وسرعان ماغدت ظروف الصليبيين في الشام – في اواخر الثلاثينات – ملائمة إلى حد كبير لقيامه بهذه الخطوة. اذ اشتد النزاع بين ريموند امير انطاكية، وجوسلين الثاني امير الرها، وانتهى الامر بمقاطعة احدهما للاخر، وعدم نجدته لصاحبه في حالة تعرض امارته لغزو خارجي، بل العكس، اصبح خطر كهذا مبعث ارتياح وتشفٍّ من قبل الآخر[٣٩٦]. ومما زاد امور الصليبيين سوءا، وفاة فولك، ملك بيت المقدس، ومجيء بلدوين الثالث إلى العرش، وهو حديث السن، ضعيف الشخصية، الامر الذي جعل الصليبيين لا يخضعون لارادة مدبرة تستطيع ان تنهي ما قام بين جوسلين وريموند من حقد ونزاع، وتسعى إلى توحيد قواهم ضد محاولات المسلمين الاستيلاء على ممتلكاتهم[٣٩٧]. ولم تكن ميلزاند، الوصية على بلدوين، بالتي تهتم بامر المصالح الصليبية العامة، بل اتصفت بتقلب الاهواء ونسج المؤامرات[٣٩٨] ، فضلا عن انشغالها بصد هجمات الدمشقيين[٣٩٩]. هذا إلى ان التحالف القديم بين الصليبيين والامبراطور البيزنكي كان قد انتهى عام (٥٣٧هـ). وحل محله

---

(٣٩٣) شبختان هو احد اقاليم ديار بكر ، عند منابع نهر الخابور : Gibb: Op. Cit., p. 461 ولم تحدد المصادر اسماء الحصون الصليبية الاخرى التي استولى عليها زنكي في هذا الاقليم.

(٣٩٤) Runciiman: Op. cit., 11/235, Gibb: Op. cit., pp. 460-461.

(٣٩٥) الكامل ١١–٤٠ ، الباهر ، ص ٦٦–٦٧.

(٣٩٦) Stevenson: Op. cit., 153.

(٣٩٧) ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩ ، وانظر : زبدة الحلب ٢–٢٧٨.

(٣٩٨) Runciiman: Op. cit., 11/234-235, 236.

(٣٩٩) عاشور : الحركة الصليبية ٢–٦٠٣–٦٠٤ ،

Grousset: Op. cit., 11/174-5.

عداء شداد، وحروب دائمة بين الطرفين، بسبب اطماعهما الدائمة[٤٠٠]. واخيرا جاءت وفاة الامبراطور حنا كومنين لكي تخلص زنكي من عدو خطر لدود[٤٠١].

وكانت ظروف الرها نفسها مساعدة هي الأخرى، اذ تميز اميرها جوسلين الثاني بضعف شخصيته. وانسياقه وراء العواطف والاهواء، وعدم امتلاكه دراية سياسية كافية[٤٠٢]. وكانت امه ارمينية، فنشا وفي نفسه ميل إلى الارمن وغيرهم من طوائف المسيحيين الشرقيين الذين كان يفضلهم على المسيحيين الغربيين الامر الذي سبب قلقا بين فرسانه الصليبيين، واوجد نوعا من عدم الاستقرار داخل الرها[٤٠٣]. هذا إلى ان موقع هذه الامارة كان ملائما لمهاجمة زنكي، بعد اذ احاط بها المسلمون من كل مكان، وفصلها الفرات عن بقية الإمارات الصليبية في الشام.

استغل زنكي هذه الظروف، وسعى إلى تدبير خدعة تتيح له تحقيق هدفه من اقصر طريق، وكان يعلم انه لن يستطيع ان ينال غرضه من الرها مادام جوسلين وقواته موجودين فيها، وهكذا انصب اهتمامه على ايجاد وسيلة تدفع غريمه إلى مغادرة مقر امارته. فاتجه إلى امد، واظهر انه يعتزم حصارها. وانها هدفه دون غيرها، وبث عيونه – في الوقت نفسه – في منطقة الرها ليطلعوه – اولا باول – على تحركات اميرها الذي ماان راى انهماك زنكي بحروبه في ديار بكر، وعدم تفرغه للهجوم على المواقع الصليبية، حتى غادر مقر امارته على رأس قواته[٤٠٤] ، بعد ان اتخذ اجراءا احتياطيا بان عقد هدنة مع قرا ارسلان صاحب حصن كيفا الذي كان قد التجا اليه بعد تهديد زنكي لامارته[٤٠٥]. ومن ثم اتجه إلى تل باشر الواقعة على الضفة الغربية للفرات، كي يتخلص – هناك – من كل مسؤولية، ويتفرغ لملذاته، تاركا حماية الرها لاهاليها من الارمن والسريان والنساطرة واليعاقبة، وكان معظمهم من التجار الذين لاخبرة لهم بشؤون الحرب والقتال، بينما تولى الجند المرتزقة مهمة الدفاع عن القلعة[٤٠٦].

---

(٤٠٠) Grousset: Op. cit., 11/174-175.

(٤٠١) Runciiman: Op. cit., 11/235.

(٤٠٢) Runciiman: Op. cit., 11/234.

(٤٠٣) Runciiman: Op. cit., 11/235.

(٤٠٤) العريني : الحروب الصليبية ١-٥٢٣-٥٢٤ ،
Grousset: Op. cit., 11/176.

(٤٠٥) عاشور : الحركة الصليبية ٣-٦٠٤ ، Grousset: Op. cit., 11/176

(٤٠٦) الكامل ١١-٤٠ ، الباهر ، ص ٦٧.

وجاءت عيون زنكي لتطلعه على النبأ الذي كان يتحرق شوقا اليه، فاسرع بالتوجه إلى الرها، مستعينا (على السرعة بركوب النجائب والابل)[٤٠٧] مستنفرا كل قادر على حمل السلاح من مسلمي المنطقة للجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله، وما لبث ان انهالت عليه جموع المتطوعين، فطوق بهم الرها من جهاتها الاربع. وحاول – في البدء – ان يتوسل بالطرق السامية علها تحقق هدفه دون اضطرار إلى رفع السيف، فراسل اهالي الرها باذلا لهم الامان، طالبا منهم ان يفتحوا له الابواب قبل ان يجد نفسه مضطرا إلى تدمير اسوار بلدهم، واخلاء دياره، إلا انهم ابوا قبول الامان[٤٠٨]. وحينئذ اشتد زنكي في التضييق على الحصن، مستخدما الات الحصار الضخمة التي جلبها معه لتدمير اسواره، قبل ان تتاح الفرصة لتجمع الصليبيين والتقدم لانقاذ هذا الموقع الخطير.

وارسل جوسلين – لدى سماعه نبأ الهجوم – في طلب نجدة مستعجلة من كافة الإمارات الصليبية في الشام، فلم يستجب له سوى (ميلزاند) الوصية على بيت المقدس، التي وصلت نجدتها بعد فوات الاوان[٤٠٩]. كما انه قام بمحاولة للدخول إلى المدينة، أو ارسال نجدة لتعزيز دفاعها، فحيل بينه وبين ذلك. وفي السادس والعشرين من جمادي الاخرة (٥٣٩هـ). وبعد مرور ثمان وعشرين يوما على بدء الحصار، انهارت بعض اجزاء الحصن، اثر الضرب المركز الشديد الذي تعرضت له، فاجتاحت قوات المسلمين المدينة[٤١٠]، ثم ما لبثت القلعة ان استسلمت بعد يومين، وقام القس اليعقوبي برصوما باجراءات تسليم الرها لزنكي[٤١١] الذي اصدر اوامره إلى جنده بايقاف اعمال القتل والاسر والسلب، واعادة ما استولوا عليه من سبي وغنائم، فاعيدوا (ولم يفقد إلا الشاذ النادر)[٤١٢]، واعقب ذلك باصدار امر اخر بالاسراع في تنظيم مااضطرب من امور الرها، وتعمير ما تهدم خلال اسابيع طويلة من القتال، و(رتب من رآه أهلا لتدبير امرها، وحفظها، والاجتهاد في مصالحها، ووعد اهلها باجمال السيرة، وبسط

---

(٤٠٧) Gibb: Op. cit., p. 460, Runciman : op. cit., 11/235.

(٤٠٨) Ibid: 11/235, Grousset: Op. cit., aa/177-168.

(٤٠٩) الباهر ، ص ٥٨ ، الروضتين ١–٩٥.

(٤١٠) الباهر ، ص ٦٩.

(٤١١) عاشور : الحركة الصليبية ٢–٦٠٥–٦٠٦.

(٤١٢) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩–٢٨٠ ، الكامل ٤٠–٤١ ، الباهر ، ص ٩٦.

Runciiman: Op. cit., 11/235-246, Cahen: La Syria du Nord, pp. 369-370, Gibb: Op. cit., 11/236.

العدالة)[٤١٣]. مستهدفا من وراء ذلك استمالة سكانها الاصليين من المسيحيين الشرقيين ضد الصليبيين الكاثوليك، الامر الذي يؤكده قيامه بتدمير عدد من الكنائس الكاثوليكية، واحتفاظه بكنائس الشرقيين[٤١٤].

حقق زنكي بفتح الرها اهم اعماله التي قام بها ضد الصليبيين طوال حكمه. وكانت لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والمسيحي[٤١٥]. كما كانت له نتائجه بالنسبة لزنكي وامارته. فاما فيما يتعلق بالمسلمين بصورة عامة، فقد اعطاهم سقوط اولى الإمارات الصليبية أملا جديداً[٤١٦]، وعد نصرا عظيما للاسلام (لم ينتفع المسلمون بمثله، وطار في الافاق ذكره، وصار حديث المحافل)[٤١٧] ، اذ انه اوضح مدى قدرة المسلمين على مجابهة القوى الصليبية، وانتزاع اقوى حصونهم منهم. كما ان هذا الانتصار مهد الطريق امام الذين اعقبوا زنكي لاكمال عمله، واسقاط بقية الإمارات الصليبية، واحدة تلو الأخرى. كما ادى إلى القضاء على الحواجز التي اقامها الصليبيون في هذه المنطقة، والتي اعاقت الاتصال بين سلاجقة آسيا الصغرى وسلاجقة العراق وبلاد فارس[٤١٨].

وأما فيما يتعلق بالعالم المسيحي، فقد اثار سقوط الرها مخاوف المؤسسات الصليبية في اوربا، ونبههم إلى خطورة الاوضاع في الجزيرة والشام، وتحولها إلى اتجاه مضاد لمصالحهم واهدافهم، لذلك نشطوا في الدعوة إلى حملة صليبية جديدة[٤١٩] ، وصلت الشام بعد مقتل زنكي وتولي ابنه نور الدين زعامة المسلمين في الشام، وعرفت بالحملة الصليبية الثانية، كما أن سقوط هذا الموقع الهام، دفع ريموند، امير انطاكية، إلى الاعتقاد بعدم قدرته على مجابهة زنكي بمفرده، والذهاب – بالتالي – إلى القسطينطينية لاعلان تبعيته للامبراطور البيزنكي (مانويل) الذي وعده بمساعدته ضد غريمه[٤٢٠].

---

(٤١٣) Runciiman: Op. cit., 11/236 .

(٤١٤) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩–٢٨٠ ، الكامل ١١–٤٠–٤١ ، الباهر ، ص ٦٨–٦٩.

(٤١٥) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٠.

(٤١٦) Runciiman: Op. cit., 11/236-237.

(٤١٧) Ibid: 11/237-238, Gibb: Op. cit., p. 461.

(٤١٨) Runciiman: Op. Cit, ll/238.

(٤١٩) الباهر ، ص ٦٩ Gibb : op. cit., 461.

(٤٢٠) Runciiman: Op. cit., 11/238.

فاذا ما انتقلنا إلى امارة زنكي وجدنا كيف كان لسقوط الرها دور كبير في تخليصها من مصدر قريب للخطر، كان يهدد المنطقة دوما بشن الغارات (فاصبح اهلها بعد الخوف امنين)[٤٢١]. كما ان هذا النصر مهد الطريق امام زنكي للاستيلاء على الحصون الصليبية المجاورة، وفرض سيطرته التامة على ممتلكات اعدائه في المنطقة.

وفوق هذا وذاك حقق فتح الرها نتائج هامة بالنسبة لزكي نفسه، اذ عزز مركزه تجاه السلطان السلجوقي، والخليفة العباسي الذي انعم عليه بعدد كبير من الالقاب الشرفية كالامير المظفر ركن الاسلام .. عمدة السلاطين .. زعيم جيوش المسلمين، ملك الامراء، امير العراقين والشام[٤٢٢]. كما ان هذا النصر جعل من زنكي امام المسلمين، والمدافع عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله[٤٢٣]. ودارت عن شخصه في المحافل احاديث شتى، تصور لنا – رغم ما فيها من مبالغة – مدى التقدير والاعجاب اللذين نالهما زنكي اثر تحقيقه هذا النصر الحاسم ضد الصليبيين. فقد ذكر والد المؤرخ المشهور ابن الاثير ان جماعة يطمان إلى صدقهم وصلاحهم حكوا له انهم راوا يوم فتح الرها الشيخ ابا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي – وكان من العلماء العاملين، الزاهدين في الدنيا – خارجا من زاويته تكسو وجهه علائم الاستبشار والسرور، وقال لهم ان بعض اخوانه حدثوه ان زنكي فتح مدينة الرها وانه شهد معه فتحها يومنا هذا، ثم قال : ما يضرك يازنكي بعد اليوم، وبقي يردد هذا القول مرارا، فضبطوا تاريخ ذلك اليوم فكان يوم الفتح !! ثم ان نفراً من الاجناد حضروا معه عند هذا الشيخ وقالوا له انهم منذ راوه يكبر على السور ايقنوا بالفتح، فانكر الشيخ حضوره فاقسموا انهم راوه عيانا[٤٢٤].

ويسرد لنا والد ابن الاثير رواية أخرى يقول فيها ان احد العلماء بالاخبار والانساب، المتضلعين فيها، حدثه انه كان لملك جزيرة صقلية الفرنجي عالم مسلم في افراد حاشيته، وكان يكرمه ويرجع إلى قوله ويفضله على من عنده من الرهبان والقسيسين. فلما حان الوقت الذي فتحت فيه الرها، سير هذا الملك حملة بحرية إلى شمالي افريقيا اغارت على بعض مناطقها ونهبت واسرت عددا من اهاليها وجندها، ولما جاءت اخبار الحملة إلى الملك – وهو في مجلسه – ايقظ الشيخ – الذي كان قد اخذته سنة من النوم – وقال له : يا فقيه قد فعل

---

(٤٢١) رنسمان محاضرات عن الحروب الصليبية ٢٠٣ ، Runciiman: Op. cit., 11/247

(٤٢٢) Runciiman: Op. cit., 11/238.

(٤٢٣) الباهر ، ص ٦٩ ، الروضتين ١–٩٧. Gibb: Op. cit., p. 461.

(٤٢٤) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤.

اصحابنا بالمسلمين كذا وكذا، اين كان محمد عن نصرهم ؟ اجاب الشيخ : قد حضر فتح الرها!! فتضاحك من عند الملك من الفرنج، إلا ان الملك قال لهم : لا تضحكوا، فوالله ماقال عن غير علم. ومن ثم اشتد هذا الامر على الملك، ولم يمض غير قليل حتى جاءهم الخبر بفتح الرها، فانساهم فرحتهم الاولى في افريقيا، لما كان للرها من منزلة عالية عند النصرانية. ويستمر والد ابن الاثير في حديثه عن هذه المناسبة فيقول ان غير واحد ممن يثق بهم حكوا له ان رجلا من الصالحين قال يوما : رايت الشهيد (زنكي) بعد قتله في المنام في احسن حال، فقلت له : مافعل الله بك ؟ فقال : غفر لي !! فقلت بماذا ؟ قال : بفتح الرها... [٤٢٥].

وبالرغم من أهمية الرها، وخطورة سقوطها على كيان الصليبيين في الشرق، إلا ان ايا منهم لم يقم بعمل سريع مباشر ضد زنكي بسبب تدهور اوضاعهم، اذ كان بلدوين الثالث، ملك بيت المقدس، لا يزال قاصرا تحت وصاية امه، وكان ريموند، امير انطاكية، اضعف من ان يقوم باجراء جاد ضد المسلمين[٤٢٦]. ومن ثم لم يستطع الصليبيون مجابهة المسلمين إلا بعد وصول الحملة الصليبية الثانية، واعلان ريمود تبعيته للامبراطور البيزنكي.

استغل زنكي فرصة سقوط الرها، واضطراب امور الصليبيين في المنطقة، واخذ يسعى إلى الاستيلاء على مراكزهم وحصونهم هناك، فاتجه إلى سروج التي تخلت حاميتها عنها مولية الفرار، واستولى عليها، وما لبثت الحصون المجاورة ان اخذت تسقط في يديه واحدة تلو الأخرى[٤٢٧] ، (وجعل لا يمر بعمل من اعمالها، ولا معقل من معاقلها، إلا سلم اليه في الحال)[٤٢٨]. ثم يمم وجهه صوب قلعة البيرة الحصينة المطلة على الفرات، وكانت من اهم الحصون التي تبقت لجوسلين الثاني، واشدها مناعة، ففرض الحصار عليها، وقطع عنها ما كان يصل اليها من (القوت والميرة والمعونة)، حتى اشرفت على الاستسلام. وحينذاك بلغ زنكي نبا مقتل نائبه في الموصل، فاضطر إلى فك الحصار والاسراع بالتوجه إلى مقر امارته لاقرار الاوضاع فيها، إلا ان صليبيي الحصن خافوا من مهاجمته اياهم ثانية، فارسلوا إلى حسام الدين تمرتاش الارتقي واعلموه برغبتهم في التنازل له عن موقعهم هذا، قبل ان يسقط بيد عدوهم

---

(٤٢٥) الكامل ١١-٤١ ، الباهر ، ص ٦٩-٧٠.

(٤٢٦) الباهر ، ص ٦٩-٧٠ ، الكامل ١١-٤٠-٤١ ، ابو شامة : الروضتين ١-٩٤-٩٧.

(٤٢٧) المصادر السابقة ، نفس الصفحات.

(٤٢٨) عاشور : الحركة الصليبية ٢-٦٠٨-٦٠٩.

اللدود[٤٢٩]. وهكذا فقد صليبيو الرها كافة حصونهم الواقعة شرقي الفرات[٤٣٠] ، كنتيجة مباشرة لسقوط القاعدة الام بيد زنكي، ولم يتبق لجوسلين من امارته الواسعة سوى عدد من الحصون المنتشرة غربي الفرات كتل باشر ومرعش ودلوك وسميساط وعينتاب وعزاز[٤٣١] ، استطاع نور الدين محمود – فيما بعد – اكتساحها جميعا، ومحو اولى الإمارات الصليبية من الوجود.

ما لبث سكان الرها من الارمن ان دبروا – في العام التالي – مؤامرة استهدفت الفتك بالمسلمين، واعادة المدينة إلى السيطرة الصليبية بعد القيام باستدعاء جوسلين. إلا ان زنكي سرعان ما تمكن من كشف هذه المحاولة الخطيرة، والقبض على مدبريها واعدامهم، ثم اعقب ذلك بنفي عدد من الارمن كيلا يتاح لهم مرة أخرى ان يسعوا إلى طعن المسلمين من الخلف، وتسليم اهم مواقعهم لقمة سائغة للغزاة الصليبيين[٤٣٢].

لم يقتصر زنكي، في قتاله للصليبيين، على الحروب النظامية فحسب، اذ كان ذلك يقتضي منه البقاء باستمرار في بلاد الشام، واستنفاد قواه في قتال اعدائه هؤلاء، وعدم تمكنه – بالتالي – من التفرغ لتصفية مشاكله العديدة في العراق والجزيرة، وادرك أهمية الاستفادة من الغارات، اي الهجوم والانسحاب السريع، سيما في فترات غيابه عن الشام، وذلك ان هذا النوع من القتال سيتيح له الحصول على نتائج هامة، اولها اقلاق الصليبيين وعدم اعطائهم المجال لاعادة تنظيم قواتهم، ورسم الخطط الهجومية على مواقع المسلمين في المنطقة، ومن ثم تمكين هؤلاء من الدفاع عن مراكزهم والاحتفاظ بها، وثانيها اضعاف قوى العدو العسكرية والاقتصادية، بما تحدثه – هذه الحروب – من قتل واسر ونهب وتخريب، وثالث تلك التائج قطع الاتصال بين المراكز الصليبية شمالي الشام، وعدم اعطائهم الفرصة للتجمع وتوجيه ضربة موحدة ضد المسلمين.

وقد اعتمد زنكي في هذا النوع من القتال على محاربي التركمان، ومهد لذلك بتوثيق علاقاته بقادتهم واسناد كبرى المناصب الحربية اليهم، ففي عام (٥٢٤هـ) وصل إلى حلب الامير مسعود سوار بن ايتكين، احد امراء التركمان المحاربين، وكان قبلئذ في خدمة امراء دمشق، إلا

---

(٤٢٩) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٠ ، الكامل ١١–٤١ ، الباهر ، ص ٦٩.
Gibb: Op. cit., 461 Runciiman: Op. cit., 11/237.

(٤٣٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٠.

(٤٣١) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ ، الكامل ١١–٤١–٤٢ ، الباهر ، ص ٧٠–٧١.

(٤٣٢) مفرج الكروب ١–٩٦.

ان تدهور العلاقة بينه وبينهم دفعه إلى مغادرة بلدهم والتوجه للعمل تحت امرة زنكي (فاكرمه – هذا – وشرفه، وخلع عليه، واجرى له الاقطاعات الكثيرة، واعطاه ولاية حلب واعمالها، واعتمد عليه في قتال الفرنج. وكانت له بصيرة بالحرب وتدبير الامور، كما كان ذا شجاعة واقدام)[٤٣٣]. وقد افاد زنكي من قائد اخر يدعى (لجة التركي) – الذي كان قد نزح كسلفه عن دمشق – وجعله احد قادته المعتمدين في قتال الصليبيين[٤٣٤]. وقام – فضلا عن ذلك – بنقل طائفة من محاربي التركمان، مع اميرهم (الياروق) إلى الشام واسكنهم منطقة حلب، بعد ان امرهم بجهاد الصليبيين، مانحا اياهم وعدا بتمليكهم كل ما استردوه من المواقع التي سيطر عليها الاعداء، (فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم، واخذوا كثيرا من سواد حلب، وسدوا ذلك الثغر العظيم)[٤٣٥].

وبذلك وفر زنكي القيادة الحاذقة، والمحاربين الشجعان، للقيام بشن ما يطلق عليه اليوم حروب المقاومة والعصابات، وجعل من حلب مركزا لهم نظرا لأهمية موقعها بالنسبة للحصون الصليبية والاسلامية على السواء ؛ فهي تتوسط انطاكية والرها الصليبيتين، وتسيطر على خطوط المواصلات بينهما، كما انها تعد قاعدة عسكرية لتوجيه الهجمات السريعة ضد مواقع وتحركات الصليبيين، وقوافل امدادهم وتموينهم.

وقد قامت هذه الجماعات من التركمان بشن غارات عديدة ضد جيوش الاعداء ومعسكراتهم، وقوافلهم ومراكز تجمعهم، ولم تخل سنة من سني الصراع بينهم وبين زنكي، من عدد من اعمال المقاومة وحروب العصابات كان يقوم بها هؤلاء التركمان، ويلحقون – بفضلها – خسائر مختلفة في صفوف اعدائهم. ففي رجب من عام (٥٢٤هـ) على سبيل المثال جهز زنكي قوة عسكرية اغارت على عزاز الصليبية وعاثت في بلاد جوسلين امير الرها[٤٣٦]. وفي العام التالي حدث اشتباك بين سوار وجوسلين، شمالي حلب، اسفر عن انتصار الصليبيين ومقتل عدد من المسلمين، مما دفع سوار إلى القيام بهجوم على ربض الاثارب، والاستيلاء على مقادير من امواله ومحاصيله[٤٣٧].

---

(٤٣٣) Grousset: Op. cit., 11/192.

(٤٣٤) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٢ ، زبدة الحلب ٢–٢٨١ ,Runciiman: Op. cit., 11/238-9

(٤٣٥) زبدة الحلب ٢–٢٤٥.

(٤٣٦) زبدة الحلب ٢–٢٤٥.

(٤٣٧) الباهر ، ص ٨٠ .

ثم ما لبث، بعد عام واحد (٥٢٦هـ) ان اوقع بصليبيي تل باشر، وقتل منهم خلقا كثيرا[٤٣٨].

لم يتوقف سوار وجنده التركمان عن شن الغارات ضد الصليبيين كلما اتيحت الفرصة لذلك، وشهد صفر من عام (٥٢٧) عدة اشتباكات بين الطرفين، وقع احدها بالقرب من قنسرين، اثر قيام بلدوين ملك بيت المقدس بمحاولة للهجوم على اطراف حلب، حيث تصدى له سوار، وجماعة من جنده، واسفر القتال عن هزيمة المسلمين وانسحابهم إلى حلب. إلا ان قائدهم الشجاع ما لبث ان خرج بهم ثانية (ووقع على طائفة منهم، فاوقع بهم واكثر القتل والاسر، وانهزم من سلم منهم إلى بلادهم). وعاد إلى حلب حاملا معه رؤوس القتلى والاسرى (وكانيوما مشهودا)[٤٣٩]. ولم تمض سوى ايام قلائل حتى قام صليبيو الرها بمحاولة جديدة للاغارة على اعمال حلب، فخرج اليهم سوار يصحبه الامير حسان البعلبكي امير منبج، واوقع بهم على حين غرة، وتمكن من ابادة عدد كبير منهم، واسر الباقين، ثم قفل عائدا إلى حلب دون ان يصاب احد من جنده باذى[٤٤٠]. وفي جمادي الاخرة من نفس العام قام سوار، على راس قوة من الفرسان، بالاغارة على تل باشر، فتصدى له صليبيو ذلك الموقع، إلا انه تمكن من هزيمتهم، وحصد رؤوس الف رجل، حملها معه إلى حلب[٤٤١].

وفي ربيع الأول من العام التالي سار صاحب موقع القدموس الصليبي إلى قنسرين، على راس قوة من فرسان انطاكية، فلقيهم عسكر حلب بقيادة سوار واسفر القتال عن انتصار الصليبيين واضطرار قائد زنكي إلى مصالحتهم،. إلا انه ما لبث ان باغت احدى سراياهم بهجوم سريع وتمكن من قتل معظم افرادها، ثم قفل عائدا إلى حلب (فسر الناس بذلك بعد مساءتهم). ولم يمض سوى وقت قصير حتى اغار فرسان الرها على اطراف حلب الشمالية في طريقهم إلى احدى المعسكرات الصليبية فاوقع بهم سوار وحليفه امير منبج، واباد عددا كبيرا منهم، بينما وقع معظم الباقين في الاسر[٤٤٢]. ثم ما لبث سوار ان قام – في نفس العام – بغارة واسعة على

---

(٤٣٨) مفرج الكروب ١-٤.

(٤٣٩) زبدة الحلب ٢-٢٤٧.

(٤٤٠) المصدر السابق ٢-٢٥١.

(٤٤١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٤٤٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٠-٢٤١ ، الكامل ١٠-٢٦١.

المواقع الصليبية في منطقة الجزر[٤٤٣] وزردنا، واوقع باعدائه عند حارم، ثم عاد إلى حلب محملا بالغنائم والاسلاب[٤٤٤].

أخذ نطاق الغارات والهجمات المفاجئة يتسع شيئا فشيئا، وشهد رجب من عام (٥٣٠هـ) محاولة واسعة قام بها سوار، اذ سار على راس ثلاثة الاف فارس من التركمان وفاجا بلاد اللاذقية واعمالها بهجوم مباغت لم يكن الصليبيون يحسبون له اي حساب، وتمكن بذلك من اسر سبعة الاف اسير، والحصول على مقادير كبيرة من الغنائم، واجتياح عشرات من القرى والمزارع الصليبية ملأ المسلمون ايديهم منها بالاسرى والغنائم. وقد استبشر مسلمو المنطقة ايما استبشار لهذا النصر الكبير الذي احرزه سوار، والذي كان بالنسبة لصليبيي الشمال (نكبة لم يمنوا بمثلها)[٤٤٥]. والواقع ان ما شهدته انطاكية، خلال عامي (٥٢٩ و٥٣٠هـ)، من فتن داخلية بسبب التنازع على الحكم. اسهم إلى حد كبير في عجز هذه الامارة عن الدفاع عن نفسها ازاء هجمات المسلمين[٤٤٦] الامر الذي دفع قائدهم إلى استغلال الفرصة وتحقيق نصر كبير ضد صليبيي الشمال.

وفي أواخر العام التالي قام سوار بهجوم مباغت ضد سرية بيزنطية كبيرة العدد، كانت تتقدم شرقا، وتمكن من قتل واسر عدد من افرادها ثم قفل عائدا إلى مقره في حلب[٤٤٧]. ولم تمض سوى اشهر معدودات على هذا الهجوم حتى قام الصليبيون والبيزنطيون بارسال قوات مشتركة لاحتلال قلعة الاثارب القريبة من حلب. وبعد ان حققت هذه القوات هدفها، اوكل اليها حراسة اسرى المسلمين الذين جمعوا في هذا الموقع. إلا ان سوار ما لبث ان خرج على راس قواته وهاجم الحامية الصليبية البيزنطية، وتمكن من استخلاص معظم اسرى المسلمين من ايديهم، وعاد بهم إلى حلب التي عمها السرور وسادتها الافراح لهذا النصر الذي حققه اميرها[٤٤٨].

---

(٤٤٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٣٦ ، الكامل ١١-٣.

(٤٤٤) زبدة الحلب ٢-٢٥٢ ، وانظر : Nicholson: Op. cit., p. 437.

(٤٤٥) الجزر : احدى كور حلب (ياقوت : معجم البلدان ٢-٧١) وانظر الخارطة رقم ٢.

(٤٤٦) زبدة الحلب ٢-٢٥٤. Nicholson: Op. cit., p. 437.

(٤٤٧) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٥-٢٥٦ ، الكامل ١١-١٦-١٧ ، زبدة الحلب ٢-٢٦٠-٢٦١.
Gibb: Op. cit., 458.

(٤٤٨) العريني : الحروب الصليبية ١- ٥١٠. Grousset: Op. cit., 11/65-66

وفي عام (٥٣٣هـ) هاجم سوار عددا من المواقع الصليبية واستولى على بعض الغنائم، إلا ان فرسان الصليبيين تمكنوا من اللحاق به وانزال هزيمة بقواته اسفرت عن اسر ما يزيد عن الف فارس منهم، وانسحب هو إلى حلب بمن سلم من جنده[٤٤٩].

استمرت المناوشات بين الطرفين طيلة السنين التالية، واصابها بعض الفتور خلال عامي (٥٣٤-٥٣٥هـ) اثر فشل زنكي في الاستيلاء على دمشق، وتحالف الصليبيين والدمشقيين ضده، إلا ان هذه المناوشات ما لبثت ان استعرت من جديد في عام (٥٣٦هـ) والسنين التي تلته. ففي الاشهر الاولى من هذا العام قام الصليبيون بهجوم سريع ضد بعض المواقع الاسلامية غربي حلب، ولدى تفرقهم، ارسل سوار قوة من التركمان بقيادة ابنه علم الدين، اغارت على المواقع الصليبية وتوغلت إلى اسوار انطاكية، ثم عادت تحمل معها كثيرا من الغنائم والاسلاب[٤٥٠]. وبعد فترة قصيرة اغار لجة التركي على بعض المناطق الصليبية في الشمال (فساق وسبي وقتل، وذكر ان عدد القتلى بلغ سبعمائة رجل)[٤٥١].

وفي رمضان من العام نفسه هاجم سوار معسكرا صليبيا عند جسر الحديد، إلى الشمال الشرقي من انطاكية، بعد ان اجتاز بقواته نهر العاصي صوب تجمعات العدو، وتمكن من قتل معظم افراد المعسكر، واسر الباقين[٤٥٢]. وما لبث امير انطاكية ان خرج – في العام التالي – للاغارة على وادي بزاعة القريب من حلب، فتصدى له سوار واجبره على الانسحاب. وانتهز جوسلين الفرصة فقام بهجوم على تجمعات المسلمين عند ضفاف الفرات، وتمكن من اسر تسعمائة رجل منهم. ثم ارتاى الطرفان عقد هدنة بينهما لم يكن لامير انطاكية نصيب فيها[٤٥٣]. وهكذا ظل القتال مستمرا بين هذه الامارة وقوات حلب، وعندما خرجت طائفة كبيرة من تجار انطاكية – في جمادي الاولى من عام ٥٣٨هـ – تحرسها قوة من الفرسان، في طريقها إلى بعض البلاد الصليبية المجاورة (ومعها مال كثير واموال ومتاع)، باغتها المسلمون، واوقعوا بها، وتمكنوا من ابادة كافة افراد القوة التي خرجت لحمايتها، وغنموا ما كانت تحمله من بضائع

---

(٤٤٩) العظيمي : تاريخ ، مخطوطة ، ورقة ٢١١ ظ ، زبدة الحلب ٢-٢٦٣.

(٤٥٠) العظيمي ، ورقة ٢١٢ ظ ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٥-٢٦٦ ، الكامل ١١-٢٣.

(٤٥١) زبدة الحلب ٢-٢٧١. Nicholson: Op. cit., p. 441

(٤٥٢) زبدة الحلب ٢-٢٧٥. Nicholson: Op. cit., p. 444

(٤٥٣) العظيمي : ورقة ٢١٥ ، زبدة الحلب ٢-٢٧٥. Nicholson: Op. cit., p. 444

قيمة[٤٥٤]. وفي اواخر ذي القعدة من العام نفسه هاجمت مجموعة من فرسان حلب قوة من الفرسان الصليبيين الخارجين من باسوطا وابادوهم، واسروا صاحب باسوطا حيث اعتقله سوار في حلب[٤٥٥].

***

وقد حان الوقت – قبل الانتقال إلى البحث عن حياة زنكي وشخصيته ونظمه العسكرية والادارية – لتحليل حصيلة الدور السياسي والعسكري الذي لعبه على مسرح التاريخ الإسلامي.

يمكن القول بان زنكي استطاع ان يحقق قسطا كبيرا من برنامجه وان يكون لنفسه مكانه خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع وعسكري متمكن ومسلم واع ادرك الخطر الذي احاق بالعالم الإسلامي من قبل الصليبيين. فقد استطاع ان يوجه (الظروف التاريخية القائمة) لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الاسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام، وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة استطاع بمقدرته ان يستغل اقصى ما يمكن ان تقدمه من امكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج : اي تشكيل الجبهة الاسلامية وضرب الصليبيين.

وقد اتضح لنا – من خلال استعراض علاقة زنكي بالقوى الاسلامية كامارات المدن والإمارات المحلية في الجزيرة والشام، والقبائل الكردية والتركمانية – مدى قدرته السياسية وبراعة خططه العسكرية خلال علاقاته السلمية والحربية مع هذه القوى المنبثة في المنطقة. فهو من الناحية الرسمية كان قد تسلم من السلطان السلجوقي (محمود بن محمد بن ملكشاه) عام (٥٢٢هـ) منشورا يقر سلطته الشرعية على الموصل والجزيرة والشام، وقد تاكد هذا المنشور خلال الاعوام التالية. إلا انه لم يكن كافيا لتثبيت سلطته الفعلية في هذه الفترة التي استطاع فيها عدد كبير من الامراء ان يفرضوا سلطتهم على عدد لا يحصى من المدن والاقاليم، مستقلين إلى حد كبير عن السلطة السلجوقية، ومستفيدين – كما سبق – من مجموعة من العوامل الشخصية والسياسية والجغرافية والاقتصادية والبشرية.

فكان لابد لزنكي اذن، من اخضاع هذه العدد الكبير من السلطات المتمركزة في المنطقة، ومن اختيار اسلوب الهجوم، منذ البداية، بالرغم مما يحيق بهذا الاسلوب من اخطار

---

(٤٥٤) زبدة الحلب ٢-٢٧٦.

(٤٥٥) العظيمي : ورقة ٢١٥ ظ ، زبدة الحلب ٢-٢٧٧. Runciiman: Op. cit., 11/234

اولها احتمال تشكيل حلف دفاعي مضاد من الامراء المعادين، وقد يتحول هذا الحلف فيما بعد إلى حلف هجومي، كما حدث بالنسبة للاراتقة. وثاني تلك الاخطار عدم وجود خط رجعة في حالة انكساره أو انسحابه امام الامراء المحليين الذين كانوا يحيطون به (احاطة السوار بالمعصم). إلا انه لم يابه لهذه الاخطار، وراح يهاجم الامراء المحليين منذ البداية، دفعه إلى ذلك طموحه وشجاعته الشخصية، واطمئنانه إلى قاعدة شعبية وعسكرية تحبه وتخلص له لمواقفه السابقة تجاه الصليبيين، قبل ان يتولى الحكم في الموصل، كما ساعده على ذلك منشور السلطان، انف الذكر، بتسلم الموصل والجزيرة والشام، وما كان يتضمنه من اعتراف بحرية زنكي في الاشتباك مع التشكيلات السياسية المحلية واكتساحها، والتوسل باية وسيلة يراها مناسبة لتحقيق هذا الهدف.

لكن الاهم من ذلك كله ما تمتع به زنكي من مقدرة سياسية وعسكرية وما تميز به من نظر بعيد، ذلك انه عرف – منذ البدء – انه اذا ما سلك سبيل المسالمة والتودد تجاه الامراء المحليين فان حصونهم ومدنهم واماراتهم ستظل تشكل عوامل خطر ضد امارته، لقربها منها ولاستراتيجية مواقعها، اذ تشكل نقاط تسلط مرتفعة، انحدارها باتجاه الموصل، وخطوطها الخلفية، سلاسل جبلية وانهار متشابكة وحصون منيعة. كما ان السياسة الانعزالية التي اتبعها اولئك الامراء تجاه الخطر الصليبي المتقدم نحو الشرق، وما تبع ذلك من تشتيت لامكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية، قد ادت إلى عجز هذه الإمارات عن الوقوف بوجه هذا الخطر الصليبي الزاحف، هذا في الوقت الذي كان على زنكي فيه ان يعمل على ازالة العقبات التي تقف امام توحيد الإمارات المتفرقة، المبعثرة، في جبهة اسلامية موحدة تستطيع ان توقف الزحف الصليبي، ومن ثم تبدا بالهجوم المنظم على قواعد الصليبيين، هذه هي العوامل التي دفعت زنكي إلى اتباع سياسة الهجوم، والتي تخللتها احيانا علاقات سلمية ومعاهدات استدعتها طبيعة الظرف الذي كان يمر فيه، وفي نفس الوقت، عمل زنكي على تامين حدود امارته باتجاه الشرق والشمال الشرقي، حيث يشكل الاكراد والتركمان في هذه المناطق عناصر خطر بالغة ضد امارته، لا سيما عند تازم علاقاته بالإمارات الغربية، أو عند توغله بعيدا عن مقره في الموصل.

ومن ثم تبدو لنا واضحة أهمية الدور الذي لعبه زنكي في التاريخ الإسلامي، اذ يعتبر اول قائد قام بتجميع القوى الاسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي، وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من (مودود بن التونتكين) (٥٠٢-٥٠٧هـ) و(ايلغازي) و(بلك) الارتقيين (٥١٢-٥١٨هـ) و(آق سنقر البرسقي) (٥١٨هـ).

ومن المرجح انه لو تمكن زنكي من فتح (دمشق) وانجاز محاولته لتوحيد الشام، ولو لم يقتل – وهو في قمة انتصاراته ضد الصليبيين – لكان قد استطاع ان يستكمل الاجزاء المتبقية من برنامجه، ولتكاملت امام الباحث الحديث الصورة الواضحة للدور الذي قام به في التاريخ الإسلامي، وهو دور فاصل، تتضح خطورته، إذا ما عرفنا ان نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين، لم تكن جهودهما سوى اتمام للعمل الذي بداه زنكي، وفي نفس الطريق.

الفصل الثامن

حياة عماد الدين زنكي وشخصيته

علاقاته العائلية :

لم يخلف آق سنقر، لدى مقتله عام (٤٨٧هـ)، غير ولد واحد هو عماد الدين زنكي، وكان عمره آنذاك عشر سنوات[٤٥٦]. وقد ظل زنكي – طيلة سني شبابه ومسؤوليته – يحتفظ لوالده الراحل باعمق المشاعر واطيب الذكرى، وما ان استولى على حلب عام (٥٢٢هـ) ودخل قلعتها، حتى اخذ يبحث عن موضع مناسب لينقل اليه جثمان أبيه الذي كان مدفونا على مرتفع يقع إلى الشرق من حلب. وقد اشار عليه بعض رجالاتها بنقله إلى مدرسة الزجاجين الشافعية، فنقل إلى هناك، ودفن في البيت الشمالي من المدرسة، والذي اتخذ مقبرة لآل زنكي، واوقف الابن البار احدى ضياع حلب، كي يصرف ريعها على المقرئين على قبر والده[٤٥٧]. وبلغ من حب زنكي وتقديره لوالده انه هجر احدى زوجاته لكونها حفيدة قاتله السلطان تتش السلجوقي ؛ اذ كان قد تزوج من خاتون بنت رضوان بن تتش، وصادف – بعد مرور وقت قصير على ذلك – ان اطلع على الثوب الذي كان يلبسه ابوه حين قتله جدها تتش، وهو ملوث بالدم، فثارت ثائرته، وهجر زوجته، ثم ما لبث ان طلقها في نفس العام[٤٥٨].

أما والدة زنكي فلم تشر المصادر إلى اسمها، ولم تقدم روايات ذات غناء عنها، وتكتفي بالاشارة إلى انها توفيت بالموصل عام (٥٢٩هـ)[٤٥٩] ، ويبدو انها اقامت مع ابنها هناك منذ انتقاله إلى الموصل بعد مقتل والده عام (٤٨٧هـ). وعلى العكس، نجد ان موضوع زوجات زنكي قد حظي باهتمام عدد من المؤرخين، واغلب الظن ان سبب ذلك يعود، بالدرجة الاولى، إلى العلاقة الوثيقة بين معظم عقود الزواج التي قام بها وبين اهدافه السياسية والعسكرية.

والمراة الاولى التي تزوجها زنكي هي ارملة الامير السلجوقي (كند غدي) احد حكام فارس، وقد تم ذلك خلال ذهابه إلى اصفهان عام (٥١٨هـ) للالتحاق بحاشية السلطان محمود،

---

(٤٥٦) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٨ ، زبدة الحلب ٢–٢٧٧–٢٧٨.

(٤٥٧) العظيمي : ورقة ٢١٧ ، وزبدة الحلب ٢–٢٧٨.

(٤٥٨) الباهر ، ص ١٥.

(٤٥٩) زبدة الحلب ٢–٢٤٢–٢٤٣ ، ابن شداد : الاعلاق (القسم المنشور) ١–٩٧.

فاراد هذا ان يكافاه على اخلاصه، للسلاجقة، وما أداه – وأبوه – من خدمات جليلة لهم، فزوجه هذه الارملة، واورثه مخلفات زوجها الراحل، وجعله وصيا على ولده الصغير (خاصبك)[٤٦٠]. وجاء زواجه الثاني بالاميرة خاتون ابنة رضوان امير حلب السابق، بعد سنتين من دخوله حلب، لكنه ما لبث ان هجرها – كما راينا – بسبب حقده على جدها تتش قاتل أبيه، وقد توسطت خاتون لدى قاضي حلب، وشكت اليه هجر زنكي لها، لكن الوساطة لم تجد نفعا، وانتهى الامر بتطليقها في العام نفسه[٤٦١]. ولعل زنكي قصد من هذا الزواج في البداية تثبيت ملكه في حلب، اذ ان خاتون هي ابنة امير حلب السابق، ولذا تعتبر الوريثة الشرعية لحقوق اسرة آل تتش السلجوقية[٤٦٢].

بعد اربع سنوات تزوج زنكي ابنة صاحب خلاط التي تنتمي إلى ال سكمان القطبي حكام ارمينية، مستهدفا من وراء ذلك توثيق علاقاته بهذه العائلة الحاكمة[٤٦٣] ، ولذا حظيت (خاتون السكمانية) بمزيد من الرعاية، وكلفت بالاشراف على تربية الامير السلجوقي الخفاجي ابن السلطان محمود المقيم في الموصل[٤٦٤]. ثم جاء زواج زنكي الرابع بابنة جناح الدولة حسين[٤٦٥] عام (٥٣١هـ)[٤٦٦] ، ولم تشر المصادر إلى ظروف هذا الزواج واسبابه. ولم يمض عام واحد حتى تزوج بزمرد خاتون ام اسماعيل بن بوري حاكم دمشق، وقد احاطت هذا الزواج – كما مر بنا – ظروف سياسية وعسكرية بحتة اذ كان جزءا من بنود الاتفاقية التي عقدت بينه وبين حكام دمشق[٤٦٧]. وقد اتخذت زمرد مدينة حلب مقرا لها، وبقيت مع زوجها حتى مقتله، حيث عادت إلى دمشق واقامت بها. وكانت متدينة شغوفة بدراسة الحديث، وحفظ

---

(٤٦٠) زبدة الحلب ٢–٢٤٢–٢٤٥.

(٤٦١) الباهر ، ص ٤٨.

(٤٦٢) الباهر ، ص ٢٧–٢٨ ، البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٩٢.

(٤٦٣) زبدة الحلب ٢–٢٤٢–٢٤٥.

(٤٦٤) السيد الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ١–٢٩٦.

(٤٦٥) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٨٨–٨٩ ، وانظر الفصل الرابع.

(٤٦٦) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٠٦.

(٤٦٧) كان جناح الدولة اتابكا لرضوان بن تتش السلجوقي ، امير حلب السابق : (ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٣).

القرآن الكريم، وبناء المدارس، وقد استقرت – في اواخر حياتها – بالمدينة المنورة حيث عاشت عيشه بسيطة، وتوفيت هناك[٤٦٨].

وفي مطلع عام (٥٣٤هـ) قام زنكي بزواجه التالي، اثر استيلائه على بعلبك، من جارية كانت مقيمة هناك لمعين الدين انر حاكم دمشق. وقد ظلت هذه الزوجة الجديدة مع زنكي حتى مقتله، حيث اعادها ابنه نور الدين محمود إلى انر الذي كان يحبها حبا شديدا، وقد ادى ذلك إلى توثيق العلاقات بين الحاكمين[٤٦٩]. ثم جاء اخر زواج لزنكي عام (٥٣٤هـ)، من صفية خاتون ابنة حسام الدين تمرتاش الارتقي، اثر اتفاقية الصلح التي عقدت بين الطرفين في العام السابق، وتقرر بموجبها تزويج امير الموصل بابنة حاكم ديار بكر[٤٧٠].

وهكذا يبدو واضحا ان زنكي كان يعتمد رابطة الزواج لتحقيق بعض اهدافه السياسية والعسكرية، وانه تمكن – عن هذا الطريق – من توثيق علاقاته بعدد من الحكام والامراء، الامر الذي ساعده إلى حد كبير في تنفيذ خططه الرامية إلى توحيد القوى الاسلامية لمواجهة الخطر الصليبي.

انجب زنكي من زوجاته تلك اربعة بنين وابنة واحدة ؛ اما البنين فهم : سيف الدين غازي، ونور الدين محمود، ونصرة الدين اميران، وقطب الدين مودود[٤٧١] ؛ واما البنت فلم تذكر المصادر اسمها[٤٧٢] ، ويرد ذكرها في احداث عام (٥٣٢هـ) حينما تم الاتفاق بين زنكي وحكام دمشق، وكان من بنوده ان يتزوج شهاب الدين محمود ابنة امير الموصل هذه[٤٧٣].

خصص زنكي لتربية اولاده عليا بن منصور السروجي، وكان اديبا شاعرا خطاطا[٤٧٤]. وعندما كبر سيف الدين غازي ارسله ابوه اخدمة السلطان مسعود، فتلقاه بالحفاوة والتقدير، ورتب في خدمته عشرة من الحراس[٤٧٥]. وقد بقي سيف الدين هناك حتى قبيل مقتل أبيه بوقت قصير، بدليل حادثة عام (٥٣٨هـ)، تلك التي استغل زنكي فيها وجود ابنه في حاشية السلطان لابعاد

---

(٤٦٨) العظيمي : تاريخ ، مخطوطة ، ورقة ١١ ظ.

(٤٦٩) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٦–٢٦٧ ، الكامل ١١–٢٣ ، وانظر الفصل السادس.

(٤٧٠) زبدة الحلب ٢–٢٤٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢–٢٤٥–٢٤٦.

(٤٧١) الكامل ١١–٢٩ ، مفرج الكروب ١–٨٦.

(٤٧٢) الفارقي : تاريخ آمد (مخطوطة) ، ورقة ١٢١ب–١٢٢م.

(٤٧٣) الباهر ، ص ٧٦ ، ونقل عنه ابو شامة : الروضتين ١–١٠٨–١٠٩.

(٤٧٤) المصدران السابقان ، نفس الصفحات.

(٤٧٥) زبدة الحلب ٢–٢٦٨–٢٦٩.

الاخير عن غزو الموصل[٤٧٦]. اما نور الدين محمود فقد نشا تحت رعاية والده، وتعلم القرآن الكريم والفروسية والرمي[٤٧٧] ، ولما جاوز صباه لزم خدمة أبيه حتى مقتله[٤٧٨] [٤٨٠]. وهكذا كان زنكي يعد اولاده لتحمل المسؤوليات الادارية والعسكرية في المستقبل. وما يقال عن غازي ومحمود يمكن ان يقال عن ابنيه الاخرين اميران ومودود.

صفاته :

كان زنكي حسن الصورة، اسمر اللون، مليح العينين[٤٧٩] ، معتدل الطول[٤٨٠] ، وخط الشيب رأسه في سني حكمه الاخيرة[٤٨١] ، وكان ذا شخصية قوية، شديد الهيبة على رعيته وجنده[٤٨٢] ، جادا في معظم الاحيان، الجد الصارم الذي كان يمنعه من الاستسلام للراحة أو الترف، ويدفعه إلى مواصلة كفاحه من اجل اهدافه، ويجعل (اصوات السلاح الذ في سمعه من غناء القينات)[٤٨٣]!! اما شجاعته واقدامه (فاليه النهاية فيهما، وبه كان يضرب المثل)، وقد ظهرت شجاعته الفذة هذه في كثير من الحروب التي اشترك فيها، قبل توليته الموصل وبعدها[٤٨٤] ، وكان (لا يقدر احد على مساواته – اي مضاهاته – في الحرب)[٤٨٥].

كما كان ذا دهاء ومكر وحيلة، وذكاء نافذ في مجابهة المشاكل الحربية والسياسية، وقد مكنه ذلك من اجتياز كثير من الصعوبات، وتحقيق مزيد من الانتصارات، ونحن لا زلنا نذكر مناورته البارعة ضد التحالف البيزنكي – الصليبي عام (٥٣٢هـ)، عندما ارسل إلى قادته يقول (انكم قد تحصنتم بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، وتكون الغلبة لاحد

---

(٤٧٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨–٣٣٩–٣٤٠.
(٤٧٧) الباهر ، ص ٩٧.
(٤٧٨) انظر الفصل الثاني.
(٤٧٩) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢–٢٧٧–٢٧٨.
(٤٨٠) الروضتين ١–١١٩.
(٤٨١) الكامل ١١–٤٥ ، الباهر ، ص ٧٦.
(٤٨٢) الباهر ، ص ٧٦ ، الروضتين ١–١٠٨.
(٤٨٣) الكامل ١١–٤٥ ، الباهر ، ص ٧٦.
(٤٨٤) زبدة الحلب ٢–٢٩٠–٢٩١ ، مفرج الكروب ١–١٠٠–١٠١. وانظر الباهر ، ص ٨١–٨٢ ، والروضتين ١–١١٣–١١٤.
(٤٨٥) الباهر ، ص ٥٨ ، وانظر المصدر نفسه ، ص ٤٧ ، ٨١.

الطرفين)، فظن الروم والصليبيون ان وراءه قوات ضخمة اتاحت له ان يطرح تحديه، فتجنبوا لقاءه، وهو ماكان زنكي يرجوه. ثم راح – بعد هذا – يراسل امبراطور الروم ويوهمه ان الصليبيين متفقون مع المسلمين سرا، وبالعكس، واستطاع بذلك ان يبذر الانشقاق في الجبهة المسيحية مما اضطر قواتها إلى الانسحاب[٤٨٦]. كما لا زلنا نذكر مناورته ازاء محاولة السلطان مسعود غزو الموصل[٤٨٧]. هذا إلى انه فتح الرها، وهو اكبر نصر حققه في حياته، معتمدا على الحيلة والمكر، اذ اتجه إلى امد موهما الصليبيين انه يسعى لحصارها، وما ان رحل امير الرها عن حاضرته مطمئنا إلى انهماك زنكي بمشاكله في ديار بكر، حتى انقض الاخير عليها وتمكن من اجتياحها[٤٨٨]. وغير هذه وتلك من الاحداث والوقائع التي تؤكد ما كان زنكي يتمتع به من مقدرة عسكرية وسياسية فذة.

غدا زنكي، بفضل ما كان يتميز به من صفات، اتينا على جانب منها، واثقا بنفسه، معتدا بها، معتقدا بامكانيته على تذليل كل صعوبة، مترفعا عن اداء المهمات الثانوية، منزلا غضبه بمعارضي اهدافه. فعندما تقدم لخطبة ابنة صاحب خلاط – على سبيل المثال – ثم سمع ان امير بدليس خطبها هو الاخر، تملكه الغضب، وانطلق على راس جيشه صوب خلاط، واشرف على كتابة المهر بنفسه، ثم حاول القيام من هناك بحملة تاديبية ضد امير بدليس، لولا معارضة حاجبه الياغسياني وجهوده من اجل الصلح[٤٨٩]. وعندما تظاهر جنده – مرة – بسبب تاخر صرف رواتبهم، شدد لومه لموظفي الديوان لعدم قيامهم بواجبهم (وعظم نفسه عن ان يخاطب في هذا الامر الحقير)[٤٩٠]. وفي عام (٥٣٧هـ)، حينما هدم الاكراد احد حصونهم، لعجزهم عن حمايته، اعلن (انه اذا عجز الاكراد عن هذا الحصن، فانا لااعجز عنه) وامر ببنائه (وكان ذا عزم ونفاذ امر)[٤٩١].

---

(٤٨٦) الكامل ١١–٤٥–٤٦ ، الباهر ، ص ٨٠–٨١.

(٤٨٧) الباهر ، ص ٨١ ، ونقل عنه ابن واصل : مفرج الكروب ١–٩٣–٩٤.

(٤٨٨) الكامل ١١–٢٣–٢٤ ، الباهر ، ص ٥٥–٥٦ ، وانظر الفصل السابع.

(٤٨٩) انظر الفصل الثاني.

(٤٩٠) الكامل ١١–٤٠–٤١ ، الباهر ، ص ٦٧–٦٨.

(٤٩١) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٨٨–٨٩.

وكان زنكي يشعر بمسؤوليته كمسلم سواء في سياسته وعلاقاته العامة، ام في سلوكه الشخصي. فقد كرس حياته وطاقاته في سبيل (الجهاد) ضد الصليبيين[٤٩٢] ، والجهاد، كما قال عنه العماد الاصفهاني (افضل اركان العبادة)[٤٩٣] ، واعتبر نفسه قائد المسلمين الأول في الوقوف بوجه الخطر الصليبي، معتقدا ان مركزه – كاقوى امير في المنطقة – يحتم عليه ذلك. ولعل موقفه من التحالف البيزنكي الصليبي ضد المسلمين عام (٥٣٢هـ) يوضح طبيعة نظرته في هذا المجال. فعندما قرر الاستنجاد بالسلطان السلجوقي، واعترض قاضيه بان ذلك ربما ادى إلى تمهيد الطريق امام سيطرة السلاجقة على بلاده، رد قائلا : (ان هذا العدو قد طمع في البلاد، وان اخذ حلب لم يبق بالشام اسلام، وعلى كل حال فالمسلمون اولى بها من الكفار)[٤٩٤]. وكان كلما قرر التوجه لقتال الصليبيين استثار في المسلمين تعشقهم للجهاد، ففي عام (٥٢٤هـ) – على سبيل المثال – اتجه إلى الشام (وصمم العزم على الجهاد... واعلاء كلمة الله)[٤٩٥]، وفي عام (٥٣٢هـ) سار إلى بعرين الخاضعة للصليبيين (وجمع عساكره وحثهم على الجهاد)[٤٩٦]، وعندما عزم على فتح الرها عام (٥٣٩هـ) (تبعته العساكر.. عازمين على ان يؤدوا فريضة الجهاد)[٤٩٧]. ولقد لاقى فتحه للرها استبشارا عاما لدى المسلمين في كل مكان (فامتلات بذكره المحافل في الافاق) واعتبروه نصرا حاسما للاسلام ضد الصليبية[٤٩٨]. ومن ثم فان مفهوم الجهاد خلع على زنكي صفة اسلامية في نظر المسلمين، إلى الحد الذي دفع العماد الاصفهاني إلى القول (بانه كان قطبا يدور عليه فلك الاسلام)[٤٩٩] ، كما ذكر رنسيمان ان زنكي اعتبر نفسه (حامي الاسلام) ضد الصليبيين[٥٠٠].

وتتضح نزعة زنكي الدينية في سياسته الداخلية وفي سلوكه الشخصي كذلك ؛ وهناك العديد من الامثلة التي تبين إلى اي مدى بلغ الحس الديني لدى هذا الامير المسؤول، فعندما قام

---

(٤٩٢) الباهر ، ص ٨٣.

(٤٩٣) المصدر السابق ، ص ٦٤.

(٤٩٤) انظر فصل (زنكي والصليبيون).

(٤٩٥) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٨٦.

(٤٩٦) المصدر السابق ، ص ٦٢.

(٤٩٧) المصدر السابق ، ص ٣٩.

(٤٩٨) الباهر ، ص ٥٩.

(٤٩٩) المصدر السابق ، ص ٦٧–٦٨ ، وانظر ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩.

(٥٠٠) الباهر ، ص ٦٩–٧٠ ، وانظر فصل (زنكي والصليبيون).

عام (٥٣٤) – على سبيل المثال – بتولية هبة الله بن أبي جرادة قضاء حلب قال له (هذا الامر قد نزعته من عنقي، وقلدتك اياه، فينبغي ان تتقي الله)[٥٠١]. وكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار جهرا، ويتصدق فيما عداها من الايام سرا[٥٠٢]. كما كان يستفتي الفقهاء والقضاة قبل اقدامه على كثير من الاعمال[٥٠٣] ، وقد اقام الحدود الشرعية في انحاء بلاده[٥٠٤]. (وكان شديد الغيرة على الحريم، لا سيما نساء الاجناد، فان التعرض اليهن كان من الذنوب التي لايغفرها. وكان يقول : ان جندي لا يفارقوني في اسفاري، وما يقيمون عند اهليهم ؛ فان نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن)، حتى انه اقال – يوما – احد عماله، وجرده من الاموال، بسبب تعرضه لبعض نساء البلد الذي يشرف عليه[٥٠٥]. ولا ريب ان عمق الحس الديني لدى زنكي هو الذي دفعه إلى ان يكون (قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغير ؛ لم يتغير على احد من اصحابه، مذ ملك إلى ان قتل، إلا بذنب يوجب التغير)[٥٠٦]. وعندما قبض على دبيس بن صدقه، امير الحلة، عام (٥٢٦هـ)، اكرمه واحسن اليه، رغم المحاولات التي كان الاخير قد قام بها ضده[٥٠٧].

غير ان عددا من المؤرخين ياخذون على زنكي لجوءه إلى الغدر والظلم ازاء اعدائه في بعض الاحيان، فيصفه الاصفهاني بانه كان شديدا جبارا عنيفا، وانه كان يبلغ في ذلك حد الظلم[٥٠٨] ، ويصفه الذهبي بالظلم والزعارة[٥٠٩] ، ويذكر اسامة بن منقذ كيف كان زنكي احيانا يسكت عن الاساليب القاسية التي اتبعها احيانا بعض كبار موظفيه امثال الياغسياني حاجبه[٥١٠] ، ونصير الدين جقر نائبه في الموصل[٥١١]. ويحمل ابن واصل عليه – لدى استعراضه احداث الهجوم على حماه عام ٥٢٤هـ – قائلا (وارتكب امرا قبيحا انكره الناس عليه،

---

(٥٠١) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٨٥.

(٥٠٢) Runciman : op. cit., 11 / 182, Lane pool : Mohammadan Dynasties, p. 162

(٥٠٣) زبدة الحلب ٢–٢٧٤–٢٧٥.

(٥٠٤) الباهر ، ص ٨١.

(٥٠٥) مفرج الكروب ١–٤١–٤٢.

(٥٠٦) زبدة الحلب ٢–٢٨٤.

(٥٠٧) الكامل ١١–٤٥ ، الباهر ، ص ٨٤.

(٥٠٨) الباهر ، ص ٨٢.

(٥٠٩) الكامل ١٠–٢٥٥ ، الباهر ، ص ٤٦.

(٥١٠) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٨٦.

(٥١١) العبر في خبر من غبر ٤–١١٢.

ولا شيء اقبح من الغدر، ولما عزم على تلك الفعلة الشنعاء[٥١٢] ، استفتى الفقهاء في ذلك، فافتاه من لا دين له، وجوز له ما لا يحل ولا يحسن شرعا وعرفا)[٥١٣].

ولنا – بعد هذا – ان ناقش بعض مواقف زنكي التي دفعت اولئك المؤرخين إلى اطلاق صفات الظام والغدر عليه، ولا ريب ان هجومه على حماه عام (٥٢٤) يقف على راسها، وذلك عندما طلب من حكام دمشق مساعدته ضد الصليبيين، فلما امده صاحبها بابنه سونج – امير حماه – على راس قوة من الفرسان، قبض عليه واعتقله وعدد كبير من امرائه وقواده، كي يمهد الطريق للاستيلاء على حماه، ثم ما لبث ان قبض بعد قليل على حليفه خيرخان بن قراجا صاحب حمص وهاجم بلده[٥١٤]. وينفرد ابن العديم بالقول بان زنكي اخذ يعذب خيرخان امام ابنائه كي يلجئهم إلى تسليم القلعة، بينما لا تشير بقية المصادر إلى ذلك، مما يضع روايته موضع الشك، خاصة وانه يوردها في سياق الحديث عن غدر خيرخان بسونج (وعقاب الله له ببعض ظلمه في الدنيا)[٥١٥]. مما يشبه السرد القصصي.

ولعل ما يبرر لزنكي موقفه هذا ازاء امراء الشام، محاولته الجادة لكسب الوقت، وتوحيد العدد الاكبر من المدن ذات الحكم الذاتي هناك من اجل الاسراع بتشكيل الجبهة الاسلامية الموحدة للوقوف بوجه الخطر الصليبي، بعد ان ادرك عدم امكان تحقيق نصر حاسم ضدهم في حالة تمزق بلاد الشام إلى امارات عديدة متطاحنة، فكان لا بد من الخدعة سيما وانها في حالة كهذه توفر على المسلمين كثيرا من الجهود والدماء، لذا نجد زنكي يستفتي الفقهاء قبل ان يقدم على فعلته هذه.

وشبيه بهذا، الحيلة الطريفة التي مكنته عام (٥٢٩هـ) من الاستيلاء على الرقة[٥١٦] ، دون سفك قطرة دم واحدة. وهل الحرب ضد الامراء الذين نسوا وحدة الامة ومصالحها الحيوية، إلا خداعهم والكيد لهم ؟ اما اعدامه بعض امراء بعلبك اثر استيلائه عليها بعد قتال عنيف عام

---

(٥١٢) الاعتبار ، ص ١٥٧.

(٥١٣) انظر : الكامل ١١–٦.

(٥١٤) انظر ما يلي من الفصل.

(٥١٥) مفرج الكروب ١–٤١–٤٢. ولا بد من ان نلاحظ التطرف الذي يسود احكام عدد من المؤرخين عن بعض مواقف زنكي ، فبينما يحاول ابن الاثير في (الباهر) الذي الفه للملك القاهر احد احفاد زنكي ، ان يسكت عنها ، نجد مؤرخين آخرين كابن واصل والاصفهاني يدفعهم ميلهم للايوبيين ضد اتابكة الموصل ، الى وصفها وتجسيدها بنوع من المبالغة.

(٥١٦) انظر التفاصيل في الفصل السادس.

(٥٣٤هـ)، فقد جاء نتيجة نقضهم بعض الشروط التي تم الاتفاق عليها قبيل مغادرتهم القلعة[٥١٧] ولعل هذه الحادثة هي ابرز ما دفع المؤرخين إلى وصف زنكي بالقسوة والغدر، وقد اشار ابن الاثير – في الكامل – إلى ذلك بقوله (واستقبح الناس ذلك من فعله، واستعظموه، وخافه غيرهم)[٥١٨]. لكن زنكي سرعان ما سعى إلى التعويض عن خطاه هذا وذلك باصداره العفو عن العدد الاكبر من المحكوم عليهم بالاعدام، وتولية بعلبك لنجم الدين ايوب، وهو الذي بذل جهودا مشكورة في التوسط لهؤلاء الامراء والدفاع عنهم[٥١٩].

وفي حصار زنكي لقلعة جعبر عام (٥٤١هـ)، جرت مفاوضات بين الطرفين وافق فيها على تسلم مبلغ ثلاثين الف دينار مقابل فك الحصار عن القلعة. وما ان وصله الرسول حاملا المبلغ المتفق عليه حتى رده من حيث جاء، بعد ان وردته انباء تشير إلى ان القلعة قد اوشكت على السقوط[٥٢٠] ، وهو موقف يبرره تماما حرصه على وحدة الجبهة الاسلامية ازاء انانيات الامراء الصغار واطماعهم الذاتية.

اما ما اورده ابن العديم من ان زنكي كان يقول (ما يتفق ان يكون اكثر من ظالم واحد – قاصدا نفسه –)[٥٢١] ، فانه لا يعني سوى عزمه على اتباع نظام المركزية في الادارة، وتركيز السلطة بيد المسؤول الاعلى.

هواياته :

كان طبع زنكي الحاد، وعمله المتواصل من اجل تحقيق اهدافه السياسية والعسكرية، يستنفدان الكثير من وقته، ولا يتيحان له من الفراغ للراحة والتمتع إلا القليل القليل. وفي هذه الفترات المتباعدة، من التحرر من قيود العمل والمسؤولية، كان زنكي يسعى للترفيه عن نفسه وممارسة هواياته المفضلة التي كان الصيد والطراد ابرزها واقربها إلى طبيعته الجادة.

---

(٥١٧) زبدة الحلب ٢–٢٤٦.

(٥١٨) انظر التفاصيل في الفصل الثالث.

(٥١٩) انظر : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٩–٢٧٠ ، الكامل ١١–٢٩ ، زبدة الحلب ٢–٢٧٣.

(٥٢٠) الكامل ١١–٢٩.

(٥٢١) الروضتين ١–٨٦–٨٧.

ويحدثنا ابن منقذ عن الجولات التي قام بها مع امير الموصل، وعن انواع الصيد ووسائله وحيله، ولنستمع اليه (شاهدت زنكي يوما، وكانت له الجوارح الكثيرة، ونحن نسير على الانهار. فيتقدم البازداريه[٥٢٢] بالبزاة ويطلقونها على طيور الماء، وتدق الطبول كجاري العادة، فتصيد – من طيور الماء – ما تصيد، وتخطىء ما تخطىء، ووارءهم الشواهيق الجبلية على ايدي البازداريه، فاذا اخطات البزاة ارسلوا الشواهين على الطيور)[٥٢٣]. ويستطرد ابن منقذ قائلا (وشاهدته يوما ونحن بظاهر الموصل.. وبين يديه بازدار على يده باشق، فطار ذكر دراج[٥٢٤]، فارسله عليه، فاخذه ونزل. فلما صار في الارض – تمكن من الافلات – فلما ارتفع لحقه الباز واخذه ونزل به وقد ثبته)[٥٢٥]. ثم يمضي ابن منقذ يقص علينا وجوها أخرى من الصيد، الذي كان يالفه زنكي ويهواه، فيقول (ورايت زنكي وهو في صيد الوحش مرارا عديدة. فاذا ما نصبت الحلقة واجتمعت الوحوش داخلها – ثم حاولت الخروج – رموها. وكان زنكي من ارمى الناس، فكان اذا دنا منه الغزال، رماه، فنراه كانه قد عثر، فيقع ويذبح.. وشاهدته وقد اقيمت الحلقة، ونحن في ارض نصيبين على الهرماس[٥٢٦]. وقد ضربوا الخيام، فوصل الوحش إلى الخيام، فخرج الغلمان بالعصي والعمد فضربوا منها شيئا كثيرا.. وشاهدته يوما ونحن بسنجار، وقد جاءه فارس من اصحابه فقال : ها هنا ضبعة نائمة !! فسار زنكي، ونحن معه، إلى واد هناك، والضبعة نائمة على صخرة في سفحه، فترجل ومشى حتى وقف مقابلها وضربها بنشابه، فوقعت اسفل الوادي، فنزلوا وجاءوا بها بين يديه وهي ميتة)[٥٢٧].

وكان الملوك والامراء، اذا ارادوا التقرب إلى زنكي وكسب وده، قدموا له هدايا مما اصطادوه من طيور وحيوانات شتى، وكان يرد عليهم – بدوره – بهدايا مما جنته يداه في جولات الصيد والطراد فهودا وبزاة وصقورا[٥٢٨].

---

(٥٢٢) زبدة الحلب ٢–٢٨٢–٢٨٣.

(٥٢٣) المصدر السابق ٢–٢٨٤ ، وانظر فصل (النظم الادارية).

(٥٢٤) البازدارية : هم حملة البزاة بين يدي الامراء.

(٥٢٥) الاعتبار ، ص ١٩٢–١٩٣.

(٥٢٦) الدراج : طير من فصيلة الدجاج.

(٥٢٧) الاعتبار ، ص ١٩٢–١٩٣.

(٥٢٨) الهرماس : احد روافد خابور الفرات.

ولم يكن تعشق زنكي لسباق الخيل ومهارات الفروسية باقل من تعشقه للصيد والطراد، فهذه هواية تصدر هي الأخرى عن الطبع الجاد والرغبة في قضاء اوقات الفراغ بما هو مجد في عصر كانت الفروسية فيه شارته الاولى. ويحدثنا ابن منقذ، رائد الفروسية الاسلامية في عهده، كيف كان زنكي يلح عليه في ان يتنازل له عن فرسه (الفرنجي) لانه كان السباق دائما، وكيف اضطر اخيرا إلى اهدائه اياه، وهو العزيز على قلبه، الاثير لديه[٥٢٩].

وفي فترات أخرى من فترات الفراغ المتباعدة، كان زنكي يروح عن نفسه بالقيام منفردا برحلات هادئة في نهر دجلة، متخففا من اعباء ومهام امارة شاسعة الاطراف، يتربص بها الاعداء من كل جانب[٥٣٠]. وربما استمع في رحلاته تلك إلى الغناء الهادىء الحزين الذي كان يحبه ويالفه اشد الإلفة[٥٣١]. وقريب من الغناء الشعر، أو هو الغناء بعينه، لما كان يستثيره من وجدان زنكي واحاسيسه، وكثيرا ما كان الشعراء يقصدونه لينشدوه اشعارهم في المناسبات[٥٣٢]. وقد بلغ من تاثره بالشعر والغناء، انه سمع ليلة، وهو نازل بحماة، شخصا يغني على شط العاصي :

اعـــدلوا !! مـــا دام امـــركم　　نافـــذا فـــي النفـــع والضـــرر

واحفظـــوا ايـــام دولـــتكم　　انكـــم منهـــا علـــى خطـــر !!

(فبكى، وتبدلت نيته في الظلم، واخذ نفسه – من حينئذ – بالعدل[٥٣٣]) !! وما كان زنكي ليتذوق الشعر والغناء، ويتاثر بهما، لو لم يكن قد اتقن العربية خير اتقان، وادرك ادابها الفذة وجمالها المعجز. وكان – بطبيعة الحال – يتقن التركية، لغته الاصلية، كذلك، ويتكلم بها في كثير من الاحيان، سيما لدى تحدثه إلى بعض جنده أو مماليكه الذين لم يكونوا قد اجادوا العربية اجادة تامة. وربما استغل معرفته باللغتين، فتكلم بالتركية حول بعض الامور والمهام الرسمية، كيلا يعرف بعض الحاضرين حقيقة ما يدور، وكذلك كان يفعل كبار موظفيه[٥٣٤].

---

(٥٢٩) الاعتبار ، ص ١٩٢–١٩٣.

(٥٣٠) زبدة الحلب ٢–٢٦٣.

(٥٣١) الاعتبار ، ص ٤٦.

(٥٣٢) الباهر ، ص ٨٢ ، ونقل عنه ابو شامة : الروضتين ١–١١٤.

(٥٣٣) ابن الوردي : تاريخ ٢–٤٦–٤٧.

(٥٣٤) الكامل ١١–٢٤–٢٥ ، الباهر ، ص ٥٦–٥٧.

مقتله ٥٤١هـ :

تجمع المصادر على ان زنكي اغتيل ليلة الخامس من ربيع الاخر عام (٥٤١هـ) خلال حصاره لقلعة جعبر، عندما انقض عليه – وهو نائم – غلام (أو عدة غلمان) من مماليكه المقربين اللذين كانوا يقومون على حراسته اثناء نومه، وانهم هربوا – بعد قتله – إلى القلعة ونادوا اصحابها بحقيقة الامر ففتحوا لهم الابواب، وانه ما ان انتشر نبا الاغتيال في معسكره حتى اضطرب وتشتت وسادته الفوضى، فلم ير قادته بدا من فك الحصار والرحيل(٥٣٥).

لكن الاختلاف بين المصادر يبدو واضحا في ايراد التفاصيل، وهوية القاتل، وسبب القتل، فالعماد الاصفهاني يشير إلى ان زنكي كان، اذا نام، سهر حول سريره عدد من خدامه ومماليكه لحراسته، اولئك الذين كان يحبهم اعمق الحب، وبعطف عليهم اشد العطف، لكنه – مع ذلك – كان يعاملهم احيانا معاملة صعبة تبلغ حد العنف والقسوة، فكان اذا نقم على كبير ابعده وابقى ولده عنده، بعد ان يأمر باقصائه، وكان هؤلاء من ابناء وجهاء القرم والترك والروم. فاسروا الثار في انفسهم، وراحوا ينتظرون الفرصة المناسبة، وفي تلك الليلة – التي شهدت الحادث المشئوم – نام زنكي وما لبث ان انتبه من نومه وهم (قد شرعوا في اللعب، واخذوا في الطرب، فزجرهم وتوعدهم وهم ساكتون، لكن كبيرهم المدعو (يرنقش) اسر ذلك في نفسه، وراح ينتظر الفرصة للاخذ بثاره، وما ان عاد سيده إلى النوم ثانية حتى اسرع اليه، وبرك عليه، وذبحه)، واستطاع – اثر ذلك – ان يتسلّل من المعسكر إلى اسوار جعبر، دون ان يشك احد فيه باعتباره كبير حراس زنكي. وهناك اخبر اهل القلعة وحراسها بما اقدم عليه، واراهم الادلة والعلامات، فاسرعوا باشاعة النبا في اطراف المكان كي يحدثوا الاضطراب في صفوف قوات زنكي، وقد اتت مساعيهم اكلها سريعا ورحلت تلك القوات(٥٣٦). ويتفق كل من ابن القلانسي(٥٣٧) وسبط بن

---

(٥٣٥) مفرج الكروب ١–١٠٠–١٠١.

(٥٣٦) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٥١.

(٥٣٧) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ ، الكامل ١١–٤٥ ، الباهر ، ص ٧٤ ، الروضتين ١–١٠٧– ١٠٨ ، زبدة الحلب ٢–٢٨١–٢٨٣ ، مفرج الكروب ١–٩٩–١٠٠، البنداري آل سلجوق ، ص ١٨٩–١٩٠ ، الفارقي : تاريخ آمد ، مخطوطة ، ورقة ١٢٧ب ، ابن الوردي : تاريخ ٢–٤٦.

الجوزي[٥٣٨] مع الاصفهاني في هذه الرواية، مع حذف بعض التفاصيل، اما ابن العديم فانه يذكر ان زنكي تهدد يرنقش خلال النهار، فخاف الاخير منه واسرع باغتياله ليلا[٥٣٩].

ويشير كل من ابن القلانسي[٥٤٠] وابن واصل[٥٤١] ورنسمان[٥٤٢] الى ان القاتل كان ذا اصل (افرنجي). اما جمال الدين الشيال فيقول (ويبدو ان صاحب جعبر هو الذي حرض على قتله، بدليل ان قتلته فروا إلى القلعة بعد قتله مباشرة)[٥٤٣] ، ويشاركه حسن حبشي هذا الراي، ويضيف (ولعل القاتل كان باطنيا)[٥٤٤]. وهكذا يتضح ان يرنقش قام باغتيال سيده مدفوعا بعامل أو اكثر من عوامل ثلاثة : شخصي ونفسي وسياسي.

اما العامل الشخصي فيتمثل بتهديد زنكي له، وخوفه عاقبة هذا التهديد واسراعه باغتيال سيده دفاعا عن نفسه. ويتمثل العامل النفسي بتاكيد المصادر على تاثر برنقش من معاملة زنكي له وزجره اياه، وشعوره العميق بما اصابه من ظلم من جراء اخصائه، فحاول ان يرد على الظلم بمثله، سيما وانه كان من اقرب مقربي زنكي[٥٤٥] ، وقد بلغ منزلة خيل اليه معها انه اصبح بمنأى عن ان يناله اذى أو تمسه اهانة، فلما كانت تلك الليلة، واهانه سيده امام رفاقه، لعب احساسه بمرارة الاهانة دوره، فاندفع لحماية كرامته وذبح سيده. وبصور الاصفهاني حركات برنقش اثناء الاغتيال بالشكل الذي يبرز اثر الانفعال النفسي فيها (فاسرع إلى زنكي، وبرك عليه، وذبحه في نومه)[٥٤٦].

اما الدافع السياسي للاغتيال فيقوم على وجهين، اولهما اتفاق يرنقش – سرا – مع اصحاب قلعة جعبر لاغتيال عدوهم وانهاء ازمتهم، بعد ان كاد حصنهم يوشك على الاستسلام، ويدخل ضمن هذا الاحتمال كون يرنقش ذا ميول باطنية، وربما تسلل إلى خدمة زنكي منذ زمن بعيد، لتحقيق هدفه هذا، كعادة الباطنية في التستر والانتظار الطويل لتنفيذ اغتيالاتهم لكبار

---

(٥٣٨) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٨٩–١٩٠.

(٥٣٩) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤–٢٨٥.

(٥٤٠) مرآة الزمان ٨–١٩٠–١٩١.

(٥٤١) زبدة الحلب ٢–٢٨١–٢٨٢.

(٥٤٢) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤–٢٨٥.

(٥٤٣) مفرج الكروب ١–٩٩.

(٥٤٤) History of the Crusades, 11/239

(٥٤٥) حاشية مفرج الكروب ١–٩٩.

(٥٤٦) نور الدين والصليبيون ، ص ٤٠.

الشخصيات السياسية (السنية) التي كانت تشكل خطرا على دعوتهم، خاصة اذا ما عرفنا العطف الذي كان يبديه امراء جعبر تجاه الباطنية. اما ثاني الاحتمالات السياسية فكون يرنقش ذا اصل (افرنجي)، كما اكد ابن القلانسي وابن واصل ورنسمان، ويحتمل ان يكون قد اقدم على فعلته اما باتفاق سري مع الصليبيين، أو بدافع شخصي مرتجل يعود إلى حرصه على مصالح قومه التي بدأ زنكي يوجه اليها ضربات حاسمة.

ولا نستطيع الجزم باي من هذه الدوافع الثلاثة لاغتيال زنكي، ذلك ان المصادر – كما راينا – لم تعط القول الفصل في هذا المجال، ومن الخطا الاعتقاد بان (يرنقش) ذا الاصل الفرنجي اغتال سيده – وهو في قمة انتصاره على الجبهتين الصليبية والاسلامية – بدافع شخصي أو نفسي محض، ولا ريب ان وراء هذا الاغتيال الخطير، في هذه المرحلة الصعبة، دوافع سياسية ابعد مدى واشد خطورة، ربما تعود إلى الاصل الفرنجي للقاتل، أو إلى ميوله الباطنية، وربما تعود إلى اتفاقه – سرا – مع امراء قلعة جعبر، لقاء ما منوه به، اذا اتم تخليصهم من زنكي الذي غدا قاب قوسين أو ادنى من اجتياح حصنهم.

اتجه القاتل، بعد ان اغتال زنكي، إلى اسوار قلعة جعبر، بسكينه الملطخ بالدم، وصاح في الحرس (شيلوني فقد قتلت زنكي !!)، فلم يصدقوه، فاراهم السكين، وعلامة أخرى كان قد اخذها من سيده، وعند ذلك اصعدوه إلى القلعة وتحققوا صدق ما كان يقول[٥٤٧]. وعندما بشر صاحب جعبر بالنبا لم يصدقه اول الامر (واوى يرنقش إلى القلعة، واكرمه، وعرف حقيقة الامر، فسر بذلك واستبشر بما اتاه من الفرج بعد الشدة الشديدة)[٥٤٨] ويشير ابن العديم إلى رد الفعل الذي احدثه القاتل في (اهل القلعة)، فعندما ناداهم : اني قتلت زنكي، اجابوه : (اذهب إلى لعنة الله، فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله)[٥٤٩]!!

ولم يقبض القاتل ثمنا لخيانته إلا المطاردة والخوف. ذلك ان حكام جعبر قاموا بطرده بعد وقت قصير من التجائه اليهم، ولم يكافؤوه على عمله ربما خوفا من قيام نور الدين محمود بن زنكي، امير حلب، بالانتقام منهم لأبيه، واخيرا تم القاء القبض على القاتل، وارسل مخفورا إلى الموصل حيث قتل هناك[٥٥٠].

---

(٥٤٧) انظر : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤–٢٨٥.

(٥٤٨) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٨٩–١٩٠.

(٥٤٩) الفارقي : ميا فارقين ، مخطوطة ، ورقة ١٢٧م–١٢٨ب.

(٥٥٠) ابن القلانسي ، ص ٢٨٥.

عندما انتشر خبر اغتيال زنكي في معسكره، انقسم إلى قسمين اتجه احدهما إلى حلب بقيادة نور الدين محمود، واتجه القسم الاخر إلى الموصل بقيادة جمال الدين الاصفهاني حيث قام هو وكبار الامراء بتنصيب سيف الدين غازي اميرا على الموصل[٥٥١]. وحملت جثة زنكي إلى الرقة حيث دفنت في مشهد هناك في منطقة قبور شهداء صفين[٥٥٢] ، ثم ما لبث نور الدين محمود ان بنى جدارا يقصر عن القامة حول مشهد أبيه[٥٥٣].

(٥٥١) بغية الطلب ، حـ ٨ ، ورقة ٢١٣ و(حاشية زبدة الحلب ٢-٢٨٢).

(٥٥٢) ابن القلانسي ، ص ٢٨٨ ، ونقل عنه ابو شامة : الروضتين ١-١١٨.

(٥٥٣) ابن القلانسي ، ص ٢٨٥ ، أبو شامة ١-١١٩ ، الكامل ١١-٤٦ ، الباهر ، ص ٨٤-٨٥.

الفصل التاسع
النظم العسكرية
الجيش – الإقطاع – الاتابكية

١– الجيش :

قامت امارة زنكي في ظروف سياسية وحربية معقدة، حيث انتشرت في منطقة الموصل والجزيرة والجبال والشام مجموعه من الإمارات المحلية المتنافسة فيما بينها والتي كان بقاؤها وتوسعها يعتمد على امكانياتها العسكرية، فضلا عن وجود الصليبيين الذين كانوا يهددون هذه المناطق بالاعتداءات المستمرة والهجمات الشديدة، وكان هدف زنكي الرئيسي كما راينا هو القضاء على الإمارات المحلية في هذه المناطق وتوحيدها في جبهة اسلامية واحدة ليستطيع مجابهة الصليبيين. لذلك كان عليه ان يعتني بامر قواته العسكرية، وينظم جيشا قويا ليحقق به اهدافه تلك.

لا تقدم المصادر سوى معلومات مختصرة عن جيش زنكي وبخاصة (ديوان الجيش)، وتكاد تكتفي بمجرد الاشارات عن الجوانب الأخرى للموضوع، كفرق الجند وطوائفهم، وعناصر الجيش ومقراته، ورواتب المقاتلين ومصادرها، واستدعاء الجيوش واساليب القتال، ومعتقلات الاسرى وطبيعة معاملتهم، مما سنحاول ان نلقي عليه ما يتيسر من الاضواء.

ديوان الجيش :

نظم زنكي (ديوان الجيش) ليقوم بالاشراف على امور الجند وتنظيمهم وتوزيع رواتبهم واعطياتهم بانتظام[٥٥٤] ، وجعل على راس هذا الديوان موظفا اعلى يطلق عليه (امير حاجب)[٥٥٥] ، تختلف وظيفته عن وظيفة الحجاب القدماء، اذ ان عمله هو ان (ينصف بين الامراء والجند، تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان، وتارة بمراجعة النائب، واليه تقديم من يعرض

---

(٥٥٤) ابن القلانسي ، ص ٢٨٥ ، الكامل ١١–٤٥ ، زبدة الحلب ٢–٢٨٥–٢٨٦. أبو شامة ١–١٠٨ ، ابن خلكان ٢–٨٠ ، سبط بن الجوزي ، مرآة ٨–١٩٠–١٩١.

(٥٥٥) بغية الطلب : حاشية زبدة الحلب ٢–٢٨٥–٢٨٦.

ومن يرد، وعرض الجند، وما ناسب ذلك)[٥٥٦] ، كما كان ينظر في (مخاصمة الاجناد واختلافهم في امور الاقطاعات ونحو ذلك)[٥٥٧].

ذكر ابن الاثير انه (كان لزنكي جماعة كثيرة من الخراسانية في الركاب (اي ما يشبه الحرس الخاص المرافق للامير)، لهم الجامكيات[٥٥٨] الوافرة، وكان في الديوان من يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة اشهر مرة، ففي بعض السنين تاخرت (رواتبهم) تاخرا يسيرا، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم (زنكي) مجتمعين، فعلم انهم يشكون شيئا، فارسل اليهم وسالهم عن حالهم فذكروه له فقال لهم : اشكوتم إلى الديوان ؟ قالوا : لا. قال : فهل ذكرتم حالكم.. للامير حاجب ؟ قالوا : لا. قال : فلاي شيء اعطي الديوان مائة الف دينار واعطي الامير حاجب اكثر من ذلك، اذا كنت انا اتولى الامور صغيرها وكبيرها ؟.. كان عليكم ان تشكوا حالكم إلى الديوان، فان اهملوا امركم قلتم (لامير حاجب)، فان اهمل امركم شكوتم الجميع الي حتى اعاقبهم على اهمالكم، واما الان فالذنب (عليكم). ثم امر بتاديبهم وقطع (رواتبهم)، حتى شفع فيهم بعض الامراء فعفا عنهم. ثم احضر موظفي الديوان وامير حاجب وقال لهم : اذا كنتم تهملون امر جندي الذين تحت ركابي، ومن هو ملازمي في سفري واقامتي، وبهم من الحاجة إلى النفقات في اسفارهم ما تعلمونه، فكيف يكون حال من بعد عني؟ وانكر عليهم ذلك، فخرجوا من عنده وفرقوا في الاجناد من اموالهم إلى حين وصول (رواتبهم). فاخذوا عوض ما اخرجوه)[٥٥٩] ، ويعلق ابن الاثير على هذه الحادثة قائلا بان زنكي بهذا الاجراء (اصلح الجند لطاعة الديوان واصلح الديوان للنظر في مصالح الجند، وعظم نفسه عن ان يخاطب في هذا الامر الحقير، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأموره)[٥٦٠].

ويوضح هذا النص امورا مهمة تتعلق بديوان الجيش وموظفيه والمشرف عليه، وكيفية سير الامور، وتوزيع الرواتب، فعبارة (ثم احضر الديوان) تشير إلى وجود مجموعة من الموظفين

---

(٥٥٦) الباهر ، ص ٨٣.

(٥٥٧) المصدر السابق ، ص ٨٣.

(٥٥٨) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٤-١٩.

(٥٥٩) المقريزي ، الخطط ، ٢-٢١٩.

(٥٦٠) الجامكيات : هي الرواتب العامة : محمد مصطفى زيادة ، حاشية السلوك للمقريزي ، ١-٥٢. وفي القلقشندي ان نفقة مماليك السلطان كانت عبارة عن (جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك) (صبح الاعشى ٣-٤٥٧) مما يشير الى ان الجامكيات كانت رواتب نقدية.

الذين كلفوا بادارة شؤون الديوان وكانوا يخضعون للاشراف المباشر لامير حاجب ويتلقون الاوامر منه، وفي حالة عدم قيامهم بواجباتهم بالشكل المطلوب، كان على اهل الشكوى من الجند تقديم شكواهم إلى (امير حاجب) باعتباره المسؤول الاعلى في الديوان، فاذا لم يقم هذا ايضا بحل مشاكلهم فان المشكلة انذاك تنتقل إلى زنكي، وهذا يشير إلى السلطة الواسعة التي خول بها (امير حاجب) في قضايا الجيش، اذ كان عليه ان يتلافى الاخطاء التي يتورط فيها موظفو الديوان دون الرجوع إلى زنكي.

وكان على الديوان ان يقوم بجمع الرواتب من (جهاتها) التي لم يحددها ابن الاثير، وتوزيعها على الجند كل ثلاثة اشهر وبشكل منظم، والا تعرض موظفو الديوان للتانيب أو العقاب، وكانت هذه الرواتب تدفع نقدا، وقد تجاوز مقدارها المائتي الف دينار، يصرف نصفها لحساب امير حاجب والنصف الاخر لحساب الديوان كي يقوم هذان الطرفان بصرفها على الجند بعد استقطاع مخصصاتهم التي لم يحددها النص السابق.

ولا يوجد ما يوضح اصناف موظفي ديوان الجيش – فيما عدا امير حاجب – وماهية مناصبهم، وعددهم، والاعمال التي كلف بها كل منهم، والشروط التي اشترطت فيهم. ويشير ابن الاثير إلى ان ديوان زنكي كان يتصف (بكثرة التجمل، ونفاذ الامر وعظم الحاشية والخرج.. فكان الانسان اذا قدم عسكره لم يكن غريبا، فان كان جنديا اشتمل عليه الاجناد واضافوه وقاموا بما يحتاج اليه لكثرة اموالهم، وان كان القادم صاحب ديوان، قصد منزلة الديوان فراى من توفرهم عليه ونظرهم في مصالحه ما يكون كانه في اهله .. وسبب ذلك انه كان يخطب ذوي الهمم ويوسع عليهم في ارزاقهم)[٥٦١]. وهذا يشير إلى ان ديوان الجيش بلغ حدا كبيرا من الاتساع : في موظفيه، ومخصصاته المالية، واجهزته، واهتمام زنكي وبقية المسؤولين فيه.

وكان امير حاجب – في الوقت نفسه – احد قواد زنكي الكبار، وربما قائده الاعلى، اذ وصف بكونه (اكبر امير مع زنكي)[٥٦٢] ، واشترك معه في قيادة الجيش والمعارك الحربية.

---

(٥٦١) الباهر ، ص ٨٣.

(٥٦٢) المصدر السابق ، ص ٨٣.

أمير حاجب زنكي :

تولى صلاح الدين بن ايوب الياغسياني، منصب امير حاجب لدى زنكي، ويرجع سبب ذلك إلى الدور الذي لعبه في تولية الاخير على الموصل، اذ كان احد عضوين في الوفد الذي توجه إلى بغداد عام (٥٢١هـ) لمفاوضة المسؤولين حول اقرار الوضع في المنطقة. وقد وعده زنكي بتوليته منصب امير حاجب حالما يستقر في الموصل، فلما دخلها عام (٥٢١هـ) ولاه هذا المنصب الهام(٥٦٣). وقد ظل الياغسياني يلازم زنكي في حله وترحاله، واعتمد عليه هذا في مهامه العسكرية، وجعله احد قواده الكبار، وكلفه بقيادة جيشه في عدد من المعارك والمهام العسكرية(٥٦٤).

وقد كافأ زنكي موظفه الكبير هذا، بناء على خدماته العديدة في الادارة والحرب، فاقطعه حماة (عام ٥٢٤هـ)(٥٦٥) وردها اليه بعد ان استعادها ثانية من حكام دمشق عام (٥٢٩هـ)(٥٦٦)، كما اقطعه حصن الخربة عام (٥٣١هـ)(٥٦٧) ، وكفر طاب عام (٥٣٢هـ)(٥٦٨). وقد بقي الياغسياني في منصبه كامير حاجب وقائد، وتقدم لدى زنكي (بالمناصحة وسداد التدبير، وحسن السفارة وصواب الرأي)(٥٦٩). ولذلك لم يعترضه أو يقيله من منصبه طيلة فترة حكمه.

تنظيم الجيش وعناصره :

ان معلوماتنا عن تنظيم جيش زنكي والعناصر التي شكلته، مقتضبة اذا قورنت بما نعرفه عن تنظيم جيش الايوبيين والمماليك القائم على التقسيم العشري، حيث ينظم الامراء المشرفون على الجند بشكل متدرج يلقب اكبرهم بمقدم الف ويليه امير اربعين ثم امراء العشرات فالخمسات الذين يعتبرون من اكابر الاجناد، وهو التنظيم الذي نقله السلاجقة من اوطانهم

---

(٥٦٣) الباهر ، ص ٨٣ ، ونقل عنه كل من ابي شامة ، الروضتين ١-١١٤ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١-١٠٦.

(٥٦٤) الكامل ١١-٢١ ، ابن خلدون ، العبر ٥-٥٨.

(٥٦٥) الكامل ١٠-٢٤٦ ، الباهر ، ص ٣٥.

(٥٦٦) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٨ ، ابن منقذ ، الاعتبار ص ٩٩-١٠٠ ، الكامل ١-٢٤٨ ، ١١-٢١ ، زبدة الحلب ٢-٢٦١ ، ٢-٢٦٨.

(٥٦٧) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٩٧-٩٨ ، مفرج الكروب ١-٥٣.

(٥٦٨) زبدة الحلب ٢-٢٥٩.

(٥٦٩) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٧٨.

الاولى بعد ان عدلوا فيه[٥٧٠]، ومن المرجح ان زنكي اتبع هذا التنظيم، باعتبار ان نظمه هي استمرار للنظم السلجوقية من جهة[٥٧١]، واساس للنظم الايوبية والمملوكية من جهة اخرى[٥٧٢].

توجد اشارات متفرقة عن بعض العناصر التي كانت تشكل جيش زنكي، فهنالك (الخراسانيون) الذين كانوا (يخدمون في الركاب)، اي ما يشبه الحرس الخاص المرافق للامير، كما يتضح من قول ابن الاثير بانه كان لزنكي (جماعة كثيرة خراسانية في الركاب)، وانه انب ديوانه لاهماله امر رواتبهم قائلا : (اذا كنتم تهملون امر جندي الذين تحت ركابي ومن هو ملازمي في سفري واقامتي ...)[٥٧٣]. وكان هؤلاء يتقاضون رواتب عالية، اذ كانوا بحاجة إلى النفقات في اسفارهم وتحركاتهم المستمرة[٥٧٤] ، كمرافقين لزنكي، يتنقلون معه حيثما ذهب.

ولم تقتصر مهمة هؤلاء الخراسانيين على حراسة زنكي ومرافقته، بل اشتركوا في الحروب وفي عمليات الحصار وتخصصوا فيها، وقد ورد ذكرهم في حصار حصن الصور (في ديار بكر) عام (٥٢٨هـ)، حيث لعبوا دورا مهما، كما كان لهم دور فعال في فتح الرها عام (٥٣٩هـ)، حيث يشير ابن القلانسي إلى ان (الخراسانيين العارفين بمواضع النقوب.. نقبوا عدة مواضع عرفوا امرها) ثم احرقوا فيها الاخشاب فوقعت بعض اجزاء السور ودخل المسلمون المدينة[٥٧٥].

ولم تشر المصادر إلى مصدر هؤلاء الخراسانيين، وفيما اذا كان زنكي قد جاء بهم من بغداد عند توليته الموصل عام (٥٢١هـ) بعد ان اغراهم ومناهم، ام كانوا مقيمين في الموصل منذ فترة سابقة ؟ وبالرغم من ان الخراسانية كانوا يشكلون فرقة مستقلة[٥٧٦] ، فان المصادر لم تشر إلى امرائها وطبيعة تنظيمها، ومدى علاقتها بالقوات الأخرى في جيش زنكي.

---

(٥٧٠) المصدر السابق ، ص ٤٥.

(٥٧١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٧ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-٢٨٦.

(٥٧٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ٤-١٤-٢٨ ، ١٠-٥١ ، المقريزي ، الخطط ، ٢-٢١٥-٢١٩ ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، حاشية السلوك للمقريزي ١-٢٣٩ ابن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١١-١٢٠.

(٥٧٣) المقريزي ، السلوك ، حاشية ١-١-٢٣٩.

(٥٧٤) القلقشندي ، صبح الاعشى ٤-٥.

(٥٧٥) الباهر ، ص ٨٣.

(٥٧٦) المصدر السابق ، ص ٨٣.

ومن العناصر الأخرى في الجيش، التركمان، وكانوا يشكلون اعدادا كبيرة، اذ يشير ابن القلانسي إلى ان زنكي عندما حاصر الرها عام (٥٣٩هـ) (كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها (اي على الرها) واداء فريضة الجهاد، فوصل اليه منهم الخلق الكثير، بحيث احاطوا بها من جميع الجهات وحالوا بينها وبين ما يصل اليها من الميرة والاقوات)[٥٧٧]. وقد استفاد زنكي من التركمان لجهاد الصليبيين بالدرجة الاولى، وقام (بنقل طائفة من التركمان الايوانية مع اميرهم (الياروق) إلى الشام واسكنهم بولاية حلب، وامرهم بجهاد الفرنج، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي لهم.. فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم.. ولم يزل جميع ما فتحوه بايديهم إلى سنة ٦٠٠هـ)[٥٧٨]. وقد استفاد الامير سوار بن ايتكين التركماني، نائب زنكي في حلب، من التركمان في غاراته ضد الصليبيين في شمالي الشام واستطاع ان يحقق بواسطتهم انتصارات عديدة[٥٧٩].

وكان التركمان ينتشرون في معظم انحاء الشام وبخاصة مناطق الفرات (وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة)[٥٨٠]. ويعدد القلقشندي عشرة طوائف من تركمان الشام، ويضيف بان هناك جماعات كثيرة أخرى لا يمكن استيعابها[٥٨١]. لذلك كان زنكي (يمضي إلى الفرات لجمع التركمان)[٥٨٢] قبل القيام بمعاركه المهمة، اذ كان هؤلاء، باعدادهم الضخمة ومرانهم في الحرب، وشجاعتهم، يشكلون اهم عنصر في جيشه.

واغلب الظن ان معظم الذين استخدمهم زنكي في حروبه لم يكونوا جنودا نظاميين، بل كانوا يجتمعون لمساعدته اثناء استنفارهم، حيث يتطوعون في جيشه حبا في الجهاد وطلبا للغنيمة، ثم يتفرقون بعد انتهاء المعركة التي استدعوا من اجلها، وربما اتخذ سوار (نائب زنكي في حلب) من بعض هؤلاء التركمان جنودا نظاميين كي يستعين بهم كقوة ثابتة في جهاد الصليبيين.

---

(٥٧٧) ص ٢٧٩.

(٥٧٨) الباهر ، ص ٨٣.

(٥٧٩) ص ٢٧٩.

(٥٨٠) الباهر ، ص ٨٠ ، ونقل عنه ابو شامة ، الروضتين ١-١١١-١١٢ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١-١٠٣.

(٥٨١) انظر فصل (زنكي والصليبيون).

(٥٨٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ٧-١٩٠.

وترد اشارات متعددة عن (الحلبيين) كقوة عسكرية اشتركت في معارك عديدة ضد الصليبيين في شمالي الشام بقيادة الامير سوار، وقامت بدور اساسي في الدفاع عن حلب وبعض المدن الأخرى القريبة، عند هجوم الامبراطور البيزنكي المتحالف مع الصليبيين على هذه المنطقة عام (٥٣٢هـ)[٥٨٣]. كما قام (الحلبيون) بدور هام في فتح الرها عام (٥٣٩هـ)، جنبا إلى جنب مع الخراسانيين، اذ كان في (الحلبيين) ايضا من هو (عارف بمواضع النقوب)، فنقبوا عدة مواضع مع الخراسانيين واشعلوا فيها النار مما ادى إلى انهيار بعض اجزاء السور ودخول المسلمين إلى الرها[٥٨٤] .

وقد كان هؤلاء (الحلبيون)، من سكان حلب الاصليين، اي من العرب، بدليل ما اورده ابن العديم من ان زنكي كان يجبر فلاحي حلب على الالتحاق بجيشه في اوقات القتال[٥٨٥]، ويظهر ان هؤلاء كانوا يتركون الجيش ويعودون إلى اعمالهم الزراعية بعد انتهاء القتال، ولا ريب انهم كانوا يتقاضون اجورا على اشتراكهم في المعارك، سواء كانت ارزاقا معينة، ام ما يحصلون عليه من الغنائم.

وقد ذكر ابن واصل ان زنكي رحل إلى ارض حماه عام (٥٣٣هـ) (واستصحب من اهلها تسعة الاف راجل يخدمون الركاب)[٥٨٦] ، اي للقيام بمهمة الحشم في خدمة الجيش وامرائه في حلهم وترحالهم، فضلا عن حراسة زنكي الخاصة، مما يشير إلى ان هذا اعتمد على اهالي الشام في كثير من الامور الحربية.

هذه هي العناصر التي تشير المصادر اليها، والتي اسهمت في تشكيل جيش زنكي بقسميه من النظاميين (أو المرتزقة) والمتطوعين. ولا ريب ان زنكي اعتمد على عناصر أخرى كالبدو والاكراد، وربما كانت قلة أهمية هؤلاء بالنسبة لعناصر الجيش الأخرى سببا في اغفال المؤرخين لهم.

ويظهر مما سبق ان عدد جيش زكي لم يكن ثابتا، بل كان عرضة للزيادة والنقصان بما ينضم اليه من المتطوعين من حين لآخر، وقد حاول زنكي ان يضمن وجود مورد عسكري بشري ثابت، ففرض التجنيد الاجباري على بعض المناطق القريبة من مواطن الخطر، ولذلك

---

(٥٨٣) المصدر السابق ٧-٢٨٢.

(٥٨٤) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٣١.

(٥٨٥) زبدة الحلب ٢-٢٦٤-٢٦٨ ، وانظر (فصل زنكي والصليبيون).

(٥٨٦) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩.

(كان يلزم اهل حلب بجمع الرجالة للقتال والحصار، فان كان ذلك في جهاد الكفار، فقد كان بحلب عليهم ذلك وله الزامهم به)[٥٨٧]. ولم تذكر المصادر فيما اذا كان زنكي قد فرض التجنيد الاجباري على المناطق الأخرى من امارته، ولعل أهمية موقع حلب وقربها من الصليبيين حتم عليه اتخاذ هذا الاجراء. ويظهر انه كان حر التصرف في استخدام من يشاء للاغراض الحربية، ففي عام (٥٣٣هـ) على سبيل المثال، مر بأرض حماة (واستصحب من اهلها تسعة الاف راجل يخدمون الركاب)[٥٨٨]. وفي عام (٥٣٩هـ) طلب من قواته التجهز لحصار (الرها) وهدد من (تأخر عن صحبته، واخبرهم انه لا يقبل عذرا من احدهم)[٥٨٩]. مما يشير إلى وجود نوع من التجنيد الاجباري في اوقات الحاجة.

وهنالك اشارات محدودة عن معسكرات الجند، ففي شتاء احدى السنين قدم زنكي إلى جزيرة ابن عمر، فنزل بالقلعة، وعسكر جنده في الخيام خارج المدينة[٥٩٠] ، الامر الذي يشير إلى وجود معسكرات غير ثابتة في الحالات الطارئة، اما في الحالات الدائمة، فقد كان زنكي يقيم حامية عسكرية في كل مدينة أو حصن يفتحه بعد ان يقطع اراضيها لامراء الحامية وجنودها[٥٩١] ، وهذا يؤكد وجود معسكرات ثابتة في مختلف المناطق التابعة لزنكي، ولم تحدد المصادر فيما اذا كانت سكنى الجند داخل القلاع ام خارجها ؟.

استخدمت الخيل على نطاق واسع في جيش زنكي، ووردت اشارات عديدة عن اهتمام قواته بها واستخدامها في مختلف الحروب، وفي الهجمات السريعة، وبالرغم من ان فن الفروسية لم يكتمل في عهد زنكي، ولم تؤلف عنه كتب ورسائل كما حدث بعدئذ[٥٩٢] ، إلا ان اسامة ابن منقذ يقدم في كتابه (الاعتبار) بعض اللمحات عن هذا الفن وعن الخيول في عهد زنكي[٥٩٣]،

---

(٥٨٧) بغية الطلب ، حـ ٨ ، ورقة ٢١١ ، وحاشية زبدة الحلب ٢-٢٨٤.

(٥٨٨) ص ١-٨٤ .

(٥٨٩) ابن العديم ، بغية الطلب ، حـ ٨ ، ورقة ٢١١ ، وحاشية زبدة الحلب ٢-٢٨٤.

(٥٩٠) ابن واصل : مفرج الكروب ١-٨٤.

(٥٩١) الباهر ، ص ٦٨.

(٥٩٢) الكامل ١١-٤٥ ، الباهر ، ص ٧٦-٧٧ ، ونقل عنه : ابو شامة ، الروضتين ١-١١٠.

(٥٩٣) الكامل ١٠-٢٤٧-٢٤٨ ، ١١-٣٩ ، الباهر ، ص ٦٦ ، ٦٩.

فكان الفارس يلبس الزرديه، أو الكزاغند (أي الدرع) والخوذة، ويقاتل بالسيف احيانا وبالدبوس احيانا أخرى[٥٩٤].

وقد جرى التنافس بين قوات زنكي لاقتناء الخيول الحسنة[٥٩٥] ، وكان للامراء ركائبيون واصطبلات خاصة لخيولهم[٥٩٦] ، ويشير ابن العديم إلى استخدام الخيل في معارك عام (٥٣٢هـ) ضد الروم والصليبيين[٥٩٧] ، وقد اعتمد الامير سوار نائب زنكي في حلب على الخيول في غاراته التي شنها ضد الصليبيين[٥٩٨]. ولا توجد اية اشارة عن تنظيم الفرسان في جيش زنكي، وعن رواتبهم ومعاملتهم، وعما كان بينهم وبين المشاة (الرجالة) من فروق.

وهنالك اشارات مختصرة عن تنظيم النقل في جيش زنكي، اذ يشير ابن منقذ إلى استخدام زنكي للبغال[٥٩٩]. ويظهر ان حروبه الجبلية دفعته إلى ذلك، كما استخدمت الابل في مناطق الجزيرة المستوية في الظروف التي تطلبت السرعة[٦٠٠].

---

(٥٩٤) ألفت في العصر المملوكي في مصر مجموعة من الكتب والرسائل التي تناولت فنون الفروسية وفصلت فيها مثل : (نهاية السول والامنية في تعليم الفروسية) تاليف ابن لاجين الحسامي (ت ٧٨٠ هـ) وكتاب (فن الحروب وعلم الفروسية) لمؤلف مجهول ، وغيرها. (انظر علي ابراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، ص ٢٧٢–٢٧٣ ، ونظير حسان سعداوي ، التاريخ الحربي المصري (المقدمة ، و–ط).

(٥٩٥) انظر الصفحات : ٤٦ ، ٥٩–٦٠ ، ٩٧–٩٨ ، ٩٩–١٠٠ ، ١٤٤ ، ١٥٠–١٥١ ، ١٥٧ من كتاب الاعتبار.

(٥٩٦) ابن منقذ ، الاعتبار ص ٩٨ ، ١٤٤ ، وانظر ، ص ١٠٠ (نفس المصدر) عن تركيب الكزاغند.

(٥٩٧) المصدر السابق ، ص ٤٦.

(٥٩٨) المصدر السابق ، ص ٤٦ ، ٥٩–٦٠.

(٥٩٩) زبدة الحلب ٢–٢٦٤–٢٦٧.

(٦٠٠) انظر فصل (زنكي والصليبيون).

استدعاء الجيوش واساليب الحرب :

قبيل اعلان الحرب، كان زنكي يستدعي قوات من المتطوعين لتنضم إلى جيوشه النظامية المجهزة[٦٠١]. فعندما عزم على فتح الرها عام (٥٣٩هـ) (كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها، واداء فريضة الجهاد فوصل اليه منهم الخلق الكثير)[٦٠٢] ، كما كان يمر – في طريقه إلى الحرب – ببعض مدن امارته ويجمع منها الجند ليضيفهم إلى قواته كما فعل مع اهالي حلب[٦٠٣] ، وحماة[٦٠٤]. وكان الجهاد ضد الصليبيين احد الدوافع المهمة في اشتراك المتطوعين في حروب زنكي وخصوصا التركمان، كما كانت الرغبة في الغنائم، والخوف من سلطة زنكي[٦٠٥] ، من الدوافع الأخرى لذلك.

وهنالك اشارات عديدة عن طرق القتال واساليبه، خاصة فيما يتعلق بحروب الاسوار ومهاجمتها، ذلك ان معظم المعارك التي خاضها زنكي كانت عبارة عن هجمات ومحاصرة للحصون الكثيرة المنتشرة في منطقة الجزيرة والشام، اما المعارك المفتوحة فانها كانت اقل من حروب الاسوار بشكل ملحوظ ولذلك قلت الاشارات عن الاساليب التي اتبعت فيها.

كان للجواسيس أهمية كبيرة في المعارك التي خاضها زنكي، وكانوا ينتشرون في مناطق العدو، ويطلعون اميرهم على تحركاته وامكانياته لكي يكون على بينة من الامر، وكان زنكي يحدد موقفه الحربي احيانا بناء على ما يقدمه هؤلاء من معلومات[٦٠٦]. ومن ثم يتجه، هو أو احد قواده، على راس الجيش لفرض الحصار، فاذا ما استدعت الظروف السرعة في السير اتخذ من الوسائل ما يكفل ذلك، ففي عام (٥٢٨هـ) على سبيل المثال، توجه إلى (خلاط)، واراد الوصول اليها بسرعة، فسلك طريقا، عبر الجبال، غير الطريق المسلوك، وكان جنده يستريحون، كل واحد في موضعه، دون خيام[٦٠٧].

---

(٦٠١) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥٩–٦٠.

(٦٠٢) الباهر ، ص ٦٨.

(٦٠٣) انظر موضوع (تنظيم الجيش وعناصره) من هذا الفصل.

(٦٠٤) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩.

(٦٠٥) ابن العديم ، بغية الطلب ، حـ ٨ ، ورقة ٢١١و ، حاشية زبدة الحلب ٢–٢٨٤.

(٦٠٦) ابن واصل : مفرج الكروب ١–٨٤.

(٦٠٧) الباهر ، ص ٦٨.

وعندما توجه لحصار الرها عام (٥٣٩هـ) استعان على السرعة بركوب النجائب (أي الإبل صغيرة العمر)[٦٠٨].

وتقدم المصادر بعض التفصيلات عن اساليب حروب الاسوار، ففي حصار الرها، تقدم زنكي – اولا – إلى اهل الحصن بتسليمه له دون ان يضطر إلى تخريبه، فلما رفضوا، امر المنجنيقات بالضرب (وقدم الشجعان لنزاله) على شكل زحوف مستمرة لقتال الحامية، وفي الوقت نفسه، كان النقابون (العارفون بمواضع النقوب) يعملون على نقب بعض المناطق الواقعة تحت الابراج، وبعد ذلك وضعوا فيها الاخشاب واحرقوها فسقطت الابراج واحترق السور واندفع جند زنكي إلى داخل الحصن[٦٠٩].

كما اتبع زنكي في هذا النوع من القتال اسلوب الاشتباك مع حامية الحصن حالما يفسح المجال بذلك، اذ تبدا المنجقيات – اولا – بضرب الاسوار، وما ان تحدث بعض الفتحات، حتى يقوم عدد من جنده بهجوم سريع على تلك المناطق والاشتباك مع الحامية، فاذا ماقضوا على المدافعين فتحوا الطريق امام الجيش للدخول إلى الحصن والاستيلاء عليه[٦١٠].

وكان زنكي يؤكد في حصاره للحصون على الناحية التموينية، فيفرض حصارا اقتصاديا على الحصن، فضلا عن الحصار العسكري[٦١١]. كما كان يؤكد على اثارة حماسة الجند بان يشترك هو نفسه في الهجوم على الاسوار كما حدث في معركتي عقر الحميدية عام (٥٢٨هـ)[٦١٢]، والرها عام (٥٣٩هـ)[٦١٣].

أما في الحروب المفتوحة، فقد اتبع زكي الاسلوب السائد في ذلك الوقت، حيث تقسم القوات إلى عدة مجموعات على راس كل منها امير : ميمنة، قلب، ميسرة، مقدمة، مؤخرة. كما نجد اشارات عديدة عن براعة زنكي وقواده في استخدام الاساليب المختلفة في القتال كنصب

---

(٦٠٨) الكامل ١١–٤٠ ، الباهر ، ص ٦٨ ، ونقل عنه ، ابو شامة ، الروضتين ١–٩٥ وابن واصل : مفرج الكروب ١–٩٣.

(٦٠٩) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٨٨–٨٩.

(٦١٠) الباهر ، ص ٦٨.

(٦١١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ، الكامل ١١–٤١ ، الباهر ، ص ٦٨–٦٩ ، وينقل عنه : ابو شامة ، الروضتين ١–٩٤–٩٥ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١–٩٤.

(٦١٢) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٥٥.

(٦١٣) ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩ ، الكامل ١١–٢ ، الباهر ، ص ٤٧ ، ٦٢ ، ونقل عنه ابو شامة ، الروضتين ١–٨٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١–٧٣.

الكمائن[٦١٤] ، وفي الحالات التي كانوا يرون فيها ان من الخطورة الدخول بمعارك مفتوحة مع العدو، اما لقلة عددهم، أو لعدم ملائمة الظروف العسكرية لهذا النوع من القتال، في هذه الحالات، كان زنكي وقواده يلجاون إلى شن الغارات على معسكرات العدو والانسحاب بسرعة، وكانوا يستهدفون من ذلك اقلاق تلك المعسكرات ونشر الخوف والفوضى في صفوفها وذلك بما يحدثونه في اطرافها من قتل واختطاف ونهب وتخريب، مما يؤدي، ايضا، إلى اضطراب في تموين العدو، وهو عامل هام لاضعافه، وقد حققت هذه الاساليب انتصارات عديدة لزنكي ورجاله[٦١٥]. وكان زنكي – احيانا أخرى – يمارس ضغطه الاقتصادي ضد اعدائه عن طريق القيام بعمليات النهب والتخريب في المناطق التي تمد حصون هؤلاء بالتموين، كما حدث في منطقة حمص في السنوات التي سبقت الاستيلاء عليها عام (٥٣٢هـ)[٦١٦] ، وفي حصاره لدمشق عام (٥٣٤هـ) حيث احرق عدة قرى من المرج والغوطة، وشن الغارات على حوران واعمال دمشق للنهب والتخريب[٦١٧].

أما عن الاسلحة التي استخدمتها جيوش زنكي، فقد ورد ذكر عدد منها كالدبوس، وهو الة من حديد ذات اضلاع، والرماح، والسيوف، والقوس والسهم والنشاب. وبما ان معظم الحروب التي خاضتها كانت (حروب اسوار)، فان اهم الاسلحة التي استخدمتها كانت ولا ريب المنجنيقات، فضلا عن مجموعة من الالات الحربية التي تستخدم لهذا الغرض، وبالرغم من عدم تحديد المصادر لهذه الالات، والاشارة اليها دائما بلفظ التعميم (كالآلات المنتخبة)[٦١٨] ، وآلات الحرب[٦١٩] ، إلا انها كانت، ولا ريب، كتلك التي استعملت في تلك المرحلة من التاريخ بصورة عامة واهمها : الدبابة والكبش والقلعة المتحركة، والتي كانت تستخدم جميعا لنقل الجند والمعدات

---

(٦١٤) الباهر ، ص ٨٠.

(٦١٥) الكامل ١١–٤٠–٤١ ، ونقل عنه : ابن واصل مفرج الكروب ١–٩٣–٩٤.

(٦١٦) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٩.

(٦١٧) المصدر السابق ، ص ٢٦٤ ، الكامل ١١–٢٣–٢٤ ، الباهر ، ص ٥٥–٥٦ ونقل عنه : ابو شامة ، الروضتين ١–٨١–٨٣ ، وابن واصل مفرج الكروب ١–٧٨–٧٩ ، ٨١–٨٣ ، وانظر فصل (زنكي والصليبيون).

(٦١٨) الكامل ، ص ١٦.

(٦١٩) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٢–٢٧٣ ، الكامل ١١–٣٠–٣١ ، ونقل عنه ابن واصل : مفرج الكروب ١–٨٨–٨٩.

الحربية إلى الاسوار لكي تحميهم من سهام الاعداء ونيرانهم[٦٢٠]. كما استعمل جند زنكي النار العادية لحرق ابراج الاسوار بعد نقبها وملئها بالخشب[٦٢١]. وبلغت اسلحة زنكي من الكثرة في احدى المعارك بحيث قال عنها الشاعر : (ظنا البر بحرا من سلاح)[٦٢٢]. ولم ترد اشارة فيما اذا كان هناك محزن لحفظ الاسلحة له مشرفه وموظفوه، كما لم ترد اشارة عن مصدر هذه الاسلحة سواء صنعت محليا ام استوردت من الخارج، وهل كان الجندي يجهز نفسه بها ام تقوم الدولة بتجهيزه ؟

هناك اشارة عن وجود (جرائحي) لعلاج مصابي الحرب[٦٢٣] ، وربما كان ذلك دليل على وجود مجموعة، أو (هيئة طبية) ترافق جد زنكي لاسعاف الجرحى.

من الممكن القول بان الاعتبارات السياسية والعسكرية كانت تحدد سلوك الجند وامرائهم تجاه سكان وحاميات المدن المفتوحة، ففي عام (٥٣٣هـ) على سبيل المثال، فتح زنكي حصن بزاعة بالسيف (وقتل كل من فيه من الروم والفرنج)[٦٢٤] ، كرد انتقامي على سلوك الروم والصليبيين تجاه المسلمين لدى استيلائهم على هذا الحصن ومعاملتهم لاهله بوحشية بالغة[٦٢٥] ، كما ان هذا الحصن كان يشكل مركزا عسكريا مهما لقربه من حلب، ومن ثم فان وجود اية جماعة تؤيد الصليبيين فيه يشكل خطرا على المنطقة كلها. وكذلك يمكن القول في موقف زنكي عند فتح الرها عام (٥٣٩هـ)، بعد مقاومة شديدة، دفعته إلى اطلاق الحرية لجنده وامرائه في الايام اولى من الفتح، فملاوا ايديهم من الغنائم والاسلاب والاسرى، لكنه لدى اطلاعه على البلد (اعجبه منظره فاسف لمثله من الخراب، ورای ان خرابه واخلاءه غير مستحسن، فامر باعادة ما اخذ من الغنائم والسبي، فردوا، وعاد البلد عامرا، اهلا بالسكان، بعد ان كان داثرا)[٦٢٦]. وهكذا نجد ان موقف زنكي بالسماح لجنده بالنهب والاسر كان ذا اعتبار عسكري بسبب المقاومة العنيفة التي ابداها الصليبيون، وان موقفه بعد ذلك في ايقاف تلك الاعمال كان ذا اعتبار

---

(٦٢٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩.

(٦٢١) المصدر السابق ، ص ٢٨٢.

(٦٢٢) انظر : علي ابراهيم حسن ، تاريخ المماليك ، ص ٢٧٦ ، عن : ابن ارنبغا الزرد كاشي (الانيق في المجانيق) ، مخطوط ، ورقة ٧٢-٨٨.

(٦٢٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ، ونقل عنه : الباهر ، ص ٦٩.

(٦٢٤) الباهر ، ص ٦٨.

(٦٢٥) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥٩-٦٠.

(٦٢٦) مفرج الكروب ١-٨٣.

سياسي، اذ كان يرمي من وراء ذلك إلى جعل المسيحيين الوطنيين في الرها كتلة واحدة يفيد منها ضد الصليبيين الدين يخالفونهم في المذهب، ولعله اراد ان يستعين بالمسيحيين الوطنيين، بالاضافة إلى الحامية التركية، في المحافظة على الرها بعد طرد القوات الصليبية منها(٦٢٧). ولذلك (اجتهد في مصالح – اهل الرها – ووعدهم باجمال السيرة وبسط العدالة)(٦٢٨). وعلى هذا الاساس ايضا كانت معاملة زنكي لاهل بعلبك وامرائها بعد ان اعطاهم الامان، اذ ان ما اتخذه معهم من شدة وقسوة قصد به اثارة خوف المخالفين له من المسلمين في دمشق(٦٢٩).

أما فيما يتعلق بتوزيع الاسرى والغنائم ومدى خضوع ذلك للتنظيم والاحصاء، فلا توجد ثمة اشارة لتوضيح ذلك، والمرجح ان كل جندي كان يمتلك ما يحصل عليه اثناء القتال من اثاث ودواب وأسرى(٦٣٠). فيما عدا بعض انواع الاسلحة التي كانت تعود إلى الحكومة كالمجانيق، بدليل استيلاء زنكي على مجموعة المجانيق، التي تركها الروم عند شيزر بعد انسحابهم عنها عام (٥٣٢هـ)، ورفعها إلى قلعة حلب(٦٣١). كما لا توجد اشارة عن كيفية معاملة الاسرى، وتبادلهم، ومدى الاستفادة منهم في الاغراض العمرانية والاقتصادية.

علاقة زنكي بجنده :

كان زنكي شديد الهيبة على عسكره(٦٣٢) ، فقد كان (جبارا عظيما ذا هيبة وسطوة)(٦٣٣). وقد ادى ذلك، فضلا عن اعطائه جنده حقهم من الارزاق والرواتب(٦٣٤) ، إلى سيادة النظام في

---

(٦٢٧) الكامل ١١–٢٣ ، الباهر ، ص ٥٥ ، ونقل عنه ابو شامة ، الروضتين ١–٨١ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١–٧٧–٧٨.

(٦٢٨) الكامل ١١–٤١ ، الباهر ، ص ٦٩ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١–٩٥.

(٦٢٩) العريني ، الحروب الصليبية ١–٥٢٧ عن :

Grousset. Croisades 2/188. 191.

(٦٣٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٠.

(٦٣١) العريني ، الحروب الصليبية ١–٥٢٧ : Grousset, Ibid, 2 / 188 - 191

(٦٣٢) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩–٢٨٠ ، الكامل ١١–٤٠–٤١ ، الباهر ، ص ٦٩ ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين ١–٩٥.

(٦٣٣) الكامل ١١–٢٤ ، الباهر ، ص ٥٦ ، ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين ١–٨٢ ، زبدة الحلب ٢–٢٦٨

(٦٣٤) الكامل ١١–٤٥.

صفوف قواته واخضاعهم لطاعته في كل صغيرة وكبيرة، اذ كان عقابه صارما للمخالفين من جنده سيما اذا كانت مخالفتهم على حساب الرعية[٦٣٥].

وقد بلغ زنكي من السطوة والنفوذ لدى جنده انه (اذا ركب مشى العسكر خلفه كانهم بين خيطين، مخافة ان يدوس العسكر شيئا من الزرع، ولا يجسر احد من هيبته ان يدوس عرقا منه، ولا يمشي فرسه فيه. ولا يجسر احد من أجناده ان ياخذ من فلاح حفنة من التبن إلا بثمنها، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية)[٦٣٦].

وكان زنكي يقدر الدور الهام الذي يؤديه الجند في خدمة الامارة، لذلك عني بتوفير الراحة والاستقرار للجندي في كل ما يتعلق به، وبخاصة عائلته وزوجته (فكان شديد الغيرة على الحريم، لا سيما نساء الجند، فان التعرض اليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها) وقد علل ذلك بقوله (ان جندي لا يفارقوني في اسفاري، وما يقيمون عند اهليهم، فان نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن)[٦٣٧]. ولذلك كان يعاقب المتعرضين للنساء اشد العقاب، حتى انه عزل واليه على جزيرة ابن عمر (ثقة الدين حسن البرطي) لتعرضه (للحريم)، ولم يكتف بذلك بل جرده من كل امواله وعاقبه[٦٣٨].

وهكذا قامت علاقة زنكي بجنده على النظام والطاعة والانضباط من جهة، وعلى الود والتعاطف والرافة من جهة أخرى، بسبب ما قدمه للجند من رواتب حسنة، وما شمل به اهليهم من رعاية واهتمام.

الاستخبارات :

كانت الظروف المحيطة بامارة زنكي، تقتضي اليقظة والحذر، اذ كان اعداؤه يحيطون بامارته (احاطة السوار بالمعصم)، وكانت الدسائس تحاك ضده، فاذا ما اضيف إلى ذلك طموح زنكي نحو توسيع امارته على حساب جيرانه، ومحاولة معرفة اوضاع (الجيران) قبل ان يبدا

---

(٦٣٥) زبدة الحلب ٢-٢٨٣.

(٦٣٦) الباهر ، ص ٨٣.

(٦٣٧) المصدر السابق ، ص ٧٦-٧٧ ، الكامل ١١-٤٥ ، ونقل عن ابن الاثير : أبو شامة ، الروضتين ١-١١٠.

(٦٣٨) زبدة الحلب ٢-٢٨٣-٢٨٤ ويضيف ابن العديم عبارة (وان تعدى احد صلبه) ، وبالرغم مما في ذلك من مبالغة الا انه يشير الى مدى صلابة زنكي تجاه جنده.

بعملياتـه، ادركنـا سـبب اهتمامـه بقضـايا (التجسـس والارصـاد) ممـا يمكـن ان نطلـق عليـه اسـم (الاستخبارات).

يبـدو ممـا اوردتـه المصـادر ان زنكـي اقـام جهـازا للتجسـس وخصـص لـه المـوظفين والرواتب، اذ ورد عنـه انـه كـان (شديد العنايـة باخبـار الاطراف ومـا يجري لاصـحابها حتـى فـي خلواتهم، وكان له في بلاط السلطان السلجوقي من يطالعه ويكتب اليه بكل مايفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد، وكان (يصرف) على ذلك الاموال الجليلة) وكان يصل اليه في كل يوم عدة قاصدين (أو كتب)[٦٣٩] ، كما كان له في كل بلد من يطالعه بالاخبار[٦٤٠]. وقد اتصف زنكي بالدراية الواسعة والحذر في هذا المجال (فكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير اذنه، واذا استاذنه رسول في العبور إلى بلاده اذن لـه وارسل اليه من يسيره ولا يتركه يجتمع باحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من احوالها شيئا البتة)[٦٤١] ، كمـا كـان لا يمكـن احـد موظفيـه مـن مغـادرة بـلاده، ويعلـل ذلـك بـان الـبلاد (كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فاذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمـع العـدو فيهـا، زالـت الهيبـة وتطـرق الخصـوم اليهـا)[٦٤٢] وهنالـك عـدد مـن الروايـات حـول هروب بعض موظفيه وفلاحيه إلـى الإمـارات الأخـرى والحاحـه باعـادتهم إلـى امارتـه حتـى لـو اضطره ذلك إلى استخدام القوة[٦٤٣].

وقد قدم جهاز التجسس هذا، خدمات مهمة لزنكي، في ظروف شتى، فقد اطلعه عام (٥٢٥هـ) على اعتقال (دبيس بن صدقة) من قبل حكام دمشق والنتائج التي اعقبت ذلك[٦٤٤] ، ولعب دورا هاما في حصار بعرين عام (٥٣١هـ)[٦٤٥] ، وحصار الرها عام (٥٣٩هـ)[٦٤٦]. كما

---

(٦٣٩) الكامل ١١-٤٥ ، الباهر ، ص ٨٤ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-١١٢-١١٣ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١-١٠٤.

(٦٤٠) الباهر ، ص ٨٤ .

(٦٤١) المصدر السابق ، ص ٧٨ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-١١١ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١-١٠٢.

(٦٤٢) الباهر ، ص ٤٦-٤٧.

(٦٤٣) أبو شامة ، الروضتين ١-١١١ ، مفرج الكروب ١-١٠٢.

(٦٤٤) الباهر ، ص ٧٩ ، ونقل عنه : وابن واصل : مفرج الكروب ١-١٠٣.

(٦٤٥) الباهر ، ص ٧٩-٨٠ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-٢٨٣.

(٦٤٦) الباهر ، ص ٤٦-٤٧.

كان يستخدم للاطلاع على احوال الجند لدى حصارهم بعض المواقع وملاحظة ما يصل اليهم من رواتب وسلاح[٦٤٧]. وكان زنكي مع اشتغاله بامور الدولة الهامة لا يهمل الاطلاع على القضايا الثانوية، معللا ذلك (بان الصغير اذا لم يعرف ليمنع، صار كبيرا)[٦٤٨]. وقد ساعده جواسيسه في هذا المجال ايضا[٦٤٩].

ولم تشر المصادر إلى السلطة العليا التي كان هؤلاء الجواسيس يرتبطون بها، والمرجح انهم ارتبطوا بزنكي مباشرة نظرا لأهمية دورهم السياسي والعسكري، ولانهم كانوا يتسلمون اوامرهم المباشرة منه، كما يتضح من مطالعة النصوص في هذا المجال.

وبدراسة نظم البريد في نشاتها وتطورها في التاريخ الإسلامي، نجد ثمة نقاط تشابه بين بعض هذه النظم وبين استخبارات زنكي من حيث الوسائل والاهداف، فقد كان من جملة اعمال البريد القيام بالتجسس لحساب الخليفة أو الامير، سواء على موظفي الدولة في الداخل أو الاعداء في الخارج[٦٥٠] ، مما يدفع إلى القول بان زنكي لم يبدع هذا النظام، وانه ربما استمده من نظم البريد السابقة.

٢- الإقطاع :

كانت الموصل والجزيرة، في العقود التي سبقت تولي زنكي الموصل، خاضعة للسلاجقة وكان هؤلاء يقطعونها لاحد الامراء الذين يعتمد عليهم، بشرط أن يظل خاضعا لهم، فاذا ما حاول الاستقلال باقطاعه قام السلطان بعزله واقطاع امير اخر بدله حتى لو ادى ذلك إلى قيام الحرب بين الطرفين.

---

(٦٤٧) الكامل ١١-٢١.

(٦٤٨) الباهر ، ص ٦٧-٦٨ ، ونقل عنه : ابن واصل : مفرج الكروب ١-٩٣.

(٦٤٩) الباهر ، ص ٧٨.

(٦٥٠) المصدر السابق ، ص ٧٨ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-١١٠-١١١ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١-١٠٢.

ففي عام (٥٠٢هـ) ارسل السلطان محمد الامير (مودود بن التونتكين) إلى الموصل واقطعه اياها[٦٥١] ، بعد ان جهزه بالجيوش لقتال الصليبيين[٦٥٢] ، فلما قتل مودود عام (٥٠٧هـ) اقطع السلطان هذه المدينة للامير جيوش بك وسير معه ولده الملك مسعود[٦٥٣]. وعندما قام جيوش بك بثورة ضد السلطان عام (٥١٤هـ)، عزله هذا واقطع البرسقي في العام التالي ما كان تحت يد سلفه من البلاد[٦٥٤]. ولما قتل البرسقي عام (٥٢٠هـ) قام بالموصل بعده ابنه عز الدين مسعود (وارسل إلى السلطان يطلب منه ان يقرر البلاد عليه، فاجابه إلى ذلك واقره على ما كان لأبيه من الاعمال)[٦٥٥]. فلما توفي عز الدين مسعود عام (٥٢١هـ) ولي بعده اخوه الاصغر وقام بتدبير دولته جاولي (احد امراء الموصل) الذي ارسل إلى السلطان يطلب ان يقرر البلاد عليهما، وبذل من اجل ذلك اموالا كثيرة[٦٥٦].

وهكذا نجد ان اقطاع الموصل واطرافها في هذه الفترة غدا شبه وراثي، اذ كانت ولاية المقطع تنتقل إلى ابنه أو اخيه بمجرد موافقة السلطان، بيد ان هؤلاء المقطعين كانوا مرتبطين بالسلطان السلجوقي مباشرة، وكانوا (كولاة) يخطبون باسمه ويخضعون لاوامره، سواء بالتوجه لقتال الاعداء في المناطق المحيطة بامارتهم، ام بمساندة نوابه (الشحن) ضد مثيري الفتن في العراق[٦٥٧]. هذا إلى انهم لم يكونوا يتمتعون باستقلال كامل داخل امارتهم، وكان السلطان كلما احس ميلا من احدهم للانفصال عنه اصدر امره بتولية امير اخر يوجهه على راس جيش كبير لينتزع الموصل واعمالها من الوالي السابق بالقوة[٦٥٨] ، ولذلك كان حكام الموصل في هذه الفترة (٥٠٢-٥٢٠هـ) اقرب إلى (الولاة) منهم إلى (المقطعين)، ولم تشر المصادر إلى الالتزامات المالية بين هؤلاء الولاة والسلطان.

---

(٦٥١) الباهر ، ص ٧٨.

(٦٥٢) المسعودي مروج الذهب : ٣-١٨٣ ، ٢٨٤ ، الطبري ، تاريخ الامم والملوك ٣-١، ٣٠٤ ، ٣٩٩ ، ٥٦٠ ، ٣-٢ ، ٧٦٤ ، ٧٨٣ ، ٧٩٣ ، العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٨٥ ، وانظر : نظير حسان سعداوي ، نظام البريد في الدولة الاسلامية ، ص ٥٧-٦٢.

(٦٥٣) الباهر ، ص ١٧ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-٦٨.

(٦٥٤) الكامل ١٠-١٧١.

(٦٥٥) الباهر ، ص ١٩ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-٦٩.

(٦٥٦) الكامل ١٠-٢٢٤ ، الباهر ، ص ٢٤ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ، ١-٧٣.

(٦٥٧) الكامل ١٠-٢٤٢ ، الباهر ، ص ٣٢ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ، ١-٧٥.

(٦٥٨) الكامل ١٠-٢٤٥ ، الباهر ، ص ٣٢ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ، ١-٧٥.

وكان الوالي، بدوره، يقوم باقطاع امرائه ومقربيه، ما تيسر من الاقطاعات، داخل امارته[٦٥٩] ، وكان زنكي في هذه الفترة ضمن اولئك المقطعين، واخذت اقطاعاته تتسع بالتدريج، لحب اولئك الولاة له وتقديرهم لوالده[٦٦٠]. وغدت مدينة (تل اعفر) القريبة من الموصل احدى اقطاعاته في هذه الفترة[٦٦١]. وكان زنكي كمقطع مرتبط من الناحيتين السياسية والعسكرية باولئك الولاة، فعندما اتجه البرسقي والي الموصل (٥١٥-٥٢٠هـ) إلى بغداد عام (٥١٦هـ) للقضاء على الفتن التي أثارها دبيس بن صدقة امير الحلة في العراق، سار معه زنكي واشترك في حروبه، وبعد ان عين الوالي المذكور شحنة للعراق عام (٥١٦هـ)، اقطع زنكي مدينة واسط للدفاع عنها ضد بني مزيد[٦٦٢] ، ولما عزل البرسقي من منصبه ذاك عام (٥١٨هـ) واعيد إلى الموصل، طلب من زنكي، بناء على ارتباطاته به، ان يغادر مقره ليلحق به، فجمع الاخير اصحابه ليستشيرهم، وفي الحوار الذي دار بينهم يتضح مدى ارتباط زنكي بمقطعيه، وتطلعه للتخلص من هذا الارتباط، اذ قال لاصحابه (قد ضجرنا مما نحن فيه، كل يوم قد يملك البلاد امير ونؤمر بالتصرف على اختياره وارادته، ثم تارة – نحن – بالعراق وتارة بالموصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشام، فبم تشيرون ان اصع ؟) فاشار عليه اصحابه بالتوجه إلى بلاط السلطان السلجوقي في اصفهان[٦٦٣] ، فوافق على ذلك واتجه إلى هناك حيث اكرمه السلطان واقطعه البصرة واعاده اليها للقيام بصد هجمات الاعراب، كما طلب منه مراعاة احوال واسط والدفاع عنها[٦٦٤].

وهكذا غدا زنكي مرتبطا كمقطع بالسلطان نفسه، وصارت بينهما التزامات سياسية وحربية، وعندما حاصر السلطان محمود بغداد عام (٥١٩-٥٢٠هـ) طلب منه مساعدته فلعب

---

(٦٥٩) ابن الجوزي ، المنتظم ٩-٢٣١ ، الكامل ١٠-١٥٨ ، ١٨٩ ، ٢٢٤ ، ٢٣١-٢٣٢ ، الباهر ، ص ٢٤.

(٦٦٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٠ ، الكامل ١٠-١٥٨-١٥٩ ، ١٧١-١٧٣ ، ٢١٣-٢١٤ ، ٢٢٤، الباهر، ص ٢٢-٢٤ ، ٦٥ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-٧٢-٧٣ ، ٩٢-٩٣.

(٦٦١) الباهر ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٢٤-٢٦ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ، ١-٦٧ ، ١-٦٨ ، ١-٧٣-٧٤.

(٦٦٢) المصدران السابقان ، نفس الصفحات.

(٦٦٣) الفارقي ، ميا فارقين ، مخطوطة ، ورقة ١٠٠أ-١٠٠ب ، ولم تحدد المصادر اقطاعات زنكي الاخرى.

(٦٦٤) انظر الفصل الاول : (نسب زنكي ونشاته السياسية).

زنكي دورا اساسيا في انهاء القتال[٦٦٥]. مما اهله لتولي منصب شحنكية العراق (اضافة إلى ما بيده من الإقطاع)[٦٦٦]. ولم تشر المصادر إلى التزامات زنكي تجاه السلطان طيلة هذه الفترة، فيما عدا الالتزامات الحربية والسياسية.

وفي عام (٥٢١هـ) اتفق زنكي مع الوفد الذي قدم من الموصل لمطالبة السلطان باقرار ابن البرسقي هناك[٦٦٧] ، على قيام اعضاء الوفد بمطالبة السلطان بتوليته بدلا من الامير المذكور، فوافق السلطان على ذلك بعد ان قدم اليه مبلغا من المال، وولى زنكي (البلاد جميعها وكتب منشوره إلى بغداد)[٦٦٨] ، وقد ايد الخليفة هذا الاجراء[٦٦٩].

استخدمت المراجع عدة (الفاظ) لتشير إلى عملية اقطاع السلطان الموصل واعمالها لزنكي، منها (تولية)[٦٧٠] و(تفويض)[٦٧١] و(ايفاء)[٦٧٢] و(تمليك)[٦٧٣] ، وهي لا توضح نوعية الالتزامات التي فرضها السلطان على زنكي مقابل اقطاعه هذه المناطق، ففيما عدا اشتراطه عليه الدفاع عن البلاد ضد الصليبيين، وتسليمه ولديه ليكون اتابكا لهما يحكم باسمهما[٦٧٤] فان المصادر لم تشر فيما اذا الحقت بذلك التزامات مالية سنوية، كما ان تطور الاحداث في المستقبل لم يشر إلى شيء من ذلك فيما عدا مرتين، اولاهما عام (٥٢٣هـ) حينما حاول السلطان محمود عزل زنكي عن الموصل وتوليتها لدبيس بن صدقة، فقام زنكي بتقديم مائة الف دينار مع هدايا ضخمة للساطان كي يبقيه في منصبه، فوافق هذا على ذلك[٦٧٥]. وثانيتهما عام (٥٣٨هـ) حينما حاول السلطان مسعود غزو الموصل بسبب موقف زنكي العدائي منه، فاقنعه

---

(٦٦٥) الكامل ١٠-٢٣٧ (باختصار) ، الباهر ، ص ٢٧ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-٧٤ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١-٣٠.

(٦٦٦) انظر الفصل الاول : (نسب زنكي ونشاته السياسية).

(٦٦٧) انظر الفصل الاول.

(٦٦٨) الكامل ١٠-٢٤٤ ، الباهر ، ص ٣١.

(٦٦٩) انظر الفصل الاول.

(٦٧٠) الكامل ١٠-٢٤٦ ، الباهر ، ص ٣٥ ، ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين ١-٧٦.

(٦٧١) ابن خلكان ، وفيات ٢-٧٩.

(٦٧٢) الكامل ١٠-٢٤٦ ، الباهر ، ص ٣٥ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ، ١-٧٦ ، ابن خلكان ، وفيات ٢-٧٩.

(٦٧٣) ابن الجوزي ، المنتظم ١٠-٥.

(٦٧٤) الفارقي ، ميا فارقين ، مخطوطة ، ورقة ١٠٨أ-١٠٨ب.

(٦٧٥) زبدة الحلب ٢-٢٤٣.

هذا بالعدول عن ذلك مقابل تقديم مبلغ قدره مائة الف دينار، دفع منه عشرين الفا موادا عينية، ثم اضطر السلطان إلى التنازل عن القسم المتبقي استمالة له ضد امراء الاطراف الذين خرجوا عليه[٦٧٦] ، مما يشير إلى عدم وجود التزامات مالية بين الطرفين في الاوقات الاعتيادية، سوى اعتماد زنكي على نفسه في تجهيز قواته لقتال الصليبيين دون مساعدة السلطان، بينما كان على السلطان قبل تولية زنكي امداد ولاته على الموصل بالاموال والعساكر[٦٧٧] ، لهذا الغرض، ويجب ان نلاحظ ان اشتراط السلطان على زنكي (فتح الرها) مقابل عدم غزوه للموصل، لم يكن سوى محاولة لتاكيد التزامات زنكي الحربية تجاهه.

وبعد ان استولى زنكي على حلب عام (٥٢٢هـ)، اراد ان يعزز ذلك بموافقة السلطان الرسمية، فذهب في العام التالي إلى عاصمة السلطان (فوطىء بساطه وعاد بالتواقيع السلطانية بملك الغرب كله)[٦٧٨] ، وبذلك (استقر لزنكي ملك الموصل والجزيرة والرحبة وحلب، والتوقيع له بجميع البلاد الشامية وغيرها)[٦٧٩].

ومن استعراض علاقة زنكي، بعد توليته الموصل، بالسلطان السلجوقي[٦٨٠]، يتضح انه كان يتمتع باستقلال واسع، وان الالتزامات الاقطاعية التي كانت تربطه بالسلطان، وهي التبعية السياسية والحربية، كانت محدودة الاثر، ثم تحولت إلى موقف عدائي وقفه ضد السلطان، وقد اوضح ابن الاثير ذلك بقوله (كان زنكي يدفع اصحاب الاطراف للخروج على السلطان، فاذا فعلوا عاد السلطان محتاجا إلى زنكي وطلب منه ان يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع، وكلهم يداريه ويخضع له، ويطلب منه ان تستقر القواعد على يده)[٦٨١] (وكان – السلطان – كلما انفتق عليه فتق نسبه إلى زنكي .. وكان ظنه صادقا – فان زنكي

---

(٦٧٦) انظر ما يلي من هذا الفصل.

(٦٧٧) المنتظم ١٠–١١ ، الكامل ١٠–٢٤٩ ، مفرج الكروب ١–٤٤ ، وانظر الفصل الثاني : (علاقات زنكي بالخلافة والسلطنة).

(٦٧٨) الباهر ، ص ٦٥–٦٦ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١–٩٢–٩٣ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١–٩٠–٩١.

(٦٧٩) الباهر ، ص ٦٥ ، ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين ١–٩٣.

(٦٨٠) زبدة الحلب ٢–٢٤٣.

(٦٨١) المصدر السابق ٢–٢٤٤.

كان يفعل ذلك – لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل، ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك)[٦٨٢].

ادرك زنكي ضرورة توزيع الاقطاعات على امرائه وجنده، نظرا لطبيعة الظروف الحربية والسياسية التي جابهتها امارته، حيث انتشرت مجموعة من الإمارات المحلية المتنافسة في الجزيرة والشام والجبال وشرقي الموصل، فضلا عن امارات الصليبيين، فكان ذلك يحتم اتباع الاساليب التي تضمن له تشكيل قوة عسكرية متمكنة، يخلص افرادها لاميرهم ومصلحة امارتهم، بناء على وجود مصالح مشتركة، وليس ثمة في تلك الفترة ماهو احسن من الاسلوب الاقطاعي لضمان تكوين الجندي المخلص والجيش القوي المنظم.

لذلك كان اول عمل قام به زنكي عند دخوله الموصل عام (٥٢١هـ) هو (تقرير قواعد الجنود واقطاع العساكر)[٦٨٣] ، كما جعل من منهاجه قبل الاصطدام مع الصليبيين، الاستيلاء (على ما بقى من البلاد الشامية والجزرية، واصلاح شانها، والفراغ من اقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم)[٦٨٤] ، وفي سبيل تحقيق ذلك عقد هدنة مؤقتة مع صليبيي الرها[٦٨٥].

لم تكن معظم مدن الموصل والجزيرة وشمالي الشام خاضعة لزنكي، عند توليته هذه المناطق رسميا من قبل السلطان السلجوقي، لذا غدت معظم عمليات التوزيع الاقطاعي متوقفة إلى حد كبير على فتوحاته ومتدرجة زمنيا مع اوقات هذه الفتوحات، فكان كلما استولى على بلد (رتب اموره واقطع اعماله الاجناد والامراء)[٦٨٦] ، وفضلا عن قيام المقطع بالدفاع عن المنطقة، وامداد جيوش زنكي بقوات من عنده في حالات القتال[٦٨٧] ، فقد استخدم الاخير الإقطاع لاغراض أخرى اهمها الغرض الاداري، وهو قيام المقطع بادارة امور ولايته كوال من قبل زنكي على تلك المنطقة[٦٨٨] ، أو لابعاد الشخص الذي يرى في وجوده خطرا باقطاعه منطقة

---

(٦٨٢) انظر الفصل الثاني : (علاقات زنكي بالخلافة والسلطنة).
(٦٨٣) الباهر ، ص ٨١.
(٦٨٤) المصدر السابق ، ص ٦٥.
(٦٨٥) المصدر السابق ، ص ٣٦.
(٦٨٦) المصدر السابق ، ص ٣٧.
(٦٨٧) الكامل ١٠–٢٤٧ ، الباهر ، ص ٣٧ ، مفرج الكروب ١–٣٦.
(٦٨٨) الكامل ١٠–٢٤٨.

بعيدة[٦٨٩] ، أو لاكرام بعض امرائه المقرّبين اعترافا بفضلهم[٦٩٠] ، أو لاغراء بعض اعدائه بتسليم حصونهم مقابل اقطاعهم بعض المناطق[٦٩١] ، كما انه تنازل عن بعض الحصون التي فتحها في ديار بكر لحسام الدين تمرتاش امير بني ارتق، وذلك لاغراض سياسية تستهدف تقوية حلفه مع حسام الدين ضد اعدائه في المنطقة[٦٩٢].

وتقدم المصادر عددا ضئيلا من اسماء مقطعي زنكي من الامراء، تكتفي بالقول بانه (اقطع فلانا الحصن الفلاني، أو المدينة الفلانية) دون اشارة إلى ظروف ذلك أو شروطه، ودون تحديد مكاني لكل مقطعيه، وفيما يلي اسماء الامراء والقواد الذين اقطعهم زنكي بعض المدن والحصون :

الامير جاولي الذي كان وصيا على ابن عز الدين مسعود، والي الموصل المتوفى عام (٥٢١هـ)، اقطع الرحبة تخلصا من خطره[٦٩٣].

بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري، قاضي قضاة الموصل، وهبه زنكي (املاكا واقطاعا)[٦٩٤] لم تحددها المصادر.

أبو بكر البكجي، احد كبار امراء زنكي، اقطع نصيبين[٦٩٥] ، ولم تحدد المصادر تاريخ ذلك.

سوتكين الكرجي، اقطع حران عام (٥٢٢هـ أو ٥٢٣هـ)، وفي عام (٥٢٧هـ) اعلن العصيان، وقد استطاع زنكي القضاء عليه عام (٥٣٣هـ) وعين نوابه هناك[٦٩٦].

---

(٦٨٩) الباهر ، ص ٨٠ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-١١١-١١٢ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١-١٠٣.

(٦٩٠) انظر جدول المقطعين فيما يلي.

(٦٩١) ١٠-٢٤٦ ، الباهر ، ص ٣٥.

(٦٩٢) الباهر ، ص ١٦ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-٦٧-٦٨ ، وعن ابن ابي طي ، ١-٨٦-٨٧، ١-٥٣٨.

(٦٩٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٠ ، الكامل ١١-٣٠ ، الباهر ، ص ٧٤ ، زبدة الحلب ٢-٢٧٣.

(٦٩٤) الفارقي ، ميا فارقين ، مخطوطة ، ورقة ١٢١ب-١٢٢أ ، زبدة الحلب ٢-٢٥٣-٢٥٤.

(٦٩٥) الكامل ١٠-٢٤٦ ، الباهر ، ص ٣٥ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ، ١-٧٦.

(٦٩٦) الكامل ١٠-٢٤٦.

صلاح الدين الياغسياني (امير حاجب)، اقطع حماة عام (٥٢٣هـ)[٦٩٧]. وحصن الخربة عام (٥٣١هـ)[٦٩٨]. وكفر طاب عام (٥٣٢هـ)[٦٩٩].

زين الدين علي كجك بن بكتكين، احد كبار قواد زنكي، اقطع اربل عام (٥٢٦هـ) [٧٠٠]. وعقر الحميدية واعمالها عام (٥٢٨هـ)[٧٠١] وشهرزور[٧٠٢](؟).

شهاب الدين اميرك الجاندار، اقطع الرقة عام (٥٢٩هـ)[٧٠٣].

نجم الدين ايوب واسد الدين شيركوه (اقطعهما زنكي في بلد شهرزور اقطاعا سنيا، وقيل انه اقطع اسد الدين بالمؤزر)[٧٠٤] ، وذلك بعد التجائهما اليه في اواخر عام (٥٣٢هـ)[٧٠٥].

عز الدين الدبيسي، من اكابر امراء زنكي، كانت دقوقا (من جملة اقطاعه)[٧٠٦].

ناصر الدين كوري بن جكرمش (والي الموصل ٤٩٥-٥٠٠هـ). اقطعه زنكي اقطاعا كثيرا، اعترافا بفضل والده[٧٠٧] ، ولم تحدد المصادر هذا الإقطاع.

وهنالك واليان لم يقطعا مدينة بكاملها بل اجزاء منها وهما :

---

(٦٩٧) الباهر ، ص ٧٩.

(٦٩٨) ابن شداد ، الاعلاق ، قسم الجزيرة ، مخطوطة ١٧أ-١٨أ ، مفرج الكروب ١-٨٤.

(٦٩٩) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٨ ، ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٩٧-٩٨.

(٧٠٠) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٧٨.

(٧٠١) المصدر السابق ، ص ٤٥.

(٧٠٢) مفرج الكروب ١-٩٧ ، ١-١٥٤.

(٧٠٣) الباهر ، ص ١٣٥.

(٧٠٤) المصدر السابق ، ص ١٠٨-١٠٩ ، ١٣٥ ، مفرج الكروب ١-١٥٤. ويذكر الفارقي ان شهرزور كانت اقطاعا لسيف الدين غازي ابن زنكي (ميا فارقين ، مخطوطة، ورقة ١٢٧أ-١٢٨ب) ، ويوافقه في ذلك ابن خلكان ، ويضيف بان السلطان مسعود هو مصدر هذا الاقطاع (وفيات ٣-١٧٦). وهذه الرواية لا تنسجم وما اجمعت عليه المصادر من استيلاء زنكي على شهرزور.

(٧٠٥) ابن شداد ، الاعلاق ، قسم الجزيرة ، مخطوطة ، ورقة ٢٤أ-٢٤ب.

(٧٠٦) أبو شامة ، الروضتين ١-٥٣٨.

(٧٠٧) ابن خلكان ، وفيات ٦-١٤٣-١٤٤.

الامير سوار بن ايتكين التركماني، ولي حلب عام (٥٢٤هـ) (واجرى عليه زنكي الاقطاعات الكثيرة، واعتمد عليه في قتال الفرنج)[٧٠٨] ، ولم تحدد المصادر هذه الاقطاعات والراجح انها كانت قريبة من حلب.

ونجم الدين ايوب الذي ولاه زنكي بعلبك عام (٥٣٤هـ)، بعد ان اقطعه ثلثها، وقيل : نصفها[٧٠٩].

وكان زنكي يمتلك بعض الاقطاعات، خارج حدود امارته، حصل عليها في ظروف استثنائية، كتلك التي وهبه الخليفة المقتفي اياها، من املاكه الخاصة في بغداد، رغبة في استمالته[٧١٠] وقال متحدثا عن ذلك : (هذه قاعدة لم يسمح بها لاحد من زعماء الاطراف، وهي ان يكون له في العراق اقطاع)[٧١١]. ومن ثم اعتبر هذا النوع من الإقطاع شاذا.

هذه هي الاسماء التي قدمتها المصادر عن مقطعي زنكي من كبار الامراء والقواد، والراجح ان عددا كبيرا من المقطعين لم تشر اليهم المصادر، اما اغفالا منها، أو لعدم أهمية الأماكن التي اقطعت لهم من النواحي العسكرية والجغرافية، وربما لقلة اشتهار المقطعين انفسهم.

وقد وزعت الاقطاعات على الجند فضلا عن الامراء، وتشير النصوص الواردة في ذلك إلى ان زنكي كان يقوم بنفسه احيانا (بتقرير قواعد الجند، واقطاعهم[٧١٢] ، مما يشير إلى ان توزيع الاقطاعات على هؤلاء كان يتم احيانا تحت اشراف زنكي المباشر، دون تدخل كبار الامراء المقطعين، ومن المرجح فيما عدا ذلك، ان كبار هؤلاء الامراء كانوا يقومون بدورهم بتوزيع الاقطاعات على جندهم، ويظهر ان كلا من الجند والامراء والمقطعين لم يكونوا يقومون بانفسهم باستغلال اراضيهم، بل ترك هذا العمل للفلاحين الاصليين، على ان يدفعوا مقابل ذلك ضريبة سنوية[٧١٣]. وهنالك عدد من النصوص يؤكد ذلك، منها ما اورده ابن العديم عن عدم سماح زنكي لجنده بالاعتداء على مزروعات الفلاحين خلال تحركاتهم، وان لا ياخذوا (حفنة من

---

(٧٠٨) الكامل ١١-٤٥.

(٧٠٩) الباهر ص ١٦ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-٦٧-٦٨.

(٧١٠) زبدة الحلب ٢-٢٤٥.

(٧١١) أبو شامة ، الروضتين ١-٨٦-٨٧.

(٧١٢) انظر الفصل الثاني : (علاقات زنكي بالخلافة والسلطنة).

(٧١٣) الكامل ١١-١٨-١٩ ، الباهر ، ص ٥٤.

التبن) إلا بثمنها، أو بامر تحريري من ديوان الجند إلى رئيس القرية[٧١٤] ، مما يرجح القول بان ملكية الاراضي كانت للفلاحين مباشرة، أو لذوي الملكيات الصغيرة، ومنها ما فعله زنكي عام (٥٢٩هـ) عندما استولى على معرة النعمان، حيث اعاد إلى اهاليها املاكهم التي كان الصليبيون قد استولوا عليها اثناء استيلائهم على المعرة، بالرغم من ان مذهبه الحنفي يقضي بعودة الاملاك إلى الحكومة بعد استرجاعها من الكفار[٧١٥].

ويورد ابن الاثير في الباهر الاجراء الذي اتخذه زنكي بشان امرائه المقطعين، اذ نهى هؤلاء (من اقتناء الاملاك) معللا ذلك بقوله (ما دامت البلاد لنا فاي حاجة بكم إلى الاملاك ؟ فان الاقطاعات تغني عنها، وان خرجت البلاد عن ايدينا فان الاملاك تذهب معها، ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم، وغصبوهم املاكهم)[٧١٦] ، وهذا النص يؤكد بوضوح عدم وجود ملكية مباشرة للارض من قبل المقطعين بل كانت هذه الملكية بيد الفلاحين[٧١٧] والاهالي[٧١٨] ، مقابل دفع ضريبة سنوية للحكومة والمقطعين[٧١٩]. وقد كان لهذا الاجراء الذي اتخذه زنكي بمنع المقطعين من (التملك) نتائج ايجابية ولا شك، اذ ان اقتناء الاملاك من قبل هؤلاء يؤدي إلى اضرار عديدة قد تلحق بالاهالي وبمصلحة الامارة على حد سواء، اولها ما يجر اليه المقطعين من ظلم للرعية واعتداء عليهم واغتصاب لاملاكهم، ذلك ان الامير في حالة كهذه سيستخدم ما يمتلكه من نفوذ وسلطة للضغط على اصحاب الملك ببيعه ملكهم باقل ثمن، وربما دفعهم إلى التنازل عنه بالقوة. وقد ادرك ابن الاثير مدى عدالة زنكي في هذه الخطوة فعلق عليها قائلا : (فما احسن هذا الخلق – اي خلق زنكي – واحسن هذا النظر للرعايا، واكثر هذه الشفقة عليهم، والرحمة لهم، لا خلاف، في ان عمارة البلاد من ثمرات العدل، وكف الايدي المتطاولة إلى اهلها)[٧٢٠]. وفضلا عن ذلك، فان من نتائج اقتناء المقطعين للاملاك، تجمع الثروة بايدي طبقة محدودة من الامراء، واحتكار هذه الطبقة لموارد الرزق، بينما

---

(٧١٤) الباهر ، ص ٣٥–٣٦ ، ٣٧.

(٧١٥) الباهر ، ص ٧٩ ، زبدة الحلب ٢–٢٨٠.

(٧١٦) زبدة الحلب ٢–٢٨٣–٢٨٤.

(٧١٧) الكامل ١١–٢٢ ، مفرج الكروب ١–٧٤.

(٧١٨) ص ٧٧.

(٧١٩) زبدة الحلب ٢–٢٨٣–٢٨٤ ، الباهر ، ص ٧٩.

(٧٢٠) الكامل ١١–٢٢ ، مفرج الكروب ١–٧٤–٧٥ ، زبدة الحلب ٢–٢٥٩.

تبقى اكثرية السكان في فقر مدقع، هذا إلى ان اقتناء الامراء للاملاك والعناية بها قد يؤدي بهم إلى عدم توجيه جهودهم لكل ما يتعلق بالجندية والدفاع، وهي الامور التي اقطعوا الاراضي والاعمال من اجلها.

ويستدل من بعض الروايات انهلم يكن يشترط في المقطع البقاء في اقطاعه خاصة اذا كان من اصحاب الوظائف العالية التي تقتضي ملازمته لزنكي، وكان المقطع في هذه الحالة ينيب عنه من يقوم بادارة اقطاعيته، كما حدث بالنسبة لجمال الدين محمد بن ايوب الياغسياني، امير حاجب زنكي، الذي اقطع عدة مدن، فاناب في كل منها من يعتمد عليه في ادارة شؤونها، كحماة التي اناب فيها ابنه شهاب الدين احمد[٧٢١] ، وحصن الخربة الذي اناب فيه عيسى الحاجب[٧٢٢] ، وكذلك بالنسبة لزين الدين علي كجك بن بكتكين قائد زنكي في الموصل، الذي اقطع اربل وعقر الحميدية واعمالها، ومن المرجح انه اناب عنه فيهما من يدير شؤونهما، بدليل عدم مغادرته الموصل إلى اقطاعه في اربل إلا عام (٥٦٣هـ)[٧٢٣].

وكان ديوان الجيش يقوم بادارة شؤون الاقطاعات وحل المشاكل التي تنجم عنها، بدليل النص الذي اورده ابن العديم عن عدم السماح لجند زنكي باخذ شيء من منتجات الفلاحين، حتى لو كان حفنة من التبن، إلا بثمنه أو بامر تحريري من ديوان الجند إلى رئيس القرية[٧٢٤] ، ولم تحدد المصادر الطريقة التي كان ديوان الجيش يشرف بموجبها على الاقطاعات، وكيفية جباية الضرائب. هذا إلى ان كثيرا من مشاكل الإقطاع وتنظيماته في عهد زنكي، اغفلت من قبل المؤرخين، ومن ثم بقيت هذه الجوانب دون حل وخاصة فيما يتعلق بالمقادير التي كان الاقطاعي يستحصلها من الضرائب، وطبيعة العلاقة بين الامراء والجند المقطعين من جهة، وبين الامراء والفلاحين من جهة أخرى، ومدى احقية المركز في الاشراف على شؤون الاقطاعية، واحقية المقطع في بيع اقطاعه أو التنازل عنه لاخر أو التبادل معه.

وتشير الروايات إلى ان نور الدين محمود ابن زنكي ادخل نظام التوريث في الإقطاع، اذ كان (من ارائه الحسنة ما كان يعتمده في امر اجناده. فانه كان اذا توفي احدهم، وخلف ولدا ذكرا، اقر الإقطاع عليه .. فكان الاجناد يقولون : هذه املاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل

---

(٧٢١) الباهر ، ص ٧٩ ، زبدة الحلب ٢-٢٨٠.

(٧٢٢) الباهر ، ص ٧٧.

(٧٢٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٨ ، ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٩٧-٩٨.

(٧٢٤) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٧٨.

عليها، وكان ذلك من اعظم الاسباب لصبر الجندي في الحروب بين يديه)[٧٢٥] ومن المرجح ان زنكي سبق ابنه في ادخال هذا النظام، اذ هنالك سابقة من عهده تشير إلى هذا الاتجاه الجديد في نظام الإقطاع، وذلك عندما قام بنقل طائفة من التركمان مع اميرهم الياروق إلى الشام (واسكنهم بولاية حلب، وامرهم بجهاد الفرنج، وملّكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم واخذوا كثيرا من السواد[٧٢٦] وسدوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع مافتحوه في ايديهم إلى نحو سنة (٦٠٠هـ)[٧٢٧] ، وقد ادى ذلك ايضا، إلى قيام عمائر كثيرة بظاهر حلب، على ضفة نهر قويق، عرفت باليا‌روقية، وهي مشهورة هناك[٧٢٨]. ولا ريب في ان زنكي ادرك، كما ادرك ولده من بعده، مدى النتائج الايجابية التي يمكن ان يؤدي اليها نظام التوريث هذا، واهمها اخلاص جنده له، واستماتتهم في القضاء على ما يهدد امارته من اخطار، لما في ذلك من مصلحة لهم ولاولادهم، الذين سيرثون اقطاعهم، من بعدهم.

---

(٧٢٥) الكامل ١١-١٣٤ ، الباهر ، ص ١٤٥.

(٧٢٦) زبدة الحلب ٢-٢٨٣-٢٨٤ ، وانظر : المقريزي ، خطط ٢-٢١٩.

(٧٢٧) مفرج الكروب ١-٢٨٠.

(٧٢٨) المنطقة الزراعية المحيطة بحلب.

٣- الاتابكية :

عرف زنكي بلقب (الاتابك)[٧٢٩] منذ تعيينه حاكما على الموصل عام ٥٢١ هـ. واشتهرت الامارة التي اسسها باسم (اتابكية الموصل)، والسلالة التي اعقبته في الحكم باسم الاتابكة ، وقد بدات تسمية زنكي بهذا اللقب في شعبان عام (٥٢١هـ) عندما ولاّه السلطان محمود الموصل وسلمه ولديه الب ارسلان، وفروخ شاه (المعروف بالخفاجي)، وجعله اتابكا لهما[٧٣٠].

وقد ترتبت على (اتابكية زنكي) نتائج عديدة، فقد كان عليه من الناحية الرسمية، ان يحكم باسم ألب ارسلان، اكبر الاميرين، وان يخطب له، ولذلك اظهر للخلفاء والسلاطين واصحاب الاطراف ان البلاد التي يحكمها (انما هي للملك الب ارسلان) وانه نائب فيها (فكان اذا ارسل رسولا أو اجاب على رسالة فانما يقول : قال الملك : كذا وكذا)[٧٣١]. وكان هذا الاجراء من قبل زنكي لا يعدو ان يكون شكليا، اذ أن السلطة الفعلية كانت متركزة في يده، ولم يكن لاحد من ابني السلطان محمود اية سلطة عملية، بل كانا اشبه بالمحتجزين.

---

(٧٢٩) الباهر ، ص ٨٠ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-١١١-١١٢ ، وابن واصل ، مفرج الكروب ١-١٠٣.

(٧٣٠) أبو الفدا ، المختصر ٥-٦٦.

(٧٣١) تتألف كلمة (اتابك) من لفظين تركيين هما : (اتا) بمعنى اب و(بك) بمعنى امير (اي الامير الوالد) : (ابن خلكان ، وفيات ١-٣١٦). واول من لقب بذلك هو نظام الملك ، وزير ملكشاه ، حين فوض اليه هذا تدبير المملكة عام ٤٦٥هـ ولقبه بالقاب منها (اتابك)، وربما قصد به ابو الامراء ، اي اكبر الامراء المقدمين، (وليس للاتابك وظيفة ترجع الى حكم وامر ونهي ، وغايته رفعة المحل وعلو المقام) ، وكان الاتابك يكلف من قبل السلطان الحاكم بالوصاية على واحد او اكثر من ابنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد (القلقشندي صبح الاعشى ٤-١٨.

Gibb, Damascus Chroicle, pp. 23-24. E.I. 2 S.V. Atabak, (by cl. cahen).

اذ فرق زنكي بينهما فجعل احدهما في احد معاقل سنجار، والاخر تحت اشراف زوجته في الموصل[٧٣٢]. وربما استهدف من الخطبة لالب ارسلان، القاء الصفة الرسمية (الشرعية) على سياسته واعماله مستغلا اسم الملك السلجوقي.

كما عمل زنكي على استغلال وجود هذين الملكين السلجوقيين، فقام بمحاولات ثلاث (٥٢٥-٥٢٩هـ) لتنصيب الب ارسلان على عرش سلاجقة العراق بالاتفاق مع الخليفة العباسي ضد السلطان السلجوقي في اصفهان، وقد استهدف من وراء ذلك جعل السلطة الفعلية لسلاجقة العراق بيده، باسم السلطان الشرعي المنصب، لكن هذه المحاولات انتهت جميعا بالفشل[٧٣٣].

إلا أن اهم ما ترتب على اتابكية زنكي هي تلك الموامرة التي قام بها الملك الخفاجي عام (٥٣٩هـ) اثناء غياب زنكي عن الموصل[٧٣٤] ، إذ اتفق الخفاجي وانصاره على اغتيال نصير الدين جقر نائب زنكي في الموصل ومن ثم السيطرة على المدينة واعلان العصيان ضد زنكي، وفي صباح الثامن (أو التاسع) من ذي القعدة عام (٥٣٩هـ) ركب جقر في موكبه، كعادته، واخترق شوارع المدينة متجها إلى الدار التي يقيم فيها الملك الخفاجي للتسليم عليه، وهنالك في الدهليز المفضي إلى القصر هاجمه المتامرون وضربوه بالسيوف والسكاكين فمزقوا جسده[٧٣٥].

---

(٧٣٢) ابن خلكان ، وفيات ١-٣١٥-٣١٦ ، ٢-٧٩-٨٠. ويشير البنداري ، الى ان الخفاجي لم يسلم الى زنكي من قبل السلطان محمود ، وانما كان مقيما لدى الامير دبيس ابن صدقة المزيدي ، فانتزعه منه في احدى الحروب : (آل سلجوق ١٨٧) ، والمهم هو ان كلا الاميرين غدا تحت اشراف زنكي. ويشير ابن العماد ، الى الخفاجي فقط (شذرات ٤-١٢٨) ، اما ابن واصل (١-٢٣٣) ، فيخطىء بالمزج بين ألب ارسلان والخفاجي بقوله ان زنكي استلم ألب ارسلان المعروف بالخفاجي. وانظر ما يلي من الفصل.

(٧٣٣) الباهر ، ص ٧١.

(٧٣٤) البنداري ، آل سلجوق ، ص ١٨٧.

(٧٣٥) انظر الفصل الثاني.

ونادوا بشعار الملك الخفاجي، فاضطربت المدينة وعمتها الفوضى، وخاف الاهالي عاقبة الامور من غضبة زنكي وعقابه[٧٣٦]. ولكن انصار الملك لم يابهوا لذلك، مما اضطر عددا من الحراس والاهالي إلى قتالهم[٧٣٧] ، واستطاع القاضي تاج الدين يحيى الشهرزوري، احد رجال زنكي، ان يخدع الملك الخفاجي، بان اظهر انه معه، وطلب منه التوجه إلى القلعة واتخاذها مقرا له، لكي يقوم من هناك بتجميع الاموال والسلاح والجند كي يسهل عليه السيطرة التامة على البلد (اذ ليس دون الموصل مانع)، فوافق الملك على ذلك واتجه هو وانصاره مع القاضي إلى القلعة، وعندما دخلوها قبض عليهم جند زنكي[٧٣٨] ، وبعد ايام قليلة قتل الخفاجي[٧٣٩] وانصاره داخل القلعة[٧٤٠].

وهكذا احبطت هذه المحاولة التي كادت ان تطيح بحكم زنكي، وقد ساعدت على القيام بها عوامل عديدة، منها ان زنكي كان بعيدا عن الموصل مشغولا بحصار قلعة البيرة الصليبية، ومنها ان نصير الدين جقر، نائبه في الموصل ، كان ظالما[٧٤١] ، وكانت علاقته بالملك الخفاجي غير ودية اذ كان كثيرا ما يعارضه في آرائه ووجهته[٧٤٢]. وبلغت المشكلة غايتها عندما راح (جقر) يبسط لسانه في الخفاجي ويتهدده، بعد ان اخذ يحس بطموح هذا الملك وسعيه

---

(٧٣٦) البنداري ، آل سلجوق ، ص ١٨٧ ، ويخلط ابن الاثير بين الخفاجي واخيه ألب ارسلان مشيرا الى ان بطل المؤامرة هو (الملك الب ارسلان المعروف بالخفاجي) (الكامل ١١-٤١ ، الباهر ، ص ٧١) ، ويصحح أبو شامة ذلك بقوله (ووهم ابن الاثير في قوله فالخفاجي غير الب ارسلان على ما ذكره البنداري) : (الروضتين ١-١٠٥) وراى البنداري هو المؤكد ، لان الخفاجي هو الذي كان مقيما في الموصل (آل سلجوق ، ص ١٨٧).

(٧٣٧) الكامل ١١-٤١ ، الباهر ، ص ٧١-٧٢ ، البنداري ، آل سلجوق ، ص ١٨٧-١٨٨ ، ابن خلكان ، وفيات ، ١-٣١٦ ، مفرج الكروب ١-٩٥.

(٧٣٨) البنداري ، آل سلجوق ، ص ١٨٧-١٨٨.

(٧٣٩) الكامل ١١-٤١-٤٢ ، الباهر ، ص ٧٢ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-١٠٤ ، وابن واصل ١-٩٥-٩٦.

(٧٤٠) المصادر السابقة ، نفس الصفحات ، البنداري ، آل سلجوق ، ص ١٨٧-١٨٨.

(٧٤١) البنداري ، آل سلجوق ، ص ١٨٨.

(٧٤٢) الباهر ، ص ٧٣ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-١٠٤.
وينفرد ابن العديم : (زبدة الحلب ٢-٢٨٠-٢٨١) في القول بان زنكي هو الذي قام بنفسه بقتل الخفاجي، لدى عودته الى الموصل ، وهي رواية ضعيفة.

لفرض كلمته في الموصل[٧٤٣] ، كما كان تشجيع انصار الخفاجي له على المضي في الطريق عاملا هاما على القيام بالمؤامرة[٧٤٤] ، هذا فضلا عن مساورة الشكوك للخفاجي وتخوفه من تهديدات جقر المستمرة مما دفعه إلى الاجتماع بانصاره والقيام معهم برسم خطة الاغتيال[٧٤٥].

اضطر زنكي إلى فك الحصار عن البيرة، ومغادرتها، خوفا من حدوث نتائج خطيرة في الموصل قد تهدد حكمه[٧٤٦] ، واكتفى في بداية الامر بارسال قائده زين الدين علي كجك ليحل محل جقر[٧٤٧] ، ثم ذهب هو بنفسه بعد ذلك لاقرار الاوضاع هناك.

أبدى زنكي، بعد مقتل الخفاجي، عطفه على الملك الاخر (ألب ارسلان)، فالغى احتجازه في احد معاقل سنجار، ومنحه حرية اكثر، وعين له حراسا وموظفين لخدمته، واهتم بمراسيم جلوسه وركوبه، وطالب رجاله بالاهتمام بامره واحترامه وتلبية مطالبه، وقد استهدف من هذه الاجراءات تغطية مقتل الملك الخفاجي[٧٤٨] ، كي لا يثير السلاجقة ضده، ومحاولة منه لاستغلال ألب ارسلان لتحقيق امله في المستقبل، وذلك بالمطالبة بتوليته سلطنة العراق، بعد وفاة عمه السلطان مسعود، ليصبح زنكي المتحكم الفعلي باسم السلطان الجديد[٧٤٩].

---

(٧٤٣) البنداري ، آل سلجوق ، ص ١٨٧–١٨٨ ، ابن خلكان ، وفيات ١–٣١٥–٣١٦.

(٧٤٤) ابن خلكان ، وفيات ١–٣١٦.

(٧٤٥) البنداري ، آل سلجوق ، ص ١٨٦ ، ابن شداد ، الاعلاق (قسم الجزيرة) مخطوطة ، ورقة ٣٦أ–٣٦ب.

(٧٤٦) الكامل ١١–٤١ ، الباهر ، ص ٧١.

(٧٤٧) البنداري ، آل سلجوق ، ص ١٨٧–١٨٨ ، ابن خلكان ، وفيات ١–٣١٦.

(٧٤٨) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٠ ، الكامل ١١–٤٢ ، الباهر ، ص ٧٠–٧١.

(٧٤٩) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨١ ، الكامل ١١–٤٢ ، ابن خلكان ، وفيات ١–٣١٦ ، البنداري ، آل سلجوق ، ص ١٨٨.

الفصل العاشر
النظم الادارية

عند البحث عن النظم الادارية لاية دولة أو امارة اسلامية، يجب التاكيد دائما على نقطتين، اولاهما ان سكوت المصادر عن بعض التنظيمات والامور الادارية في بعض العهود لا يعني عدم وجودها، بل من المحتمل في اغلب الظن ان المصادر، بتركيزها على القضايا السياسية والحربية، قد اهملت الامور الادارية، وثانيتهما ان حدوث اي تحول سياسي أو حربي، والانتقال من عهد إلى عهد اخر، وسقوط الامراء وقيام اخرين بدلهم، لا يعني سقوط التنظيمات الادارية قاطبة وقيام أخرى جديدة لا علاقة لها بالتنظيمات السابقة، اذ ان ذلك يناقض استمرارية التماسك (البيروقراطي) والاجتماعي بعد حدوث هذه التحولات، مما يحتم القول بان هذه التنظيمات لا يصيبها تغيير جوهري خلال تلك الانقلابات.

وهكذا فان تحول الموصل من عهد ولاة السلاجقة (٤٨٩-٥٢١هـ) إلى عهد الاتابكة، لم يؤد إلى ظهور مؤسسات ادارية جديدة بالمرة على المنطقة بل ان معظم هذه المؤسسات ظل موجودا في العهد الجديد مع اجراء بعض التعديلات، واستحداث عدد قليل من المناصب التي اقتضتها الظروف السياسية والعسكرية الجديدة.

أقام زنكي تنظيماته الادارية على اكتاف مجموعة من الموظفين منحهم نوعا من الاستقلال الذاتي في ممارسة شؤونهم الادارية، ولكن تحت اشرافه التام ومراقبته الدقيقة، وكان هؤلاء الموظفون يعملون في اربعة مجالات رئيسية هي :

١- محافظة قلعة الموصل وسائر قلاع الامارة، وكانت تسمى في كثير من الاحيان : النيابة، ويدعى متوليها (النائب).

٢- ولاية المدن والاعمال.

٣- الوزارة.

٤- الدواوين.

نيابة الموصل أو محافظة القلعة :

أنشا زنكي هذا المنصب حال دخوله الموصل في رمضان عام ٥٢١هـ. وقد اطلقت المصادر عليه لقب النيابة احيانا[٧٥٠] ، ودزدارية قلاع الامارة احيانا أخرى[٧٥١]. ولما كانت كلمة دزدار الاعجمية تعني حافظ القلعة، فمن الممكن تسمية هذا المنصب بالمحافظة، ايضا، واذ كان زنكي مشغولا معظم اوقاته في حروبه وتنقلاته، كان مكوثه في الموصل قليلا، مما يرجح ان يغدو نائبه فيها المسؤول الأول، وان يتمتع بسلطات عملية واسعة.

ولم تشر المصادر إلى مهام هذا الموظف بالتفصيل، والاعمال التي كلفالقيام بها، وتكتفي بالاشارة إلى انه كان على النائب ان يدير شئون الموصل وبقية اجزاء الامارة نيابة عن زنكي، وان يكاتب السلطان السلجوقي والخليفة العباسي عن احوال الامارة خلال تغيب الامير[٧٥٢]. ونصوص أخرى تشير إلى بعض المهام التفصيلية التي كان يمارسها النائب، كجمع الضرائب وجباية الاموال[٧٥٣] ، والاشراف المستمر على احكام تحصينات الموصل وتعميق خنادقها[٧٥٤]. فضلا عن الاعمال العسكرية المحضة كالدفاع عن المدينة[٧٥٥] ، والقيام بحملات توسعية بناء على اوامر زنكي[٧٥٦].

وهذه الاشارات جميعا توضح كيف ان نائب زنكي كان يمارس سلطات واسعة في شتى المجالات الادارية والمالية والعمرانية والعسكرية، ذلك انه كان معتمده الأول في امارته، ينطبق عليه ما ذكره القلقشندي عن هذا المنصب في العهدين الايوبي والملوكي، من ان النائب هو : القائم مقام السلطان في عامة اموره، أو غالبها[٧٥٧].

---

(٧٥٠) البنداري ، آل سلجوق ، ص ١٨٨.

(٧٥١) الكامل ١١-٤١ ، الباهر ، ص ٧١ ، ونقل عنه : أبو شامة ، الروضتين ١-١٠٤ وابن واصل : مفرج الكروب ١-٩٥.

(٧٥٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٣-٢٧٠ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ١-٣١٥.

(٧٥٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ٣٥ ، الكامل ١٠-٢٤٦ ، أبو شامة : الروضتين في اخبار الدولتين ١-٧٦، ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ١-٣٤ ، ابن خلدون : تاريخ ٥-٥٥.

(٧٥٤) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٣.

(٧٥٥) ابن خلكان : وفيات ١-٣١٥-٣١٦.

(٧٥٦) المصدر السابق ، نفس الصفحات.

(٧٥٧) المصدر السابق ، نفس الصفحات.

ان الالقاب التي اطلقت على النائب تقودنا ثانية إلى مشكلة صلاحياته وطبيعة اختصاصه، فهو من جهة (دزدار) قلعة الموصل وسائر قلاع الامارة، ومن جهة أخرى (نائب زنكي)، فاذا ما قارنا هذين المنصبين بتنظيمات العصرين الايوبي والمملوكي، نجد انهما منفصلان عن بعضهما، فالنائب – هناك – كان يشترك مع السلطان في منح لقب الامارة وتوزيع الاقطاعات وتعيين الموظفين، ويعرض عليه كشفا باسماء الاشخاص الذين يرى وجوب ترشيحهم للمناصب المختلفة، فيقرها السلطان دون ان يرفض تعيين احد المرشحين إلا نادرا(٧٥٨). وكان من اعمال النائب – كذلك – توقيع المراسيم والمنشورات، وتنفيذ القوانين(٧٥٩) ، والركوب على راس فرق الجيش في المواكب الرسمية(٧٦٠) ، وتروس اجتماعات ديوان الجيش(٧٦١) ، وتلقي مكاتبات نواب المدن بصدد الامور المتعلقة بنياباتهم(٧٦٢). وهكذا كان النائب هو المتصرف المطلق في شتى المجالات العسكرية والمالية والادارية(٧٦٣). وقد اكد (فان برشم) على ان نائب السلطنة كان على راس الموظفين وله كل الاختصاصات التي لنواب السلطنة في الاقاليم الأخرى(٧٦٤).

أما (نائب القلعة) فهو غير نائب السلطنة، اذ ان اختصاصات الأول تنصب على الاشراف على فتح واغلاق باب القلعة المخصص لدخول الجند وخروجهم(٧٦٥) ، وتفقد اسوار القلعة ومنافذها، والعمل على اصلاحها وصيانتها، ثم ما لبث ان اصبح من اختصاصه – كذلك – الفصل فيما يقع بين العامة من الخصومات(٧٦٦). وكان يتمتع باستقلال كبير عن النائب(٧٦٧).

---

(٧٥٨) ابن الاثير : الكامل ١١–٥–٦ الباهر ، ص ٦٤.

(٧٥٩) صبح الاعشى ٥–٤٥٣.

(٧٦٠) المقريزي : الخطط ٢–٢١٥ ، السبكي : معيد النعم ، ص ٣٤.

(٧٦١) المصدر السابق : الخطط ٢–٢١٤ ، العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٦٥–٦٦.

(٧٦٢) القلقشندي : صبح الاعشى ٤–١٧.

(٧٦٣) المصدر السابق : ٤–١٦ ، المقريزي : الخطط ، ص ٢١٤.

(٧٦٤) المقريزي : ٢–٢١٥.

(٧٦٥) المصدر السابق : ٢–٢١٥.

(٧٦٦) علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، ص ٢١٥.

(٧٦٧) القلقشندي : صبح الاعشى ٤–٢٢–٢٣.

واضافة إلى هذين المنصبين – في العاصمة – كان هناك منصب ثالث هو منصب الوالي، وكانت مهمة هذا الموظف هي الاستعلام عن مجددات ولايته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك من نوابه، ثم تكون مطالعة جامعة بذلك تحمل إلى السلطان صبيحة كل يوم ليقف عليها(٧٦٨). وكان هذا الموظف يتولى – كذلك – تنفيذ الاحكام، واقامة الحدود، وتعقب المفسدين ومثيري الفتن ومدمني الخمر، ومعاقبة كل منهم حسب جريمته، فضلا عن مراقبة ابواب العاصمة، والطواف في احياء التجارة والمال(٧٦٩). وهكذا يبدو ان مهمة هذا الموظف كانت اشبه بمهمة البلدية في الوقت الحاضر، اما مهمة نائب القلعة فاشبه بمهمة الحامية العسكرية، واما النائب فاشبه برئيس الوزراء.

يتضح مما سبق ان نائب زنكي كان يجمع بيده هذه السلطات الثلاث، مما يشير إلى مدى اتساع صلاحياته، كما تتضح لنا تفاصيل هامة عن المهام التي كان يقوم بها بمجرد مقارنتها بنظم العصرين الايوبي والمملوكي التي هي استمرار للنظم الادارية للفترة السابقة، لا سيما الفترة الزنكية – النورية، كما يؤكد القلقشندي بقوله (ان الدولة الايوبية لما طرات على الدولة الفاطمية وخلفتها في الديار المصرية، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة، وغيرت غالب معالمها، وجرت على ما كانت عليه الدولة الاتابكية بالموصل – زمن عماد الدين زنكي – ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام)(٧٧٠). ومن ثم فبالامكان تتبع الخطوط العريضة لنظم زنكي الادارية على ضوء المعلومات الكثيرة المتيسرة عن نظم العهدين الايوبي والمملوكي.

ورغم ذلك فان هناك اسئلة عديدة عن هذا المنصب لا تحظى بجواب، اسئلة عن علاقة النائب ببقية الموظفين، تقف ازاءها صعوبات شتى اهمها سكوت المصادر عن تحديد الاختصاصات بين المؤسسات الادارية، واعطاء تفاصيل واضحة عن مدى نشاط كل منها، والاخطر من هذا ان بعض المصادر تجعل العمل الاداري الواحد مشتركا بين عدة مؤسسات أو موظفين، مما يزيد في صعوبة التوصل إلى اختصاص كل موظف.

ولا ريب ان هذه الصعوبات تكمن اساسا في طبيعة النظم الادارية لتلك الفترة، فهي رغم تبلورها إلى حد ما في العهدين الايوبي والمملوكي، كانت تعاني مشكلة التداخل بين المؤسسات

---

(٧٦٨) علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ٢٣١ عن : الخالدي : المقصد ، ص ٧.

(٧٦٩) المصدر السابق ، نفس الصفحة عن :

Van Berchem: Corpus, Egypte, 1/210-211.

(٧٧٠) القلقشندي : صبح الاعشى ٤-٦٠.

الادارية، وعدم وجود خطوط واضحة للتخصص، ويظهر ان بعض الموظفين كانت اختصاصاتهم مشتركة في عدد من الامور، كما هو الحال بين والي القاهرة والمحتسب مثلا، ولسنا ندري ماذا كان يحدث في مثل هذه الحالات، ولكن الباحث يصل إلى ان سلطة الوظائف كانت تتوقف إلى حد كبير على شخصية شاغليها، وان احدهم كان يقوي نفوذه وتبرز مواهبه فيطغى على اختصاص غيره.. ومثل هذا الاضطراب في الوظائف واختصاصها امر غير مستغرب في بيئة لم تكن النظم الادارية فيها قد وضعت على اسس وقوانين لا تقبل التفسيرات المختلفة[٧٧١].

واغلب الظن ان السلطات الادارية الواسعة التي كان نائب زنكي يمارسها كانت تتطلب جهازا اداريا واسعا لتنفيذ الاوامر والقرارات رغم ان المصادر اكتفت بالاشارة إلى ان النائب كان يساعده في الحكم وال يعينه هو وله الحق في عزله اذا ما دعت الضرورة إلى ذلك[٧٧٢]. وربما يشير النص الذي اورده البنداري[٧٧٣] عن عقاب زنكي لاصحاب نائبه جقر بقوله (واحل بنوابه نوائبه، وسلبهم القوة والقوت) إلى احتمال وجود نواب ثانويين يعتمد عليهم نائب زكي في مهامه.

نواب زنكي في الموصل :

١- نصير الدين جقر بن يعقوب ٥٢١-٥٣٩هـ :

هو أبو سعيد جقر بن يعقوب الهمذاني الملقب : نصير الدين[٧٧٤]. وجقر اسم اعجمي، ويرجح انه كان مملوكا[٧٧٥]. وكان جقر اعظم اصحاب زنكي منزلة، وقد لعب دورا هاما في توليته على الموصل عام (٥٢١هـ)[٧٧٦].

اتبع جقر سياسة ادارية تضاربت المصادر في تحديد سماتها، بل ان المصدر الواحد لم يستطع تجنب هذا التناقض، فابن خلكان يصفه بانه عرف بالعدل والانصاف وتجنب الجور والظلم، ثم يشير إلى ان الطابع العام لسياسته وما اشتهر عنه هو الظلم وانه كان (جبارا عسوفا

---

(٧٧١) علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ٢٣٠.

(٧٧٢) صبح الاعشى ٤-٥.

(٧٧٣) علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ٢٦٠.

(٧٧٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ١-٣١٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٤-١٢١-١٢٢.

(٧٧٥) تاريخ آل سلجوق ، ص ١٨٨.

(٧٧٦) ابن خلكان ١-٣١٥.

سفاكا مستحلا للاموال)[٧٧٧]. ويشير الفارقي إلى ما لقي الناس منه من (شدة الجور والظلم والقتل والمصادرات والاقساط)[٧٧٨]. ويرد في رواية ابن القلانسي ان جقر كان يسعى لجمع المال بمختلف الطرق الحلال والحرام، وانه كان يحاول تغطية سياسته المالية الظالمة هذه بالحيلة والرفق بالقول، وكان لبقا في ذلك حتى وصفت سياسته بانها (القصد السديد في سياسة الجمهور، والغاية في مرضي السياسة، والنهاية في قوانين الرئاسة)[٧٧٩].

كان ظلم جقر – كما يشير ابن خلكان – احد اسباب المؤامرة التي دبرها احد الامراء ضده[٧٨٠]. وكان زنكي يقول عنه (انه يخافني وما يخاف الله)[٧٨١]. ويمكن توضيح هذه التناقضات بان جقر اتبع سياسة شديدة قاسية ممتزجة باسلوب من الرفق واللباقة اضفى على سياسته سمات العدل، ودفع بعض المؤرخين إلى عدم التاكيد على اي من الجانبين، ويظهر انه كان قد اهتم إلى حد كبير بتجميع الاموال لحسابه وحساب اهله واقاربه حتى ان زنكي لدى عودته إلى الموصل بعد مقتل جقر، استخرج ذخائره وصادر معظم ما لاولئك الاقارب[٧٨٢].

ان اهم الاعمال التي انجزها جقر خلال فترة نيابته هي احكامه لاسوار الموصل، وحفره لخنادقها، ودفاعها عنها ضد حصار الخليفة المسترشد العباسي عام (٥٢٧هـ) الذي اضطر اخيرا إلى الانسحاب بسبب صمود جقر[٧٨٣]. كما قام جقر بقيادة جيوش زنكي لدى مهاجمة حصون الاكراد في الجهات الجبلية شمالي الموصل، حيث تمكن من الاستيلاء على معظمها[٧٨٤].

كان يساعد جقر في حكم الموصل وال يعينه هو، وقد ولى اولا رجلا يدعى (القزويني) فسار سيرة قبيحة وظلم الناس، فكثرت شكواهم منه مما اضطر جقر إلى عزله وتولية (عمر بن

---

(٧٧٧) المصدر السابق ١–٣١٦.

(٧٧٨) الباهر ، ص ٣٤–٣٥.

(٧٧٩) وفيات الاعيان ١–٣١٥–٣١٦.

(٧٨٠) تاريخ آمد وميا فارقين عن : حاشية ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، ص ٢٨١.

(٧٨١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨١–٢٨٢.

(٧٨٢) وفيات الاعيان ١–٣١٦.

(٧٨٣) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٥٧.

(٧٨٤) ابن خلكان ١–٣١٦.

شكله) مكانه، وقد اساء عمر السيرة اكثر من سلفه[٧٨٥] ، وربما كان هذا احد الاسباب الرئيسية في وصف المؤرخين لجقر نفسه بالظلم وسوء السيرة.

٢- زين الدين علي كجك بن بكتكين ٥٣٩-٥٤١هـ :

تعرف زنكي على زين الدين منذ ايام طفولته عندما توفي والده وهو في العاشرة، فعني به مماليكه واصحابه، وكان زين الدين من بينهم، ولم يكن هو الاخر قد جاوز مرحلة الطفولة[٧٨٦]. ومنذ ذلك الوقت ظل زين الدين ملازما لزنكي. وعندما تولى هذا امرة الموصل كان زين الدين قد غدا من ابرز رجاله، واتضحت قابلياته في المجال العسكري، لذا جعله زنكي احد قادته الكبار[٧٨٧] ، حيث اشترك معه في معظم حروبه في بغداد والشام ومناطق الاكراد. ولشدة حب زنكي له واعتماده عليه اقطعه عددا من المدن المهمة التي استولى عليها كاربل وعقر الحميدية شرقي الموصل، وشهرزور والرها، ولما كان زين الدين منهمكا في مهمته كقائد عسكري، لم يستطع ان يشرف بنفسه على اقطاعاته مما اضطره ان يعين فيها نوابا يديرونها باسمه[٧٨٨].

كان زين الدين رجلا صالحا[٧٨٩] ، ذا اصل تركماني[٧٩٠] ، لقب بكجك اي : القصير اللطيف، وكان معروفا بالقوة والشجاعة والاقدام[٧٩١] ، رؤوفا بالفقراء، مواسيا للمرضى[٧٩٢] ، اشتهر بالمحافظة على حسن العهد واداء الامانة، ولم يمارس غدرا قط[٧٩٣] ، وبلغ من تقواه ان

---

(٧٨٥) المصدر السابق ١-٣١٥-٣١٦.

(٧٨٦) الكامل ١١-٥-٦ ، الباهر ، ص ٦٤.

(٧٨٧) ابن خلكان : وفيات ١-٣١٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٤-١٢١-١٢٢.

(٧٨٨) الباهر ، ص ١٥.

(٧٨٩) ابن العديم : زبدة الحلب ٢-٢٦٤-٢٦٥ حيث يشير الى ان زين الدين كان من امراء زنكي الاصفهلارية ، وهو لقب فارسي بمعنى رئيس الجيش (حاشية مجد الدين بن الاثير ، رسائل ، ص ١٧١) ، او مقدم العسكر (القلقشندي : صبح الاعشى ٦-٨).

(٧٩٠) الباهر ص ١٠٩ ، ١٣٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١-١٥٤ ، ويخالفهما الفارقي في ان شهرزور كانت اقطاعا لسيف الدين غازي بن زنكي (تاريخ آمد ، مخطوطة ورقة ١٢٧أ-١٢٨ب) والى ذلك يذهب ابن خلكان : وفيات ٣-١٧٦.

(٧٩١) وفيات الاعيان ١-٣١٦.

(٧٩٢) الذهبي : دول الاسلام ٢-٥٥ ، ابن العماد : شذرات ٤-٢٠٩.

(٧٩٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ١-٢٧٢-٢٧٣ ، الذهبي : دول الاسلام ٢-٥٥.

قال عنه زنكي (انه يخاف الله ولا يخافني)[٧٩٤]. هذه الصفات جميعا جعلته موضع ثقة سيده، ورشحته لان يكون نائبه في الموصل، ولان يقطع عددا من المدن المهمة، فضلا عن بقائه قائدا عسكريا ممتازا.

وما ان تولى زين الدين منصبه الجديد عام (٥٣٩)، حتى سلك بالناس (غير الطريق التي سلكها جقر)[٧٩٥] ، فتجنب ظلم الاهالي واشاع فيهم العدل (فراوا منه كل خير)[٧٩٦] ، وبالرغم من انه لم يبلغ مكانة جقر الادارية أو (يضاهي كفاءته ومضاءه) إلا انه – بسياسته التي انتهجها – تمكن من تسكين نفوس اهل الموصل، واشاعة الاطمئنان في قلوبهم، وبذل جهده في حماية الطرق وقضاء حوائج المحتاجين، والانتصاف للمظلومين (فاستقام له الامر، وحسنت بتدبيره الاحوال)[٧٩٧]. وكان من نتائج ذلك ان انتشر الامن في المنطقة، وازداد عمران البلاد[٧٩٨] ، وتحققت بهذا آمال السكان[٧٩٩].

٣- نائب زنكي في حلب :

ادرك زنكي أهمية حلب بالنسبة لاعماله العسكرية والسياسية في الشام فاتخذها قاعدة له في المنطقة واعتبرها عاصمته الادارية هناك، واقام فيها جهازا اداريا يشابه إلى حد ما ذلك الذي اقامه في الموصل، وجعل على راس هذا الجهاز نائبه في حلب، ليقوم في منطقة الشام بما يقوم به نائبه في الموصل في الجهات الشرقية من امارته[٨٠٠].

ولم تقدم المصادر توضيحا كافيا عن عناصر النظام الاداري الذي اعتمده زنكي في حلب وتكتفي بالاشارة إلى وظيفتين اولاهما رئاسة حلب والأخرى النيابة، وان زنكي اكتفى في البداية بتعيين رئيس لحلب عام (٥٢٢هـ) لادارة شئونها[٨٠١].

---

(٧٩٤) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٧٧-١٧٨.

(٧٩٥) الباهر ، ص ١٣٥.

(٧٩٦) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٥٧.

(٧٩٧) الباهر ، ص ٧٢-٧٣.

(٧٩٨) الفارقي : تاريخ آمد (مخطوطة : ورقة ١٢٣ب-١٢٤أ) ، وفيات الاعيان ١-٣١٦.

(٧٩٩) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨١-٢٨٢.

(٨٠٠) الباهر ، ص ٧٣ ، أبو شامة : الروضتين ١-١٠٤.

(٨٠١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨١-٢٨٢.

ثم عين نائبا فيها بعد ذلك بسنتين[٨٠٢].

كانت حلب قد بلغت درجة متقدمة في نظمها الادارية، في الفترة التي سبقت سيطرة زنكي عليها، حيث اسهم عدد من كبار الموظفين في ادارة شئونها المختلفة، فكان هناك منصب النيابة عن الامير الذي تخضع حلب لممتلكاته[٨٠٣]. واغلب الظن ان هذا كان يمثل السلطة العليا في حلب، اذ انه كان ينوب عن الامير في ادارة المنطقة والاشراف على سائر موظفيها، كما كان هناك منصب الوزارة، وقد تعاقب على هذا المنصب ثلاثة وزراء في الفترة بين (٥١٦هـ و٥٢١هـ)، اذ كان هؤلاء عرضة للاقالة والتغيير نظرا لتقلب سياسة الامراء في تلك الفترة[٨٠٤]. كما كانت هناك ولاية القلعة[٨٠٥] ، وشحنكية البلد[٨٠٦] أي (محافظته). وقد تعرض هؤلاء ايضا للعزل والتغيير، ويظهر انه كان لكل من هذين المسؤولين سلطة غير محدودة نتيجة لاضطراب الامور في حلب اثر الهجمات الصليبية المستمرة عليها، فقد قاما بظلم الاهالي ومصادرة اموالهم وتسليط الجند عليهم، واستصفيا بذلك اموال جماعة من كبار رجالات حلب واغنيائها[٨٠٧] ، وقد اوكلت إلى هذين الموظفين مهمات دفاعية[٨٠٨]. وكان هناك، فضلا هن هؤلاء، موظف يدعى رئيس حلب[٨٠٩] ، لم تشر المصادر إلى دوره أو علاقاته ببقية كبار المسؤولين، ويظهر ان الرئيس كان يتمتع بسلطة عسكرية اضافة إلى مهامه الادارية[٨١٠].

واغلب الظن ان زنكي اقر معظم هذه الوظائف، واكتفى بمجرد تغيير الاشخاص، جاعلا نائبه في حلب المسؤول الاعلى عن الجهاز الادراي هناك. ويمكن تحديد مهام هذا النائب بتتّبع معالم منصبه في العهدين الايوبي والمملوكي حيث تكثر التفاصيل، وذلك بالاعتماد على

---

(٨٠٢) الباهر ، ص ٨٤.

(٨٠٣) الكامل ١٠-٢٤٧-٢٤٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ٢-٢٤٣.

(٨٠٤) المصدر السابق ٢-٢١٦.

(٨٠٥) المصدر السابق ٢-٢٢١.

(٨٠٦) المصدر السابق ٢-٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧-٢٣٨.

(٨٠٧) المصدر السابق ٢-٢٣٠.

(٨٠٨) المصدر السابق ٢-٢٣٢ ، ٢٣٧-٢٣٨.

(٨٠٩) المصدر السابق ٢-٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٣٧.

(٨١٠) المصدر السابق ٢-٢٣٧-٢٣٨.

ما قرره القلقشندي من ان الجذور الحضارية لهاتين الفترتين تعود إلى عهد اتابكة الموصل والشام[٨١١].

ففي عهد الايوبين والمماليك كانت تتبع السلطنة المركزية مجموعة من النيابات في بلاد الشام، على رأس كل منها نائب للسلطان، وكان نواب السلطنة في الاقاليم يختارون من اصحاب المناصب الحربية الذين كانت لهم الكلمة العليا في الدولة، وكان النائب يعمل على السيطرة على كل اصحاب الوظائف في هذا الاقليم، وكان السلطان يراقب ذلك بعين ساهرة ويشعر النائب بوجود السلطة المركزية عن طريق التدخل – احيانا – لملء وظائف شاغرة ليست من اختصاص السلطان، أو باصدار الاوامر مباشرة إلى مروؤسي النائب[٨١٢]. وكان نظام الحكم في كل من هذه النيابات يماثل نظام الحكم في مصر : فكل نيابة فيها عبارة عن مملكة مستقلة تنتظم الدواوين الحكومية والموظفين الذين يتولونها، ولكن بصورة مصغّرة[٨١٣].

ويوضح القلقشندي اهم اختصاصات نائب الاقليم، والتي تتلخصّ بنشر العدل، وتوطيد الملك، ومجابهة الاعداء، والقضاء على الفساد، وحماية الثغور، وتنظيم الامور المالية[٨١٤].

وهذه الصورة عن اختصاصات نائب الاقليم في العهدين الايوبي والمملوكي توضح، إلى حد ما، اختصاصات نائب زنكي في حلب، فقد اختار الاخير نائبه من كبار القادة العسكريين، وكان يطلق عليه احيانا اسم (مقدم زنكي في حلب)[٨١٥] ، مما يشير إلى ان هذا فوضه قيادة قواته في المنطقة اضافة إلى مهامه الادارية، اما عن مدى تدخل زنكي في السيطرة على سياسة نائبه فتتضح في قول سبط بن الجوزي في ان نائب زنكي قد قنع من امير (بالاسم لا غير)[٨١٦] ، مما يؤكد عدم تمتع هذا النائب باستقلال يذكر في تسيير الشؤون الادارية، كما جرى الامر في العهدين الايوبي والمملوكي، ولكن يبدو ان استقلال النائب انصب على العمليات

---

(٨١١) المصدر السابق ٢–٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٣٧.

(٨١٢) المصدر السابق ٢–٢٣٧–٢٣٨.

(٨١٣) صبح الاعشى ٤–٥.

(٨١٤) علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ٢١٩ عن :
H. Wiet E: Mosquees du Caire. p. 56.

(٨١٥) علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ٢١٨–٢١٩ عن :
H. La Voix: Catalogues des Monnaies Musulmanes de la Bibiotheque Nationale, Egypte et Syrie, pp. 323-336.

(٨١٦) صبح الاعشى ١٢–٨–١٢.

الحربية التي كان يقوم بها ضد الصليبيين بسبب طبيعة مركزه العسكري الذي يقتضي بذل مجهود حربي مستمر لايقاف نشاط الصليبيين وتقدمهم في المنطقة.

٤- نائب زنكي في حلب : سوار بن ايتكين ٥٢٤-٥٤١هـ :

قدم إلى حلب في عام (٥٢٤هـ) الامير سوار بن ايتكين الملقب بمسعود، هاربا من دمشق اثر تدهور علاقته باميرها، وتقدم لعرض خدماته على زنكي (فاكرمه هذا وشرفه وخلع عليه، واجرى له الاقطاعات الكثيرة واعطاه ولاية حلب واعمالها، واعتمد عليه في قتال الصليبيين، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الامور)[٨١٧].

كان يطلق على سوار احيانا لقب (مقدم عسكر زنكي بحلب)[٨١٨] ، وذلك لان سيده فوضه قيادة قواته في المنطقة اضافة إلى مهامه الادارية، بل ان اعماله العسكرية هي التي اكسبته شهرة واستنفدت معظم اوقاته وجهوده[٨١٩] ، بسبب قربه من المواقع الصليبية، وهكذا كان الامير سوار يشنّ هجمات سريعة خاطفة على قوات الصليبيين وقوافلهم، وكان – احيانا أخرى – يمد قوات زكي بجند من عنده يقودهم بنفسه ان دعت الضرورة، كما كان يقوم بالدفاع عن مدينة حلب واعمالها ضد هجمات الصليبيين، وفضلا عن الجنود النظاميين الذين اعتمدهم، كان ينضم اليه – احيانا كثيرة – تركمان المنطقة[٨٢٠] ، طمعا في الغنيمة أو حبا للجهاد، وقد استمر سوار في منصبه حتى مقتل زنكي عام (٥٤١هـ).

---

(٨١٧) الكامل ١١-٣.

(٨١٨) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٥.

(٨١٩) زبدة الحلب ٢-٢٤٥.

(٨٢٠) الكامل ١١-٣

ولاة (نواب زنكي) على المدن والقلاع :

يتضح مما سبق انه كان لزنكي نائبان مركزيان هما : نائبه في الموصل، الذي يشرف على الجهات الشرقية من الامارة، ونائبه في حلب الذي يشرف على الجهات الغربية (اي القسم الشامي). وفضلا عن هذين عين زنكي على المدن والاقاليم التي فتحها مجموعة من الولاة يطلق عليهم اسم النواب أو العمال.

وتكتفي المصادر في هذا المجال بذكر اسماء ولاة زنكي وسنيّ تعيينهم أو اقالتهم، وتعرض – احيانا – نبذة مختصرة عن سياستهم الادارية، ولكنها لا تشير إلى سلطات اي من هؤلاء وحدود اختصاصه، ومدى الحرية التي يمارسها، وفي اي المجالات ؟ ومدى صلاحياته تجاه زنكي وطبيعة ارتباطه به، والجهاز الاقليمي الذي يعاونه في شؤون الادارة، ومن الذي يقوم بتعيين اعضاء هذا الجهاز : زنكي ام الوالي ؟ وما هي علاقة الوالي بالجند، والمالية، والمؤسسات القائمة ؟ كما ان هذه المصادر لا تشير حتى إلى الفروق في السلطات بين هؤلاء وبين نائبي زنكي في الموصل وحلب، وان كان المرجح ان الذي يفصل بينهما هو خطورة المناصب التي كان يتمتع بها نائبا الموصل وحلب كعاصمتين للامارة، بينما كانت مراكز ولاة الاقاليم ثانوية.

ولا ندري شيئا عن التنظيم الاداري الذي اتبعه زنكي في ادارة اجزاء امارته الشاسعة، وهل قسمها إلى اقاليم عين على كل منها وال من قبله، ثم اعطى لذلك الوالي الحرية في تعيين الموظفين داخل نطاق ولايته ؟ ام انه اكد على الاتجاه المركزي في الادارة حيث جعل ولاته مرتبطين به لا يقومون باصدار امر أو تعيين احد إلا باستشارته ؟ وهل من الممكن اعتبار النظام الاداري الذي سار عليه الايوبيون والمماليك هو ذات النظام الذي سار عليه زنكي ؟

فقد قسم الايوبيون – والمماليك من بعدهم – دولتهم إلى اقاليم أو نيابات تضم كل منها مجموعة من المدن والحصون، حيث يعتبر النائب المسؤول الاعلى في نيابته، وممثل السلطان الشخصي الذي يرتبط به ويتلقى الاوامر منه. والى جانب هذا النائب كان السلطان يعين نوابا اخرين على القلاع، وكان يصدر بتعيينهم مرسوم سلطاني يكتب بديوان الانشاء.

كان نائب المدينة أو القلعة مستقلا في معظم الاحيان عن نائب السلطنة في الاقليم، وتابعا للحكومة المركزية مباشرة، وكان من واجبه ان يتجسس على النائب ويقاومه اذا حدثته

نفسه بالخروج على السلطان[٨٢١]. وكانت اهم واجبات نائب القلعة هذا، فضلا عما سبق، هي ان (يتولى حفظ القلعة وصونها، ولا يسلم مفتاحها لاحد إلا لمن يتولاها مكانه، أو لمن يامره السلطان بتسليمه له)[٨٢٢].

كان هذا التقسيم الاداري يشمل مناطق الشام وفلسطين، اما في مصر فقد كات الادارة المحلية متمثلة في الوالي، حيث كان يشرف على كل من الاعمال فئة من الموظفين على راسهم والي الاقليم الذي كانت مهمته العمل على استتباب الامن والنظام وبث الطمانينة في النفوس، والمحافظة على اموال الناس وارواحهم[٨٢٣].

الا ان هذه التقسيمات لا توضح ما كان عليه الوضع في عهد زنكي، وربما كان من اهم اسباب ذلك انه لم يات إلى الحكم في امارة واسعة مستقرة عمل من سبقه على ترسيخها، والقضاء على مشاكلها الاساسية، واتاحة المجال لاجراء الاصلاحات الادارية فيها وفق تنظيم معين. ولكنه – اي زنكي – تسلم الحكم في الموصل ولم يكن خاضعا له انذاك سوى هذه المدينة وبعض المواقع المجاورة، واما معظم المدن التي شملتها امارته فيما بعد، فقد جاءت اثر عمليات الفتح والاستيلاء اللتين انفق معظم جهوده في مجالهما ولذلك لم يتح له القيام بتنظيم اداري كالذي شهدته عهود الايوبيين والمماليك وانما كان يكتفي بتعيين من يثق به على كل مدينة أو موقع يتمكن من الاستيلاء عليه، وفي احيان أخرى كان يقطع ما يفتحه من مدن وقلاع لبعض قواده ومقربيه، وهكذا كان تنظيمه الاداري للاقاليم قائما على اساس شبه مرتجل.

واذ كانت معظم المدن التي نتكلم عنها ذات قلاع وحصون، فان المرجح ان اهم اعمال ولاتها كانت، حسب ما ذكره القلقشندي. حفظ تلك القلاع، وعمارة ما دعت الحاجة إلى عمارته منها، والاخذ بقلوب من فيها وجمعهم على الطاعة، وادخار الات الحرب ومهماتها، والاعتناء بغلق ابواب القلعة وفتحها، وتفقد احوالها في كل صباح ومساء، واقامة الحرس، وادامة العسس، وتعرف احوال المجاورين لها من الاعداء، واقامة نوب الحمام بها، والمطالعة بكل ما يتجدد لديه من الاخبار. هذا بالاضافة إلى مهمات الوالي المالية والعسكرية الأخرى، كمساعدة سيده في

---

(٨٢١) زبدة الحلب ٢–٢٤٥.

(٨٢٢) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٠–٢٤١ ، الكامل ١٠–٢٦١.

(٨٢٣) علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ٢٣١ عن :
V. Berchem: Corpus, Egypte, 1/210-211, Wiet : Les Mosquees du Caiire, p. 56.

عملياته الحربية، سواء بامداده بالجند والميرة، أو بتوسيع مناطق الولاية والدفاع عنها ضد هجمات الاعداء.

وفيما يلي جدول باسماء الولاة الذين عينهم زنكي على المدن التي فتحها، وسيكون تنظيم هذا الجدول قائما على اساس التسلسل الزمني لتاريخ الاستيلاء على تلك المواقع. وسوف نلاحظ ان المصادر استعملت كلمات مختلفة بالنسبة لتعيين الولاة على المدن، فتارة تذكر عبارة (اقطع زنكي...) وتارة أخرى (ولى...) وتارة ثالثة (وهب...) وهكذا. وهذا يشير – بطبيعة الحال – إلى نوعية السلطة والاختصاصات التي كان الوالي يمارسها، حيث نجد المقطع يتمتع بصلاحيات اوسع، في مجال اقطاعه، من الوالي الذي يمارس عملا اداريا فحسب، وسوف يرد في الجدول عدد من المدن والقلاع التي لم يذكر ولاتها بسبب اغفال المصادر لهم، ربما لعدم أهمية المكان، أو لتطرفه في البعد عن مركز الامارة. إلا ان المصادر تغفل احيانا ولاة بعض المدن المهمة، ويرجح في هذه الحالة ان بعض هذه المدن كانت تابعة لاشراف احد ولاة زنكي في مدينة أخرى مجاورة أو بعيدة.

اسم الموقع	سنة فتحه	الولاة وفترات حكمهم
البوازيج	٥٢١	لم يعين عليها احد، ربما لصغرها وعدم اهميتها.
جزيرة ابن عمر	٥٢١	تقي الدين حسن البربطي (٥٢١–؟)، ثم عزل لسوء سيرته[٨٢٤] ، والمرجح ان عمر بن محمد البرزي الفقيه اعقبه في الولاية واستمر فيها حتى مقتل زنكي[٨٢٥].
منبج وبزاعة	٥٢٢	كانتا تابعتين لحلب لقربهما منها، وقد ولي على منبج الامير حسان البعلبكي.
نصيبين	٥٢٣	جمال الدين محمد الاصفهاني (٥٢٣–؟)، وبعد تسنمه الوزارة[٨٢٦] اقطعت لاحد امراء زنكي الكبار ويدعى أبو بكر[٨٢٧] ، وبقيت تحت حكمه حتى مقتل زنكي[٨٢٨].

(٨٢٤) القلقشندي : صبح الاعشى ٤–١٨٥.

(٨٢٥) علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ٢٣٢.

(٨٢٦) الباهر ، ص ٨٤.

(٨٢٧) ياقوت : معجم البلدان ٢–٧٩.

(٨٢٨) الباهر ، ص ١١٨–١١٩.

سنجار	٥٢٣	تليماك (٥٢٣-٥٤١هـ)[٨٢٩].
الخابور	٥٢٣	لم يعين عليها احد، ربما لتبعيتها لسنجار.
حران	٥٢٣	سوتكين الكرجي (٥٢٣-٥٢٧هـ)، حيث اعلن العصيان واستمر خارجا على حكم زنكي حتى عام ٥٣٣هـ حين توفي، فاستولى زنكي ثانية على حران[٨٣٠] واقام نوابه بها إلى حين مقتله[٨٣١]. والمرجح انه عين فيها جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان رئيس حران السابق[٨٣٢].
السن	٥٢٣	لم تشر المصادر إلى واليها.
حماة	٥٢٣	اقطعت للياغسياني فاناب فيها ابنه شهاب الدين احمد (٥٢٣-٥٤١هـ)[٨٣٣] ، فيما عدا فترة استردادها من قبل حاكم دمشق (٥٢٧-٥٢٩هـ).
سرجة	٥٢٤	لم تشر المصادر إلى واليها.
دارا		لم تشر المصادر إلى واليه، وقد سلم إلى امير ماردين عام ٥٣٣[٨٣٤].
حصن الاثارب	٥٢٤	قام زنكي بتخريبه كيلا يستغله الصليبيون[٨٣٥].
اربل	٥٢٦	اقطعت لزين الدين علي كجك (٥٢٦-٥٤١)[٨٣٦] وقد عين هذا نائبا عنه فيها.
قلعة الصور	٥٢٨	وهبها زنكي لامير ماردين الارتقي[٨٣٧].
عقر الحميدية واعمالها	٥٢٨	اقطعت لزين الدين علي كجك (٥٢٨-٥٤١)[٨٣٨].

---

(٨٢٩) المصدر السابق ، ص ٨٩-٨٠.

(٨٣٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (مخطوطة) ورقة ٣٩ب.

(٨٣١) المصدر السابق ، ورقة ٤٧أ-٤٧ب.

(٨٣٢) المصدر السابق ، ورقة ١٧أ-١٨أ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١-٨٤.

(٨٣٣) ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ١٧أ-١٨أ.

(٨٣٤) زبدة الحلب ٢-٢٧٩-٢٨٠.

(٨٣٥) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٨ ، ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٩٧-٩٨.

(٨٣٦) الفارقي : تاريخ آمد (مخطوطة) ، ورقة ١٢١ب-١٢٢أ.

(٨٣٧) الباهر ، ص ٣٩-٤٢.

(٨٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب ١-٩٧ ، ١-١٥٤.

الشوش واعمالها	٥٢٨	قريبة من الحميدية، واغلب الظن انها الحقت بها واقطعت لزين الدين[٨٣٩].
الرقة	٥٢٩	شهاب الدين اميرك الجاندار[٨٤٠].
جبل جور	٥٣٠	وهبه زنكي لامير ماردين[٨٤١] ، ثم استرده عام ٥٣٩هـ.
السيوان	٥٣٠	وهبه زنكي لامير ماردين[٨٤٢] ثم استرده عام ٥٣٩هـ.
البارعية	٥٣٠	وهبه زنكي لامير ماردين[٨٤٣].
دقوقا	٥٣١	لم تشر المصادر إلى واليها، وربما الحقت باربل أو شهرزور.
حصن الخربة	٥٣١	اقطع للياغسياني فاناب فيه عيسى الحاجب (٥٣١-٥٤١هـ)[٨٤٤].
بعرين	٥٣١	لم تشر المصادر إلى واليها.
حصن عرقه	٥٣٢	قام زنكي بتخريبه كيلا يفيد منه الصليبيون[٨٤٥].
معرة النعمان	٥٣٢	لم تشر المصادر إلى واليها.
حصن المجدل		لم تشر المصادر إلى واليه.
بانياس	٥٣٢	اعلن صاحبه ابراهيم بن طرغت طاعته لزنكي فاقره على منصبه حتى عام ٥٣٤هـ[٨٤٦] ، حيث استولى الصليبيون عليه.
كفر طاب	٥٣٢	اقطعت للياغسياني (٥٣٢-٥٤١هـ)، ما عدا الفترة التي سيطر فيها الروم عليها سنة ٥٣٢هـ[٨٤٧].
حمص	٥٣٢	اقطعت للياغسياني (٥٣٢-٥٤١)[٨٤٨].

(٨٣٩) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٥٥-١٥٦.

(٨٤٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٤.

(٨٤١) الباهر ، ص ١٣٥.

(٨٤٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (مخطوطة) ورقة ٢٤أ-١٢٢أ.

(٨٤٣) الفارقي : المصدر السابق ، ورقة ١٢١ب-١٢٢أ.

(٨٤٤) المصدر السابق ، نفس الورقة.

(٨٤٥) زبدة الحلب ٢-٢٥٣-٢٥٤.

(٨٤٦) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٧٨-٧٩.

(٨٤٧) الباهر ، ص ٥٧.

(٨٤٨) زبدة الحلب ٢-٢٦٣-٢٦٤.

بعلبك	٥٣٤	ولي عليها نجم الدين ايوب (٥٣٤-٥٤١هـ) واقطعه زنكي ثلثها[٨٤٩].
شهرزور	٥٣٤	اقطعت لزين علي كجك لقربها من اقطاعه في اربل، فأناب عنه في حكمها الامير بوزان (٥٣٤-٥٤١هـ)[٨٥٠].
قلعة بهمرد	٥٣٥	لم تشر المصادر إلى واليها.
الحديثة	٥٣٦	تكتفي المصادر بالقول بان زنكي : عين نوابه فيها[٨٥١].

قلاع الامراء الهكارية :

اشب	٥٣٧	كانت تحت اشراف زين الدين علي كجك (٥٣٩-٥٤١هـ)[٨٥٢]
جبل لهيجة	٥٣٧	
قلعة الجلاب	٥٣٧	
نوشي	٥٣٧	

قلاع الاكراد المهرانية :

الشعباني	٥٣٧	لم تشر المصادر إلى ولاتها، والمرجح انها بمجموعها كانت تحت اشراف نائب زنكي في الموصل.
قرح	٥٣٧	
كواشي	٥٣٧	
كوشر	٥٣٧	
القي	٥٣٧	
سروة	٥٣٧	
الزعفراني	٥٣٧	
الربية	٥٣٧	

---

(٨٤٩) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٤٥.

(٨٥٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٧.

(٨٥١) أبو شامة : الروضتين ١-٨٦-٨٧ ، ١٢٤-١٢٥.

(٨٥٢) الباهر ، ص ١٠٩ ، ١٣٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١-١٥٤.

في ديار بكر :

طنزة	٥٣٨	لم تشر المصادر إلى ولاتها، والمرجح انها بمجموعها كانت تحت اشراف نائب زنكي في الموصل.
اسعرد	٥٣٨	
المعدن	٥٣٨	
حيزان	٥٣٨	
الزوق	٥٣٨	
فطليس	٥٣٨	
باتاسا	٥٣٨	

***

ذو القرنين	٥٣٨	
انيرون	٥٣٨	
اروق	٥٣٨	
ابرذون	٥٣٩	
عنه	٥٣٨	لم تشر المصادر إلى واليها.

في ديار بكر ايضا :

حاني		لم تشر المصادر إلى ولاتها، والمرجح انها بمجموعها كانت تحت اشراف نائب زنكي في الموصل.
ارقتين	٥٣٩	
حيرموك	٥٣٩	
بالمرقتين	٥٣٩	
الرها	٥٣٩	وليت لقطب الدين ينال بن حسان صاحب منبج (٥٣٩-٥٤١)[٨٥٣].
سروج	٥٣٩	

(٨٥٣) ابن الجوزي : المنتظم ١٠-١٠٢ ، الكامل ١١-٣٦-٣٧.

قلاع الاكراد البشنوية :

الهيثم لم تشر المصادر إلى ولاتها، والمرجح انها بمجموعها كانت تحت اشراف نائب زنكي في الموصل. (وجميعها لم يحدد زمن فتحها).

جديدة نصيبين

شاروا

الوزارة :

تثير مشكلة الوزارة في عهد زنكي كثيرا من التعقيدات بسبب غموض بعض النصوص واتباعها طريقة التعميم. كما ان احدا من المؤرخين لم يشر إلى مهام الوزير في عهد زنكي، واكتفت المصادر بعرض اسماء وزرائه وسنيّ تعيينهم وعزلهم، مع نبذ عن تراجمهم الشخصية التي لا تلقي ضوءً على الموضوع. وتزداد المشكلة تعقيدا عندما نتذكر مهام نائب زنكي الذي كان يتمتع بسلطات واسعة و(تفويض) على شئون الديوان والموظفين. فما هي مهام الوزير اذن؟

ان تتبع الوزارة في التاريخ الإسلامي، منذ نشوئها وحتى العصرين الايوبي والمملوكي في مصر والشام، يوضح بعض الشيء مشكلة الوزارة في عهد زنكي، وحدود اختصاصات الوزير، وطبيعة علاقاته ببقية الموظفين والمؤسسات الادارية، خاصة اذا ما تذكرنا النص الذي اورده القلقشندي والذي اكد فيه على ان جذور النظم الايوبية – المملوكية تعود إلى العصر الاتابكي في الموصل وحلب[٨٥٤] ، فضلا عن ان الوزارة في عهد زنكي ليست سوى جزء من التطور العام لهذا المنصب طيلة عصور التاريخ الإسلامي.

تبلور منصب الوزير منذ العصر العباسي الأول، وكان عمله في البداية يقتصر على تنفيذ اوامر الخليفة العباسي، لذا سمي هذا النوع من الاستيزار بـ (وزارة التنفيذ). وبعد مرور فترة قصيرة ظهر نوع اخر، عندما فوض الخليفة وزيره لادارة شؤون مملكته، اطلق عليه (وزارة التفويض)[٨٥٥]. واستمر هذا المنصب يتارجح بين التنفيذ والتفويض حسب مركز الخليفة أو السلطان الحاكم، حتى جاء الايوبيون فادخلوا نظام نيابة السلطنة، وحولوا معظم اختصاصات الوزير وسلطاته العملية إلى نائب السلطان، وهكذا غدا منصب الوزير اقل أهمية من ذي قبل.

---

(٨٥٤) الباهر ، ص ١٣٥.

(٨٥٥) ابن شداد : الاعلاق (مخطوطة) ورقة ٢٩أ.

ومع ذلك فان الوزارة في هذا العهد، والعهد المملوكي الذي اعقبه، لم تفقد مكانتها نهائيا، بدليل ما اورده المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة عن هذا المنصب. فالظاهري يقول (ومن انتصب لهذه الوظيفة – اي الوزارة – لزمه النهوض بمهمات الدولة وامور المملكة، بان يحمل اثقالها، ويزيح اختلالها، ويصلح احوالها، ويحفظ رجالها، وينمي اموالها، ويستخدم الكفاة ويوليهم اعمالهم.. فمن اخلص رفعه، ومن غدر عزله، ويعتني بجهات الاموال وحراسة اسبابها.. وضبط حسابها، والعدل في جبايتها.. ويقوم بتوزيع القطائع...)[٨٥٦]. كما يذكر القلقشندي بان الوزارة (من اجل الوظائف، وارفعها رتبة في الحقيقة)[٨٥٧].

إلاّ ان الذي حد من نفوذ الوزير في هذا العهد، ليس فقط نائب السلطان، وانما ايجاد مجموعة من الوظائف على راس كل منها شخص يدعى الناظر، كناظر الجيش، وناظر الخاص (اموال السلطان)، وناظر الدولة (الذي يشارك الوزير في الامور العامة والقضايا المالية)، وهكذا[٨٥٨].

اعتاد الايوبيون والمماليك اتخاذ وزيرين، احدهما من ارباب الاقلام ويدعى وزير الصحبة، لانه يرافق السلطان في اسفاره وتنقلاته، والاخر من ارباب السيوف، ويبقى مقيما في العاصمة، وسلطاته العملية اكثر أهمية من وزير الصحبة[٨٥٩]. وفضلا عن ذلك، كان لكل نيابة من نيابات الشام وزير يتمتع بما يتمتع به الوزير في مصر، ولم يكن يطلق عليه اسم الوزير وانما : ناظر المملكة الشريفة، أو ناظر النظار[٨٦٠]. اما مصدر تعيين الوزير فهو السلطان مباشرة حيث يصدر بذلك تقليد سلطاني[٨٦١].

ولا بد من الاشارة إلى ان القلقشندي عرض نموذجين من الوزراء في هذا العهد، اولهما يشبه وزير التفويض حيث تكون مهمته (الايصاء بالعدل وزيادة الاموال وتثميرها، والاقبال على

---

(٨٥٦) صبح الاعشى ٤–٥.

(٨٥٧) انظر موضوع الوزارة في : الماوردي : الاحكام السلطانية.

(٨٥٨) زبدة كشف الممالك ، ص ٩٣–٩٥.

(٨٥٩) صبح الاعشى ٤–٣٨.

(٨٦٠) المصدر السابق ٥/٤٦٥–٤٦٦.

(٨٦١) علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ٢٢٥ عن : الخالدي : المقصد ، ص ٢٦ و
Van Berchem: Corpus 1/203-204, 243.

تحصيلها، واختيار الاكفاء... الخ)[٨٦٢] ، وثانيهما يشبه وزير التنفيذ (اما الوزارة في زمانا فقد تقاصرت عن ذلك كله، حتى لم يبق منها إلا الاسم دون الرسم)[٨٦٣].

هذا هو الخط الاساسي لتطور نظام الوزارة، وبخاصة في العهدين الايوبي والمملوكي، وسنلاحظ ان في استعراض هذا التطور ما يوضح – إلى حد ما – مشكلة الوزارة في عهد زنكي.

فقد استحدث زنكي في امارته منصب النائب، وكان هذا النائب– كما رأينا – يتمتع بسلطات ادارية واسعة في المجالات المالية والادارية، والامن، وما يسمى اليوم بالدفاع المدني، فضلا عن مهامه العسكرية، وهو بهذا يشبه إلى حد كبير ما كان يتمتع به النائب من صلاحيات في العهدين الايوبي والمملوكي، مما اثر إلى حد كبير على اختصاصات الوزير، وافقده الكثير من سلطاته العملية وجعله، كما يقول القلقشندي : لا يملك إلا الاسم دون الرسم. وربما كان هذا هو السبب الاساسي في اغفال المصادر لذكر مهام واختصاصات وزراء زنكي، واقتصارها على تراجمهم الشخصية وسنيّ تعيينهم فحسب.

الا ان المشكلة الاساسية في موضوع الوزارة في عهد زنكي تبرز لدى تحليل منصب وزيره المشهور : جمال الدين الاصبهاني. فالمصادر تجمع على ان منصب الوزارة في عهد زنكي استمر مشغولا طيلة الفترة بين (٥٢٨ و٥٤١هـ) من قبل الكفر توثي (٥٣٨–٥٤١). فما هو اذن دور جمال الدين الذي تطلق عليه بعض المصادر لقب (وزير صاحب الموصل)[٨٦٤]؟ وكيف ينسجم هذا مع وجود وزراء آخرين لدى زنكي في هذه الفترة ؟

تذكر المصادر – من جهة أخرى – ان زنكي جعل جمال الدين (مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيما لا مزيد عليه)[٨٦٥] ، فما هي طبيعة منصبه اذن ؟ لعل المعلومات المختصرة، التي قدمتها المصادر عن هذا الرجل، تلقي ضوءا على الموضوع، فعبارة : جعله زنكي مشرف مملكته كلها، تعني انه اعطي سلطة عامة وشاملة تتيح لصاحبها الهيمنة على كل الامور الادارية في الامارة، وهذا يعني ان يكون منصبه اعلى في مستواه – من حيث الاشراف – من مستوى الوزير، وربما النائب ايضا، ويؤكد هذا ما اورده ابن خلكان من ان زنكي، لما اعطى جمال الدين ذلك المنصب، كان الوزير يومئذ الكفر توثي، فلما توفي هذا عام (٥٣٦) وتولى

---

(٨٦٢) القلقشندي : صبح الاعشى ٤–١٨٨ ، ١٨٩ ، ٣٠٩.

(٨٦٣) المصدر السابق ١٢–٣٣.

(٨٦٤) المصدر السابق ١٠–٩٢ ، ١١–٣٢١–٣٢٥.

(٨٦٥) المصدر السابق ٥–٤٩٩.

الوزارة بعده أبو الرضا بن صدقه (بقي جمال الدين على وظائفه)[٨٦٦]. وهذا يشير ايضا إلى ان منصب جمال الدين كان ثابتا لا يتاثر بالتقلبات الوزارية. ويذكر ابن الاثير كيف ان احد الولاة توسط لدى الوزير الكفرتوثي لدى سماعه بان جمال الدين يسعى لعزله، وكيف ان هذا الوزير اجابه : ما سمعت من جمال الدين شيئا من هذا عند زنكي، ومع هذا فالرجل يدخل قبلي ويخرج بعدي فما اعلم مايكون منه، ولم يزل كذلك إلى ان قتل زنكي[٨٦٧]. ويظهر من هذه الرواية ان ارتياب الكفرتوثي بجمال الدين لم يدفعه إلى الاصطدام معه، اذ ادرك مافي ذلك من خطورة، حيث كان جمال الدين يستند إلى قوة زنكي وحبه له وثقته به، تلك الثقة التي دفعته إلى (تحكيمه في امارته تحكيما لا مزيد عليه). ولعل هذا يوضح – بدوره – طبيعة العلاقة بين جمال الدين ووزراء زنكي، حيث يظهر انه كان يتمتع بمركز اقوى من مركز الوزير.

ولكن ما هي السلطات العملية التي كان جمال الدين يمارسها من خلال اشرافه العام ؟ يقول ابن الاثير : (قال والدي : كنت ارى من جمال الدين الوزير في ايام زنكي من الكفاية والنظر في صغير الامور وكبيرها، والمحاققة – اي التحقيق – فيها، مايدل على تمكنه من الكفاية)[٨٦٨]. وتشير المصادر إلى ان زنكي عول على جمال الدين، في الفترة الاخيرة من حكمه، في الاشراف على ديوانه، وزاد راتبه[٨٦٩] ، ومكنه في منصبه[٨٧٠].

لم يحاول جمال الدين ان يستغل منصبه لجمع المال لحسابه الخاص، بل كان ياخذ مايكفي لمعيشته (ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي)[٨٧١] ، مما زاد من اعتماد الاخير عليه وثقته به، (فمكنه من اصحاب ديوانه)[٨٧٢] ، وهكذا كان جمال الدين يتمتع بسلطات عملية واسعة، وخاصة في مسائل الاشراف على الديوان والمسائل المالية.

يتضح مما سبق ان جمال الدين كان يشغل منصبا خطيرا، إلا انا لا نستطيع تحديد اسم هذا المنصب، خاصة وان معظم المصادر تطلق على جمال الدين لقب (وزير). كما لا

---

(٨٦٦) الباهر ، ص ١١٨–١١٩ ، البنداري : آل سلجوق ، ص ١٩٢ ، ابن العماد شذرات الذهب ٤–١٨٥.

(٨٦٧) الباهر ، ص ١١٨–١١٩ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ٤–٢٢٨.

(٨٦٨) وفيات الاعيان ٤–٢٢٨.

(٨٦٩) الباهر ، ص ١١٨–١١٩.

(٨٧٠) المصدر السابق ، ص ٨٢.

(٨٧١) البنداري : آل سلجوق ، ص ١٩٢–١٩٣ ، ابن خلكان ٤–٢٢٨–٢٢٩.

(٨٧٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

يمكن اعتبار جمال الدين وزيرا ثابتا في الموصل، واعتبار الآخر وزير صحبة يتنقل مع زنكي اينما سار، ذلك ان الوزير الثابت – لدى الايوبيين والمماليك – كان من ارباب السيوف بينما كان جمال الدين رجلا مدنيا – كما سنرى من ترجمته – هذا فضلا عن عدم وجود ما يؤكد تنقل الوزير الاخر مع زنكي كوزير صحبة، لان الكفرتوثي – مثلا – يقول عن نفسه (كان جمال الدين يدخل قبلي ويخرج بعدي، فما اعلم مايكون منه ولم يزل كذلك إلى ان قتل زنكي)[٨٧٣] ، مما يؤكد انه كان مقيما في الموصل، أو ملازما لجمال الدين على الاقل. ثم ان جمال الدين نفسه كان يتنقل احيانا مع زنكي، كما حدث عام (٥٤١) وهي السنة التي قتل فيها زنكي حيث كان جمال الدين بصحبته.

من الممكن – اذن – اعتبار وظيفة جمال الدين مشابهة – إلى حد كبير – لمنصب (ناظر الدواوين) أو (ناظر الدولة) في العهدين الايوبي والمملوكي، وهو الذي يعبر عنه في مصطلح الدواوين باسم صاحب (الصحبة الشريفة)، اي انه يتحدث مع الوزير في كل مايتعلق باعماله، ويشاركه الكتابة والتوقيع على القضايا المعروضة عليه. واذا صادف ان كان الوزير صاحب سيف، تولى الناظر الاشراف على شئون الدولة المالية، واقتصرت مهام الوزير على التنفيذ[٨٧٤]. وهذا الراي ينسجم تماما مع كون جمال الدين (مشرفا على الديوان).

وزراء زنكي :

الكفرتوثي ٥٢٨-٥٣٦هـ :

تجمع المصادر على ان اول من استوزره زنكي هو ضياء الدين أبو سعد بهرام بن الخضر الكفرتوثي[٨٧٥] عام (٥٢٨). ويتضح من هذا ان السنوات السبع الاولى من حكم زنكي لم يكن قد اتخذ خلالها وزيرا، وربما كان نائبه في الموصل هو الذي يقوم بمهام الوزير، مما جعل زنكي يستغني عن هذا المنصب طيلة تلك المدة.

---

(٨٧٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٨٧٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٨٧٥) الباهر ، ص ١١٨-١١٩.

لم تشر المصادر إلى الظروف التي دفعت زنكي إلى استحداث هذا المنصب في هذه السنة بالذات، كما تتغاضى عن المهام التي كلف الكفرتوثي القيام بها، وتكتفي بالقول بانه كان (مشهورا، حسن الطريقة والكفاية وحب الخير والمذهب الحميد)[٨٧٦]. وقد قدم مع زنكي إلى حلب[٨٧٧] ، مما يشير إلى انه لم يكن مستقرا في الموصل بشكل دائم.

أبو الرضا بن صدقه ٥٣٦-٥٣٨هـ :

بقي الكفرتوثي في منصبه كوزير طيلة اثني عشر عاما، وتوفي في شعبان عام (٥٣٦هـ)[٨٧٨]. فاستوزر زنكي بعده جلال الدين ابا الرضا محمد بن صدقه[٨٧٩] ، الذي ترجع معرفته به إلى عام (٥٣٠هـ)، وذلك عندما ثار الخليفة العباسي الراشد ضد السلطان السلجوقي مسعود وانضم اليه زنكي وعدد من الامراء، وكان أبو الرضا انذاك وزيرا للراشد، وحدث ان تدهورت العلاقة بين الخليفة ووزيره وسعى إلى القبض عليه، فالتجا أبو الرضا إلى زنكي الذي استطاع ان يقنع الخليفة باعادته إلى الوزارة[٨٨٠]. وبعد هزيمة الراشد وزنكي عام (٥٣٠) توجها إلى الموصل، وكان أبو الرضا بصحبتهما، وقد اقنعه زنكي بالبقاء بالموصل اثر خروج الراشد منها[٨٨١].

وربما كان من اهم اسباب ترشيحه للوزارة انه مارس مهام هذا المنصب فترة من الزمن، بحيث اصبحت له دربة كافية فيه، ولكنه لم يستمر في منصبه الجديد طويلا، اذ عزله زنكي عام (٥٣٨) (لاسباب اوجبت ذاك ودعت اليه)[٨٨٢] ، ويظهر ان أبا الرضا لم يقم بدور يذكر كوزير،

---

(٨٧٦) القلقشندي : صبح الاعشى ٥-٤٦٥.

(٨٧٧) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٣ ، الكامل ٥-١١ ، وفيات الاعيان ٤-٢٢٨ ، زبدة الحلب ٢-٢٥٤. الكفر توثي نسبة الى كفر توثا ، وهي قرية من اعمال الجزيرة بين رأس عين ودارا : ياقوت : معجم البلدان ٤-٢٣٢.

(٨٧٨) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٤٣-٢ ، ٢٧٥ ، الكامل ١١-٥ ، ٣٧ ، زبدة الحلب ٢-٢٥٤.

(٨٧٩) زبدة الحلب ٢-٢٥٤.

(٨٨٠) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٥ ، الكامل ١١-٣٧ ، زبدة الحلب ٢-٢٧٦.

(٨٨١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٧ ، الفارقي : تاريخ آمد (مخطوطة ورقة ١١٦ب-١١٧أ) ، البنداري : آل سلجوق ، ص ١٦٥ ، زبدة الحلب ٢-٢٧٦.

(٨٨٢) الباهر ، ص ٥١-٥٣ ، الكامل ١١-١٥.

ويشير ابن طباطبا إلى انه (لم يكن له من السيرة ما يذكر)[٨٨٣]. اما حقيقة الاسباب التي دعت إلى عزله فربما كانت تعود إلى عدم كفاءته، أو إلى موقف معين اتخذه مما دفع زنكي إلى اقالته، وقد عاد أبو الرضا بعد عزله إلى بغداد[٨٨٤].

أبو الغنائم حبشي ٥٣٨-٥٤١هـ :

استوزر زنكي بعد اقالة أبي الرضا : حبشي بن محمد الحلي[٨٨٥] ، وينفرد ابن العديم بالاشارة إلى هذا الوزير، دون ان يوضح دوره أو المهام التي انجزها.

أبو المحاسن العجمي :

يذكر ابن القلانسي ان زنكي القى القبض عام (٥٣١هـ) على وزيره أبي المحاسن علي بن أبي طالب العجمي واعتقله في قلعة حلب، حيث بقي هناك، بسبب مصادرته للاموال (وانكسار المعاملات التي عجز عن القيام بها) وتأدية ما عليه من التزامات مالية[٨٨٦]. ويبدو من هذا النص ان زنكي كان يعتمد على وزيرين اثنين – احيانا – احدهما مقره الموصل والاخر حلب، كما حدث في العهدين الايوبي والمملوكي حيث عينوا عدة وزراء في نياباتهم، ولم تشر المصادر إلى الوزراء الذين سبقوا (العجمي) واعقبوه في منصب الوزارة في حلب، ولكن الراجح ان زنكي راى نفسه مضطرا إلى اعتماد وزير له هناك للاشراف على الامور الادارية والمالية، لا سيما وان نائبه في حلب (الامير سوار) كان يصرف معظم وقته وجهوده في جهاده للصليبيين، ولم تقدم المصادر عن ترجمة العجمي شيئا يستحق الذكر.

---

(٨٨٣) ابن الجوزي : المنتظم ١٠-٦٧-٦٨ ، الذهبي : العبر ٤-٨٤.

(٨٨٤) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٧ ، الفارقي : تاريخ آمد (مخطوطة ورقة ١١٦ب-١١٧أ) ، زبدة الحلب ٢-٢٧٦ ، ٢٧٨.

(٨٨٥) الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٤٧.

(٨٨٦) الفارقي : ورقة ١١٦ب-١١٧أ.

جمال الدين الاصفهاني :

أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الملقب بجمال الدين والمعروف بالجواد الاصفهاني. تولى ابوه مناصب مهمة في بلاط السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ) فلما ولد جمال الدين عني بتادبيه، وعندما كبر دخل في خدمة ديوان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه فظهرت كفايته، فلما ولي زنكي الموصل استصحب معه جمال الدين وقربه[٨٨٧] ، وعندما استولى على نصيبين في العام التالي ولاه عليها، فابان عن نزاهة ومقدرة وكفاية دفعت زنكي إلى ان يضيف الرحبة إلى ولايته، وسرعان ما غدا جمال الدين من خواص زنكي واكبر ندمائه، فاستدعاه إلى الموصل وجعله (مشرف مملكته كلها)[٨٨٨] – كما مر بنا –.

وتطنب المصادر في وصف اخلاق جمال الدين، مركزة الاضواء على كرمه العجيب، تلك الاخلاق التي قربته من زنكي، وجعلته محبوبا ومشتهرا في انحاء واسعة من العالم الإسلامي، ومنحته لقب الجواد لكثرة جوده، كما دفعت ابناء زنكي – فيما بعد – إلى الاعتماد عليه في ادارة امارتهم[٨٨٩].

يتضح من استعراض تراجم هؤلاء الوزراء جميعا ان معظمهم ليسوا من الموصل، بل ليسوا من امارة زنكي، على سعتها، فأبو الرضا من بغداد، والعجمي والاصبهاني من بلاد فارس، وأبو الغنائم من الحلة، والوزير الوحيد من سكان الامارة هو الكفرتوثي، واغلب الظن ان اهم العوامل التي دفعت زنكي إلى ذلك هي رغبته في اعتماد وزراء يتميزون بالكفاءة والدربة الادارية اللازمتين لتسيير شئون امارة تتّسع اطرافها يوما بعد يوم. وهناك عوامل أخرى كالاخلاص والامانة، فضلا عن روابط الصداقة والمعرفة السابقة، وربما كان امتناع زنكي عن استيزار اهالي الموصل خوفه من قيام الوزير (الموصلي) باستغلال منصبه وتقريب جماعته وانصاره في وظائف الامارة ومرافقها المختلفة، وتجنبا لحدوث تكتلات داخل الجهاز الاداري، وان لم يمنع هذا من قيام بعض وزرائه بممارسة هذه الاخطاء.

ويتضح من هذا الاستعراض – كذلك – ان زنكي استوزر اشخاصا مدنيين، وتحاشا القادة والامراء العسكريين، وربما قدر ان منصب الوزارة بطبيعته منصب مدني يسند إلى

---

(٨٨٧) زبدة الحلب ٢-٢٧٨.

(٨٨٨) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٣.

(٨٨٩) البنداري : آل سلجوق ، ص ١٩٢-١٩٣ ، الباهر ، ص ١١٨-١١٩.

ارباب الاقلام لا السيوف، ومن ثم لا نجد في عهد زنكي ما حدث في العهدين الايوبي والمملوكي – مثلا – من اتخاذ وزيرين احدهما من ارباب السيوف والاخر من ارباب الاقلام، ثم ان هذا الاستعراض يبين لنا ا عزل وتعيين الوزراء كان بيد زنكي مباشرة، ولا علاقة لكبار الموظفين – كالنائب مثلا – بهذا الامر.

الموظفون ونظام التوظيف والدواوين :

اهتم زنكي بامر الوظائف والموظفين اهتماما كبيرا كي يستطيع ان يسير امور دولته بشكل منظم، وكي يجنب جهازه الاداري الهزات التي كثيرا ما تعرقل سير الامور، وقد طبق زنكي مبدا تكافؤ الفرص في المجال الاداري كي يحقق هدفه انف الذكر ويضع يديه على الموظفين الاكفاء، فكان (يتعهد اصحابه ويمتحنهم فلا يرفع احدا فوق قدره الذي يستحقه ولا يضعه دونه)[٨٩٠] ، كما كان يجعل كفاءة الشخص اساسا لتقدير راتبه[٨٩١].

وكان زنكي – من جهة أخرى – يولي موظفيه ثقته (على قدر ما يعلم منهم) كي يشعرهم بالامن والاستقرار، وهو امر ضروري لتقديم خدماتهم الادارية على احسن وجه، فكان (قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغير على احد من اصحابه مذ ملك إلى ان قتل إلا بذنب يوجب التغير، والامراء والمقدمون الذين كانوا معه اولا، هم الذين بقوا اخيرا، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له)[٨٩٢]. وهذا هو الذي دعا جمال الدين الوزير إلى وصف زنكي بانه كان (متمكنا قوي العزم لايتجاسر احد على الاعتراض عليه ولا يتلون باقوال اصحابه) مما دفع اصحابه إلى (حفظه)[٨٩٣].

---

(٨٩٠) الباهر ، ص ١١٨–١١٩ ، وفيات الاعيان ٤–٢٢٨.

(٨٩١) يراجع بشأن ترجمة جمال الدين باسهاب ، المصادر التالية : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٦ ، البنداري : آل سلجوق ، ص ١٩٢–١٩٣ ، ٢٠١ ، ابن الاثير : الباهر ، ص ١١٨–١١٩ ، ١٢٩–١٣٠ ، الكامل ١١–١٢٥–١٢٦ ، ابن خلكان وفيات الاعيان ٤–٢٢٨–٢٢٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢–٢٤٨–٢٤٩ ، ابن العماد : شذرات ٤–١٨٥.

(٨٩٢) الباهر ، ص ٧٩ ، الروضتين ١–١١١.

(٨٩٣) الباهر ، ص ٦٣.

كان زنكي ينتقي موظفيه من (الرجال ذوي الهمم العالية، والاراء الصائبة، والانفس الابية)[٨٩٤] ، فاذا ما اضيف إلى ذلك توسيعه في رواتب موظفيه[٨٩٥] ، ادركنا مدى اخلاص هؤلاء له ولعملهم، ومدى سير الامور الادارية في ولايته سيرا طبيعيا، وخير مثل على ذلك موظفه الكبير جمال الدين الاصبهاني الذي اظهر في ايامه (من الكفاية والنظر في صغير الامور وكبيرها، و(التحقيق) فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية)، فلما وزر – جمال الدين نفسه – لقطب الدين مودود بن زنكي، قلت كفايته وصار يهمل بعض الامور، وعندما سأله أحد الموظفين عن السبب في ذلك اجاب : (ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، انما هي ان يسلك الانسان في كل زمان وما يناسبه)[٨٩٦]!!

كان زنكي يؤمن بما يسمى اليوم (الدكتاتور العادل) ! ويسعى إلى تطبيق هذا المبدا في مجال الادارة، فكان يقول (ما يتفق أن يكون اكثر من ظالم واحد – يعني نفسه –)[٨٩٧] ، وواضح من هذا ان كلمة ظالم لا تعني – هنا – مفهومها اللغوي بقدر ماتعني السيطرة الفردية المركزية في الحكم، وعدم السماح للموظفين الاخرين بالارتفاع إلى مستوى مسؤوليته في الادارة، ومشاركته في الحكم، ولهذا السبب – نفسه – لم يكن زنكي يسمح لموظفيه وعماله بظلم احد من افراد الرعية، أو التعرض لهم باي اذى، وقد عاقب عز الدين الدبيسي – وهو من اكابر امرائه – لانه سلب احد يهود جزيرة ابن عمر بيته[٨٩٨] ، وعاقب احد ولاته بسمل عينيه لتعرضه لامراة[٨٩٩] ، (فخاف الولاة وانزجروا)[٩٠٠].

و(عجز القوي عن ظلم الضعيف)[٩٠١].

ولذلك ايضا كان ينهى اصحابه وموظفيه عن اقتناء الاملاك، قائلا لهم : (ما دامت البلاد بايدينا فاي حاجة بكم إلى الاملاك ؟ فان الاقطاعات تغني عنها، فان خرجت البلاد من ايدينا، فان الاملاك تذهب معها !! ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية،

---

(٨٩٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٨٩٥) المصدر السابق ، ص ٨٢–٨٣.

(٨٩٦) المصدر السابق ، ص ٨٣ ، الروضتين ١–١١٤.

(٨٩٧) المصدران السابقان ، نفس الصفحات.

(٨٩٨) الباهر ، ص ٨٢–٨٣.

(٨٩٩) زبدة الحلب ٢–٢٨٤.

(٩٠٠) الباهر ، ص ٧٦–٧٧ ، الكامل ١١–٤٥ ، الروضتين ١–١٠٩–١١٠.

(٩٠١) الباهر ، ص ٨٤ ، الكامل ١١–٤٥ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨–١٩٠.

وتعدوا عليهم، وغصبوهم املاكهم)[٩٠٢]. وقد لخص زنكي بهذا التصريح سياسته العادلة ازاء الرعية، وموقفه من موظفيه، كما اوضح مفهومه عن الحكم المستبد العادل، وهذا هو الذي دفع عددا من المؤرخين إلى التاكيد على سياسته العادلة لدى استعراضهم لسيرته[٩٠٣] ، وأنه – على سبيل المثال – كان يتقبل آراء الرعية وانتقاداتهم، ويروي ابن واصل ان زنكي كان يمارس الظلم في بدء امره، فسمع في احدى الليالي شخصا يغني بيتين من الشعر عن العدل، فبكى وتبدلت نيته في الظلم، والزم نفسه بالعدل منذ ذلك اليوم[٩٠٤]. كما يشير ابن العديم إلى ان اهل حران امتدحوا سياسة زنكي العادلة معهم، ثم يقول (وبلغني انه لا يتجاسر احد من رعيته، كائنا من كان، ان يظلم احدا من خلق الله)[٩٠٥].

ولكن الذي يؤخذ على زنكي – في هذا المجال – سماحه لبعض كبار موظفيه – كالياغسياني وجقر – بظلم الرعية، وتغاضيه عن هذا الظلم، ويشير قوله لابن منقذ، في تعليق له عن كبار موظفيه، إلى مدى هذا التساهل ازاء هؤلاء، اذ قال (ثلاثة غلمان ! احدهم يخاف الله تعالى وما يخافني : يعني زين الدين، والاخر يخافني وما يخاف الله تعالى : يعني جقر، والاخر ما يخاف الله ولا يخافني : ويعني الياغسياني)[٩٠٦]. وعلى اية حال فان قولا عابرا كهذا لا يمكن بحال ان يسم سياسة زنكي بالظلم وينفي كل التاكيدات السابقة.

ان الكلام عن الوظائف ونظام التوظيف يجرنا إلى موضوع الدواوين وتنظيمها وعددها واختصاصات كل منها، وهل كان هناك عدد من الدواوين يتمتع كل منها باستقلاله عن الاخر ؟ ام انها ركزت – جميعا – في ديوان واحد يمتلك كل الاختصاصات بشكل مختلط؟ فنحن نجد عددا كبيرا من الدواوين المستقلة شهدها العصران الايوبي والمملوكي، كديوان المستاجرات والحمايات الشريفة، وديوان الاحباس (ما يحبس به من الارزاق)، وديوان الاشراف (عن انساب الاشراف)، وديوان العمائر (يتعلق بالمهندسين وارباب العمائر)، وديوان الذخيرة (تجمع به اموال

---

(٩٠٢) سبط بن الجوزي : مرآة ٨–١٩٠.

(٩٠٣) الباهر ، ص ٧٦–٧٧ ، زبدة الحلب ٢–٢٨٤.

(٩٠٤) الباهر ، ص ٧٧ ، الروضتين ١–١١٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١–١٠١.

(٩٠٥) الباهر ، ص ٧٦–٧٧ ، الكامل ١١–٤٥ ، مفرج الكروب ١–١٠٠–١٠١ ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢–٢٢١.

(٩٠٦) مفرج الكروب ١–١٠٠–١٠١.

الذخيرة من جهات متعددة)، وديوان الاستيفاء، وديوان الزكاة، وعدد كبير اخر من الدواوين التي كان لكل منها ناظر ومباشرون[٩٠٧]. فهل كان في امارة زنكي مثل هذا التخصص في الدواوين ؟

الذي يلاحظ انه – فيما عدا ديوان الجند –[٩٠٨] لم ترد سوى اشارتين عن الديوان بصفة عامة، احداهما تقول ان زنكي جعل جمال الدين مشرف ديوانه، وهي لا تقدم صورة عن اختصاصات الديوان واقسامه المالية والادارية المختلفة، رغم ان هذا الديوان كان – على ما يظهر – ذا أهمية كبيرة بحيث جعل الاصفهاني مشرفا عليه، وهو الذي عرفنا عنه انه كان يتمتع بمنصب اكثر أهمية من منصب الوزارة، مما يشير إلى ان وظيفة الاشراف على الديوان كانت على درجة كبيرة من الأهمية.

أما الإشارة الثانية إلى الديوان فهي تلك التي اوردها ابن الاثير وتقول ان ديوان زنكي كان (يقاس بدواوين السلاطين السلجوقية لكثرة التجمل، ونفاذ الامر، وعظم الحاشية والخرج)[٩٠٩]. وهذا يؤكد أهمية ذلك الديوان وبلوغه مرحلة متقدمة من الاتساع والنمو وكثرة الموظفين وضخامة المصروفات بحيث ان اي مراجع كان يقصده كان يجد من (توفر – موظفيه – عليه ونظرهم في مصالحه ما – يجعله – كأنه في أهله)[٩١٠].

الامن الداخلي والاعمار :

استطاع زنكي، بادارته الحازمة (وضبطه للامور)[٩١١] ، وعدالته، وبمساعدة اجهزة الجيش والبريد، ان يحقق نتائج هامة في امارته في مجال اقرار الامن والقضاء على المفسدين ونشر العمران في البلاد، حيث يشير ابن العديم إلى ان البلاد عمرت في ايام زنكي (بعد خرابها، وسادها الامن بعد الخوف، وكان زنكي لا يبقي على مفسد)[٩١٢]. وقد كان الامن مضطربا في الموصل نفسها خلال الفترة التي سبقت حكم زنكي، ويورد ابن الاثير نصا يلقي ضوءا على الموضوع، رغم ما فيه من مبالغة، يقول فيه (كان الناس لا يقدرون على المشي إلى الجامع غير

---

(٩٠٧) زبدة الحلب ٢–٢٨٤ ، بغية الطلب (مخطوطة ٨–٢١١و) حاشية الزبدة ٢–٢٨٤.

(٩٠٨) الاعتبار ، ص ١٥٧.

(٩٠٩) الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٩–١١٠.

(٩١٠) أنظر فصل (النظم العسكرية : الجيش).

(٩١١) الباهر ، ص ٨٣.

(٩١٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

يوم الجمعة لبعده عن العمارة)[٩١٣] ، وكانت معظم مناطق الموصل البعيدة عن المركز خربة لا عمران فيها ولا امن، وسرعان ما ساد العمران هذه المناطق لدى مجيء زنكي[٩١٤] ، بفضل حمايته للبلاد ومنعه المفسدين وكفه ايدي الاقوياء[٩١٥].

كان لانتشار الامن في المنطقة اثر واضح في زيادة عدد السكان في امارة زنكي[٩١٦] ، كما غدت الموصل ملجا للمهاجرين من بغداد بسبب فقدان الامن هناك واشتداد الضوائق الاقتصادية[٩١٧]. وبالامكان معرفة الدور الذي لعبه زنكي في مجال الامن بتتبع ذلك في الايام التي اعقبت اغتياله حيث (اضطربت الاعمال واختلت المسالك، وانطلقت ايدي الحرامية في افساد الاطراف والعبث في سائر النواحي)[٩١٨].

وعندما كان زنكي يسيطر على المدن، لم يكن يترك جنوده يتحكمون بمقدراتها ويسيئون إلى اهاليها وينشرون الرعب والفوضى في ربوعها، بل كان سرعان ما يعين عليها واليا من قبله كي تكون الكلمة والسلطة بايدي رجال مدنيين، من اجل احلال الامن في المدينة واعمارها.

وكان لا يسمح – ابدا – لجنده – خلال التحركات والعمليات الحربية – بان يعتدوا على الفلاحين بنهب أو تخريب مزارعهم (فكان العسكر يمشي خلفه كانهم بين خيطين، مخافة ان يدوس العسكر شيئا من الزرع.. ولا يجسر احد من اجناده ان ياخذ – ولو مقدارا ضئيلا من التبن – من فلاح إلا بثمنه، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية، وان تعدى احد صلبه)[٩١٩].

ومرارا عديدة، وفي مناطق مختلفة، اثبت زنكي حبه للنظام، والاستقرار وكراهيته للتخريب والهدم والتسلط العسكري. ففي عام ٥٢٨ – مثلا – قام بالقضاء على اعمال النهب والفوضى التي كان يقوم بها بعض اكراد شرقي الموصل ضد الفلاحين[٩٢٠]. وفي عام (٥٣٣) استولى على منطقة شهرزور التركمانية (فاصلح احوال اهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من

---

(٩١٣) المصدر السابق ، ص ٧٧.

(٩١٤) زبدة الحلب ٢–٢٨٤.

(٩١٥) الباهر ، ص ٧٧ ، الكامل ١١–٤٥ ، وانظر ابن العبري : مختصر تاريخ البشر ، ص ٢٠٦–٢٠٧.

(٩١٦) الباهر ، ص ٧٧ ، الكامل ١١–٤٥.

(٩١٧) الباهر ، ص ٧٧–٧٨.

(٩١٨) الكامل ١١–٤٥.

(٩١٩) المصدر السابق ١١–٢٥ ، ابن خلدون : العبر ٥–٦٣.

(٩٢٠) أبو شامة : الروضتين ١–١١٥–١١٨.

التركمان)[٩٢١] ، وفي عام (٥٣٧هـ) استطاع ان يستولي على عدد من حصون الاكراد شمالي الموصل وان يقضي على اعمال الفساد في المنطقة[٩٢٢]. وفي عام (٥٣٩هـ) قام عسكره – اثر استرجاع الرها من الصليبيين – باستباحة المدينة خلال الايام الاولى من الفتح (فلما دخل زنكي البلد اعجبه منظره، فأسف لمثله من الخراب، ورأى ان تخريبه واخلاءه من اهله غير مستحسن من مثله، فامر باعادة ما اخذ من سبي واموال، فردوا عن اخرهم.. وعاد البلد عامرا اهلا أمنا ..) [٩٢٣]. ثم اصدر اوامره باعادة اعمار الرها[٩٢٤]. ولا ادل على حب زنكي للاعمار ورفقه باهالي المناطق المفتوحة من تعيينه نجم الدين ايوب واليا على بعلبك عام (٥٣٤هـ)، وهو الذي توسط لدى زنكي في العفو عن امراء بعلبك الذين حكم عليهم بالاعدام، فاجابه زنكي إلى طلبه وولاه على بعلبك واقطعه ثلثها[٩٢٥].

وقد اتبع زنكي ما يمكن تسميته بـ (سياسة الترحيل)، اي نقل جماعة من مكان إلى مكان آخر لتحقيق غرضين اولهما : التمكين لحكمه في بعض المناطق التي استولى عليها، وثانيهما اتخاذ بعض هذه الجماعات كقوات حاجزة بين ممتلكاته وبين مناطق الاعداء، ففي عام (٥٣٦هـ) استولى على مدينة الحديثة الواقعة على الفرات، ونقل من كان بها من ال مهراش إلى الموصل. ورتب اصحابه فيها[٩٢٦] ، واغلب الظن ان آل مهراش هم حكام (الحديثة) الذين كانوا يهددون سيطرة زنكي على المدينة مما اضطره إلى ابعادهم، وفي عام (٥٤٠هـ) عندما اعلن ارمن الرها العصيان ضد زنكي واستطاع نائبه زين الدين كجك ان يقضي على المحاولة، امره زنكي باعدام قادة المؤامرة، ثم قام بترحيل بعض الارمن من المدينة، واحل محلهم ثلاثمائة عائلة يهودية، تخلصا من خطر وجودهم[٩٢٧].

وخلال فترة مبكرة من حكم زنكي قام بنقل طائفة من التركمان تدعى (الايوانية) مع اميرهم ياروق ارسلان إلى الشام، واسكنهم في ولاية حلب، وامرهم بجهاد الصليبيين،

---

(٩٢١) ابن العديم : زبدة الحلب ٢-٢٨٣-٢٨٤ ، الباهر ، ص ٩١ ، الكامل ١١-٥٠.

(٩٢٢) الباهر ، ص ٨٠ ، الكامل ١١-٥ ، مفرج الكروب ١-٥٥.

(٩٢٣) الباهر ، ص ٥٧-٥٨.

(٩٢٤) المصدر السابق ، ص ٦٤ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨-١٩٠.

(٩٢٥) الباهر ، ص ٦٩ ، الكامل ١١-٤٠-٤١.

(٩٢٦) زبدة الحلب ٢-٢٧٩-٢٨٠.

(٩٢٧) أبو شامة : الروضتين ١-٨٦-٨٧.

ومنحهم الحق في تملك كل ما استولوا عليه من البلاد العائدة لهؤلاء، وقد استطاعت هذه الطائفة – فعلا – ان تسترد من الصليبيين الكثير من الاراضي المحيطة بحلب حيث بقيت بايديهم إلى سنة (٦٠٠هـ)[٩٢٨]. وكان ياروق مقدما كبيرا، واليه نسبت الطائفة الياروقية من التركمان، وقد حققت هذه الطائفة – فضلا عن اعمالها الحربية – نتائج عمرانية، اذ بنى ياروق واتباعه، على شاطىء نهر قويق المار بحلب، عمائر كثيرة عرفت باليارفية واشتهرت هناك[٩٢٩].

لم تتطرق المصادر بحرف إلى الجهاز الذي نظمه زنكي لضبط الامن الداخلي كالشرطة مثلا، ولا توجد هناك اشارة واحدة إلى وجود شرطي في عهد زنكي، إلا ان هذا لا يجعلنا نجزم بعدم وجود رئيس للشرطة أو مسؤول اعلى للامن. واغلب الظن ان زنكي اعتمد – في هذا المجال إلى حد كبير – على جهاز استخباراته الدقيق[٩٣٠] ، وعلى البريد، للمساعدة في تحقيق الامن الداخلي، اضافة إلى مهمات هذين الجهازين في الامن الخارجي أو السياسي، ويمكن القول بان جند زنكي وحرسه وحاميات المدن قاموا – كذلك – بدور تنفيذي هام في هذا المجال.

وقد طرأ على نظام البريد تقدم واضح في عهد زنكي، لا سيما بعدما اصابه من اضطراب اثر الحروب التي نشبت بين السلاجقة، وقد ذكر القلقشندي ان هؤلاء اقتصروا في بريدهم على الخيل والبغال، وان الدولة الزنكية ادخلت الجمال سريعة الحركة في الخدمات البريدية[٩٣١]. كما استعملت الحمام في نقل الرسائل التي تتطلب سرعة اكبر، كما يفهم مما اورده المؤرخ المذكور من ان الحمام، الذي عرف استخدامه في مصر والشام، كان قد نقل عن الموصل (وان اول من اعتنى بها من الملوك ونقله من الموصل، هو نور الدين محمود بن زنكي عام ٥٦٥هـ)[٩٣٢]. ولا ريب ان استخدام الحمام في البريد – فضلا عن الجمال السريعة – قد حقق تقدما كبيرا في مجال الخدمات البريدية، وقدم لزنكي معلومات ذات قيمة في ضبط امور مملكته.

---

(٩٢٨) ابن الجوزي : المنتظم ١٠-١٠٢ ، الكامل ١١-٣٦-٣٧.

(٩٢٩) Runciman: A History of the Crusades 11/238-39.

(٩٣٠) الباهر ، ص ٨٠ ، الروضتين ١-١١١-١١٢.

(٩٣١) أبو الفدا : المختصر ٥-٦٦.

(٩٣٢) سبق الحديث عنه لدى الكلام عن (جيش زنكي).

خارطة رقم (١) إقليم الجزيرة

كى. لسترج: بلدان الخلافة الشرقية

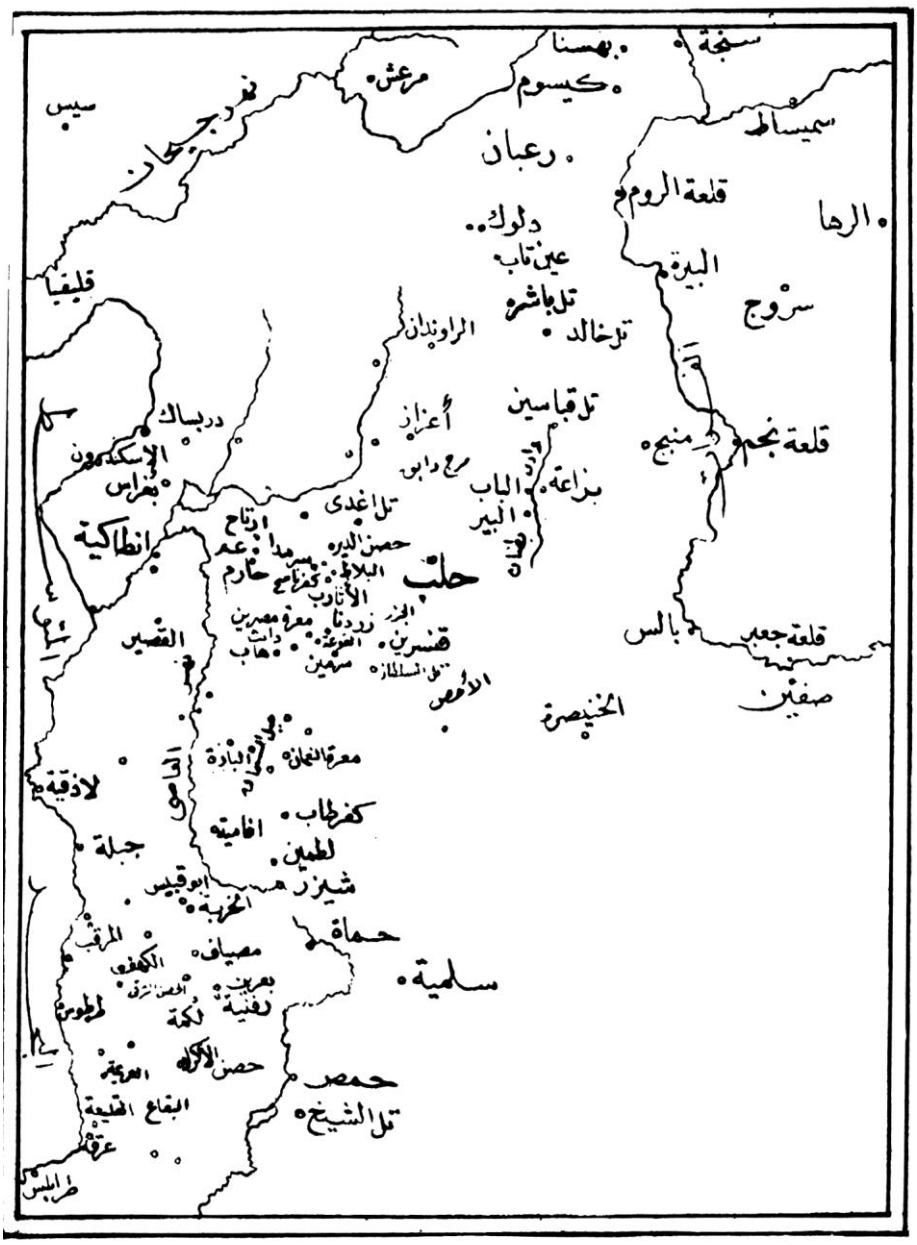

خارطة رقم - ٢ -

سوريا الشمالية

عن: **K. M. Setton, A History of The Crusades. Vol. 1**

١- المصادر القديمة :

ابن الاثير : أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ). التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية (بالموصل) ، تحقيق : عبد القادر احمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة-١٩٦٣م. الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءا ، دار الطباعة ، القاهرة-١٢٩٠هـ.

الاربلي : عبد الرحمن سنبط بن قنيتو (ت ٧١٧هـ).
خلاصة الذهب المسبوك (مختصر من سير الملوك) ، مطبعة جاور جيوس القدس-١٨٨٥م.

ابن اياس : محمد بن احمد بن اياس الحنفي المصري (ت ٩٣٠هـ).
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جزءان ، ط ١ ، المطبعة الكبرى الاميرية ، مصر ١٨٩٤م.

البدليسي : شرف خان (الف في اواخر ١٠٠٥هـ).
شرفنامة ، جزءان ، ترجمة محمد علي عوني ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة-١٩٥٨م.

ابن بطوطة : محمد بن عبد الله ابراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ).
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، دار صادر بيروت-١٩٦٠.

البنداري : الفتح بن علي بن محمد الاصفهاني (ت ٦٤٣هـ).
تاريخ دولة آل سلجوق ، من انشاء عماد الدين محمد بن محمد ابن حامد الاصفهاني (ت ٥٩٧هـ) واختصار (البنداري) ، مطبعة الموسوعات ، مصر-١٩٠٠م.

ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي الاتابكي (ت ٨٧٤هـ).
النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة ، ١٣ جزءان ، ط ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة-١٩٢٩-١٩٥٦م.

ابن جبير : محمد بن احمد الكناني الاندلسي (ت ٨٧٤هـ).
رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت-١٩٥٩م.

ابن الجوزي : عبد الرحمن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧هـ).
المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ٥ اجزاء ، ط ١ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن ، الهند–١٣٥٩هـ.

الحسيني : صدر الدين أبو الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي (ت ٦٢٢هـ).
أخبار الدولة السلجوقية (المسمى زبدة التواريخ في اخبار الامراء والملوك السلجوقية)، تحقيق : محمد اقبال ، نشريات كلية بنجاب لاهور–١٩٣٣م.

ابن حوقل : أبو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧هـ).
صورة الارض ، ط ٢ ، مطبعة بريل ، مدينة ليدن–١٩٣٨م.

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ).
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط بولاق ، ٧ اجزاء ، ١٢٨٤هـ.
و ط بيروت ، ٦ مجلدات ، دار الكتاب اللباني ، ١٩٥٦–١٩٥٩م.

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت ٦٨١هـ).
وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٦ اجزاء ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، ط ١ ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة–١٣٦٧هـ.

الدميري : كمال الدين محمد بن موسى (ت ٨٠٨هـ).
حياة الحيوان الكبرى ، جزءان ، ط ٣ ، نشر مصطفى البأبي الحلبي ، مصر–١٩٥٦م.

الديار بكري : حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٨٢هـ).
تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، جزءان ، المطبعة الوهبية ، القاهرة–١٢٨٣هـ.

الذهبي الحافظ شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز التركماني (ت ٧٤٨هـ).
دول الاسلام ، جزءان ، ط ٢ ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد الدكن ، الهند–١٢٦٤هـ.
العبر في خبر من غبر ، ٤ اجزاء (الجزءان الأول والرابع تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دار المطبوعات والنشر ، الكويت–١٩٦٠. والجزءان الثاني والثالث تحقيق: فؤاد السيد ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت–١٩٦١م).

ابن الساعي : أبو طالب علي بن انجب تاج الدين (ت ٦٧٤هـ).
الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ، عني بنشره مصطفى جواد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد–١٣٥٣هـ. مختصر اخبار الخلفاء (اختصر من قبل مؤرخ مجهول من اهل القرن السابع للهجرة في اواخر سنة ٦٦٦هـ ، والاصل لابن الساعي) ، ط ١ ، المطبعة الاميرية بيولاق ، مصر–١٣٠٩هـ.

سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤هـ).
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، جزءان ، ط ١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند–١٣٧٠هـ.

السبكي : أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (٧٧١هـ).
طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ اجزاء ، ط ١ ، المطبعة الحسينية ، القاهرة–١٣٢٤هـ.
معيد النعم ومبيد النقم ، طبعة David W. Myhrman لندن–١٩٠٨م.

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ).
تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٢ ، مطبعة السعادة ، مصر–١٣٧٨هـ.

أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ).
كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان ، تحقيق : محمد حلمي محمد احمد ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة–١٩٥٦م.

الروذراوري : أبو شجاع محمد بن الحسين (ت ٤٨٨هـ).
ذيل تجارب الامم ، تحقيق : امدروز ، شركة التمدن ، مصر–١٩١٦م.

ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل (ت ٨٧٣هـ).
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، صححه بولس راويس ، المطبعة الجمهورية ، باريس–١٨٩٤م.

ابن الشحنة : أبو الوليد محمد (ت ٨٨٣هـ).
روضة المناظر في اخبار الاوائل والاواخر ، منشور بحاشية الكامل لابن الاثير في الأجزاء ٧،٨،٩، دار الطباعة ، القاهرة–١٢٩٠هـ.

ابن شداد : القاضي بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ).
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة–١٩٦٢م.

ابن شداد : عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت ٦٨٤هـ).

الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، قسم الجزيرة : مخطوطة (اكسفورد– رقم ، 33 Marsh . Bodl). قسم حلب : تحقيق : دومينيك سورديل ، المعهد الفرنسي ، دمشق–١٩٥٣. قسم لبنان والاردن وفلسطين : تحقيق : سامي الدهان ، المعهد الفرنسي ، دمشق–١٩٦٢م.

ضياء الدين ابن الاثير : (ت ٦٣٧هـ).

رسائل ابن الاثير ، تحقيق انيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت–١٩٥٩م.

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ).

تاريخ الرسل والملوك ، ٣ اجزاء ، طبع دي غويه ، ليدن–١٨٧٩م.

ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا العلوي (ت ٧٠٩هـ).

الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، مطبعة محمد علي صبيح ، الازهر– ١٩٦٢م.

ابن العبري : غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥هـ–١٢٨٦م).

تاريخ مختصر الدول ، تحقيق انطوان صالحاني اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت–١٩٥٨م.

ابن العديم : كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ).

زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جزءان ، تحقيق : سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق–١٩٥٤م.

العظيمي : محمد بن علي (ت ٥٥٦هـ).

تاريخ العظيمي ، مخطوطة نشرها كلود كاهين في مجلة (J.A.) ، باريس–١٩٣٨م، ونشر سامي الدهان بعض اقسامها المهمة في حاشية زبدة الحلب.

ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ).

شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ٨ اجزاء ، مكتبة القدسي ، القاهرة–١٣٥٠هـ.

العمري : شهاب الدين احمد بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ).

التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة–١٣١٢هـ.

مسالك الابصار في ممالك الامصار ، الجزء الأول ، تحقيق : احمد زكي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة–١٩٢٤م.

الفارقي : احمد يوسف بن علي بن الازرق (ت ٥٧٢هـ).
تاريخ آمد وميا فارقين ، مخطوطة رقم : (Oxford , 6 , 310) نشر القسم الأول منها : بدوي عبد اللطيف عوض ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية ، القاهرة–١٣٧٩هـ.

أبو الفدا : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ).
تقويم البلدان ، تحقيق ماك كوكين ديسلان ، دار الطباعة السلطانية باريس–١٨٤٠م.
المختصر في اخبار البشر ، مجلدان ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت.

القرماني : أحمد بن يوسف بن احمد الدمشقي (ت ١٠١٩هـ).
أخبار الدول وآثار الأول ، منشور في حاشية الكامل لابن الاثير الاجزاء : ١–٦ ، دار الطباعة ، القاهرة–١٢٩٠هـ.

ابن القلانسي : أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥هـ).
ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق : امدروز ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت–١٩٠٨م.

القلقشندي : أحمد بن علي بن أبي اليمن القاهري الشافعي (ت ٨٢١هـ).
صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ١٤ جزءا ، المطبعة الاميرية ودار الكتبة المصرية ، القاهرة–١٩١٣–١٩٢٢م.

ابن كثير : اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ).
البداية والنهاية في التاريخ ، ١٤ جزءا ، مطبعة السعادة ، القاهرة–١٩٣٢م.

المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ).
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٩ اجزاء ، تحقيق باربيه دي مينار ، باريس–١٨٧٤م.

مسكويه : أبو علي احمد بن محمد (ت ٤٢١هـ).
تجارب الامم وتعاقب الهمم ، جزءان ، تحقيق امدروز ، ومرغليوث ، ليدن–١٩١٣م.

المقدسي : المعروف بالبشاري (ت ٣٧٥هـ).
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق : دي غويه ، مطبعة بريل ليدن–١٩٠٦م.

المقريزي : تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ).
السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٦ اجزاء ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة–١٩٣٦م.
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، جزءان ، مطبعة بولاق ، القاهرة–١٢٧٠هـ.

ابن منقذ : اسامة بن مرشد الكناني الشيزري (ت ٥٨٤هـ).
كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة–١٩٣٠م.

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ).
مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، ٣ اجزاء ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، جامعة فؤاد الأول ، القاهرة–١٩٥٣م.

ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠هـ).
تتمة المختصر في تاريخ البشر ، جزءان ، المطبعة الوهبية ، القاهرة–١٢٨٥هـ.

ياقوت الحموي : شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ).
معجم البلدان ، ٦ اجزاء ، تحقيق فستنفلد ، ليبزك–١٨٦٦.

٢– المراجع الحديثة :

بيومي : علي.
قيام الدولة الايوبية في مصر ، دار الفكر الحديث ، القاهرة–١٩٥٢م.

بولياك : أ . ن.
الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان ، ترجمة عاطف كرم ، منشورات وزارة التربية الوطنية ، بيروت–١٩٤٨م.

حبشي : حسن.
نور الدين والصليبيون ، دار الفكر العربي ، القاهرة–١٩٤٨م.

علي ابراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية (وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص) ، ط ٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة–١٩٤٨م.

حسنين : عبد المنعم.

سلاجقة إيران والعراق ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة–١٩٥٩م.

رنسيمان : ستيفن.

محاضرات في : المدنية البيزنطية – الحروب الصليبية ، ترجمة : صالح احمد العلي، مطبعة وزارة المعارف ، بغداد–١٩٥٦م.

زامباور : ادوارد فون.

معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، جزءان ، ترجمة : واخراج زكي محمد حسن ورفاقه ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة–١٩٥١م.

زكي : محمد امين.

خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، المجلد الأول ، ترجمة محمد علي عوني ، مطبعة السعادة ، القاهرة–١٩٣٦م.

تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي ، (وهو المجلد الثاني) من (خلاصة تاريخ الكرد) ، ترجمة : محمد علي عوني ، مطبعة السعادة ، القاهرة–١٩٤٨م.

سعداوي : نظير حسان.

التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة–١٩٥٧م.

نظام البريد في الدولة الاسلامية ، دار مصر للطباعة ، القاهرة–١٩٥٣م.

عاشور : سعيد عبد الفتاح.

الحركة الصليبية ، جزءان ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة–١٩٦٣م.

العريني : السيد الباز.

الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، دار النهضة العربية القاهرة–١٩٦٣م.

لسترانج : كي.

بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة وتحقيق : بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبوعات المجمع العلمي ، بغداد–١٩٥٤م.

ماجدو البنا : عبد المنعم ماجد وعلي البنا.

الاطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى ، دار الفكر العربي ، القاهرة–١٩٦٠م.

٣- المراجع الاجنبية :

Cahen : Claude La Syrie de Nord a L'epoque des Croisades, (Paris-1940). Mouvements POPULAIRES ET Antonomise Urbaine dans I'Asie Musulmane du Moyen Age. (Leider -1995)

Dozy: R. Supplement aux Dictionnaires Arabes, (Leiden. 1927).

Gibb: H.H.R. The damascus Chronical of the Crusades. (London-1932) Zengi and the Fall of Edessa, (Setton, Vol. I, PP. 449-462).

Grousset: Rene Histoire des Croisades et da Royaume France de Jeruselem, 3 Vols. (paris-1934-1936).

Lambton: Ann K.s. Landlord and peasant in persia, (London-1953)

Lane – Pool: S. A History of Egypt in the Middle Ages, (London-1925). Saladin and the fall of the Kingdon of Jerusalem, (London-1898).

The Mohammadan Dynasties, (Paris-1925).

Nicholson: R.L. The Growth of the latin States. 1118-1144. (Setton, Vol. I, 410-447).

Runciman: Stevn. A History of Crusades, 3 Vol. Cambridige 1957.

Setton: K.M. A History of the crusades, 2 Vol. (Pennsylvania-1955, 1958).

Stevenson: W.B. The Crusaders in the east, (Cambridge-1907).

The encyclopedia of Islam, I, 2, Edition, (Leiden-London).